من الذاكرة

مشاهد من مظاهر الحياة في

فلسطين ومصر والسعودية والكويت وبريطانيا

في القرن الماضي

الاستاذ الدكتور محمد على الفرا

2008

الأستاذ الدكتور محمد على الفرا



* دكتوراه في التنمية الاقتصادية (جغرافية اقتصادية) من جامعة نيوكاسل بالمملكة المتحدة عام ١٩٧٠.
* عمل أستاذاً جامعياً في الكويت والأردن.
* عمل أستاذاً زائراً في عدد من الجامعات الأوروبية والأميركية.
* شغل مناصب أكاديمية كثيرة منها عميداً لكليتي الآداب والعلوم في جامعتي عمان الأهلية، والعلوم التطبيقية، وأوكلت إليه رئاسة الجامعة في الثانية.
* له مؤلفات وبحوث عديدة منشورة منها :-
- التنمية الاقتصادية في دولة الكويت، ١٩٧٢.
- مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية ١٩٧٣.
- الطاقة : مصادرها العالمية ومكانة النفط العربي بينها، ١٩٧٤.
- مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي، ١٩٧٩.
- الفكر الجغرافي في العصور الوسطى والقديمة، ١٩٨٧.
- تراث فلسطيني، ١٩٨٩.
- خان يونس : ماضيها وحاضرها، ١٩٩٨.
- السلام الخادع : من مؤتمر مدريد ١٩٩١ إلى انتفاضة الأقصى ٢٠٠١م.
- الإسلام والغرب : مواجهة ... أم حوار، ٢٠٠٢.
- العروبة إلى أين.. أمة بلا قيادة، ٢٠٠٧.
* له مساهمات كثيرة في الصحف والمجلات ومحطات التلفزة.

من الذاكرة

مشاهد من مظاهر الحياة في

فلسطين ومصر والسعودية والكويت وبريطانيا

في القرن الماضي

الأستاذ الدكتور محمد على الفرا

2008

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٦٤٢/٥/٢٠٠٨)

٩٢٠/٧١

القرا، محمد علي

من الذاكرة مشاهد من مظاهر الحياة في فلسطين ومصر والسعودية والكويت وبريطانيا في القرن الماضي/ محمد علي القرا. _ عمان: المؤلف، ٢٠٠٨.

(   ) ص

ر.إ.: (١٦٤٢/٥/٢٠٠٨)

الواصفات:/ التراجم// السيرة الذاتية/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ١٦٤٢/٥/٢٠٠٨



الإهداء

إلى أحفادي

حازم وهنا وأحمد

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا كتاب لم أركز فيه على سيرتي الذاتية، ولا مسيرتي الشخصية، رغم ما تحظى به كتب السير الذاتية من أهمية، والتي من خلالها يستطيع الشخص، المهتم بالدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية التعرف على سمات الأزمنة التي عاصرها كتّاب السير الذاتية، وأحوال الأمكنة التي عاشوا فيها، والأحداث الهامة التي كانوا شهوداً عليها، أو ساهموا في صنعها.

إن ما تحويه كتب السير الذاتية من معلومات قيمة مثل وصف أنماط الحياة في المجتمعات، وما ساد فيها من قيم وعادات وتقاليد وأعراف، وما ظهر فيها من مناشط وفعاليات إقتصادية وسياسية، ونظم ثقافية وتعليمية وعلمية، تُعد اليوم مصدراً هاماً من مصادر الدراسات في حقول متعددة، وبخاصة الإجتماعية والأنثروبولوجية، كما قلنا.

إن من أهم الأسباب التي جعلتني لا أركز، في هذا الكتاب، على سيرتي الذاتية، لقناعتي بأن قرّاء كتب السير يهتمون بالشخصيات الكبيرة والهامة، كأن يكون كاتب السيرة الذاتية سياسياً مرموقاً، أو دبلوماسياً بارزاً، أو عالماً متفوقاً، أو شخصاً له منجزات تفوّق بها على غيره ويمكن الاستفادة منها. أمّا أنا فإنسان عادي كسائر الناس لا أتميز عن غيري بشيء. صحيح إنني عصامي، ولكن العصاميين في الدنيا كثيرون. وصحيح أن العصامي، حينما يكتب عن نفسه، ويبيّن كيف شق طريقه إلى النجاح، يبعث الأمل في نفوس الكثيرين الذين لم يفقدوا الثقة بأنفسهم.

لهذا السبب ولغيره، فقد ركزت اهتمامي على الزمان الذي عاصرته، وعلى المكان الذي عشت فيه. ومما ساعدني على ذلك أنني – والحمد لله – لا زلت احتفظ بذاكرة قوية استطيع استحضارها منذ وعيت، وإن كنت لا أعي متى بدأت أعي.

لقد ساعدتني هذه الذاكرة على وصف الأمكنة التي عشت فيها، وطبيعة المجتمعات التي كنت جزءاً منها، فبدأت بإعطاء صورة عامة وشاملة لمسقط رأسي، وبلدي الذي ترعرعت في كنفه، وحبوت على أرضه، واكتحلت عيناي بنوره، وعشقت ترابه، واستنشقت هواءه، وشربت ماءه، وأكلت من ثمراته وخيراته.

قمت بوصف الحياة في مسقط الرأس، وسجّلت ما كان سائداً من قيم وعادات

وتقاليد. وهي تعكس ما كان سائداً في فلسطين، وبخاصة في عقد الأربعينيات من القرن الماضي. وذكرت الأحداث الكبرى التي تعرض لها وطني، وكنت شاهداً عليها قبل انتهاء الإنتداب البريطاني على فلسطين، في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨، وما نجم عن ذلك من تداعيات، كان أهمها نكبة فلسطين، التي أدت إلى طرد الفلسطينيين من وطنهم وتشردهم وتشتتهم في الآفاق.

التحقت في عام ١٩٥٠ بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً)، وعشت بمصر أربع سنوات، تجولت في أثنائها في جميع أنحائها، وزرت الكثير من مدنها وقراها، في الشمال والجنوب، والشرق والغرب، مما ساعدني على وصف مظاهر الحياة في مصر آنذاك، وبخاصة في عهد الملك «فاروق»، وذكرت الأحداث السياسية الهامة، والتغير السريع للوزارات، والصراع على السلطة، وحتى قيام ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢م.

سافرت إلى مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦، وعملت بمدارسها نحو تسعة أشهر، ومارست بها نشاطاً إذاعياً وصحفياً، مما مكنني من وصف الحياة آنذاك في المملكة والتعرف على سكانها.

وفي السنة التالية تعاقدت للعمل مدرساً في الكويت، وعاصرت عهد حاكمها الشيخ «عبدالله السالم الصباح»، وشهدت انطلاق نهضة الكويت العمرانية والإنمائية والاقتصادية والتعليمية والصحية.. إلخ، فسجلت بداياتها، ووصفت المجتمع الكويتي آنذاك بعاداته وتقاليده وقيمه، وما كان يتميز به الكويتي من بساطة ونقاء وصفاء وإخلاص وصدق في التعامل، وثقة بالنفس.

سافرت إلى بريطانيا في خريف عام ١٩٦٦ لإكمال دراساتي العليا، والحصول على الماجستير والدكتوراه، والتي منحت لي في عام ١٩٧٠، وكنت في أثناء إقامتي في بريطانيا أحرص على الاختلاط بالشعب البريطاني، وكوّنت مع أسرتي علاقات قوية مع الأسر البريطانية. وكنت أكثر من الأسفار في أنحاء بريطانيا ما مكنني من وصف حياة المجتمع البريطاني، وما يتصف به البريطانيون من سمات لا بد من التعرف عليها، ليستفيد كل من يود التعامل معهم بنجاح.

عدت إلى الكويت مع أسرتي في منتصف عام ١٩٧٠م، فوجدت تغيرات كثيرة قد حدثت في البلاد، فقمت برصدها وتسجيلها وإظهار مدى انعكاساتها. وشهدت غزو الكويت في فجر الثاني من آب/ أغسطس عام ١٩٩٠، حيث اعتكفت في منزلي أسجل الأحداث وتداعياتها الخطيرة ليس على الكويت وحدها، وإنما على الأمة العربية كلها.

في وصفي للبلاد التي أقمت فيها، والمجتمعات التي اندمجت فيها، حاولت أن تكون كتابتي على شكل مشاهد نابضة بالحياة، حتى لا يشعر القارىء بالملل، وفي الوقت نفسه ذكرت نفسي، وما قمت به من أدوار، وما تعرضت له من مواقف، كان بعضها صعباً عليّ في حينه، ثم أصبحت فيما بعد من النوادر أو الطرائف التي قد أستهجنها كلما استحضرتها من ذاكرتي.

حاولت في هذا الكتاب أن أكون - كما قلت - شاهداً على زمان عاصرته، ومكان عايشته، أملاً أن أكون قد ساعدت القارىء من أبناء جيلي على استرجاع حياة عاشها، ونسي بعضها أو معظمها. وفي الوقت نفسه، أردت أن أعطي الأجيال من بعدي صورة لحياة مجتمع آبائه وأجداده التي ربما يجهلها، ويود معرفتها.

قد يتساءل القارىء عن الشخص الذي يقرأ عنه، وهو أنا. ولا شك في أن التعرف على شخصية الكاتب أمر هام، لأن ذلك يساعد على التأكد من صدق ما يكتب. ولهذا بدأت الكتاب بفصل استهلالي تحدثت فيه عن نشأتي، وعن أسرتي وعائلتي. وأني آمل أن لا أكون قد أثقلت على القارىء الذي لا يعنيه أمري، بما ورد في هذا الفصل من أمور، ربما يرى فيها تفاصيل لا تهمه. وفي هذه الحالة فإني أنصحه بتجاوز هذا الفصل وإهماله، والإنتقال إلى قراءة ما يهمه من فصول أخرى.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل للذين قرأوا مسودة الكتاب، وأبدوا ملاحظات قيّمة، وهم الزميل الأستاذ الدكتور ناصر ثابت، والصديق الدكتور عبدالرحمن سلمان، والمربية الفاضلة الدكتورة سامية الفرا، مدير عام مدرسة البكالوريا بعمان. والشكر موصول للصديق الأستاذ إبراهيم الفرارجة موجة اللغة العربية بالكويت سابقاً لمراجعته مسودة الكتاب وتصويبه نحوياً.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ أحمد عمر العيص، مدير المطابع التجارية للدستور، على اهتمامه بالكتاب من حيث الطباعة والتصميم والإخراج.

«محمدعلي» عمر الفرا
ضاحية الحمّر - عمّان
أيار/ مايو ٢٠٠٨

النشأة

ولدت بمدينة خان يونس في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٣٢. ولما كانت المدرسة الإبتدائية، والوحيدة الحكومية بالمدينة آنذاك، تتقيد بقانون التعليم في عهد الإنتداب البريطاني في فلسطين، فلا تقبل التلاميذ في الصف الأول، إلا إذا استكملوا عامهم السابع، فقد أضاف والدي سنة على عمري الحقيقي، ليصبح تاريخ ميلادي في عام ١٩٣١ بدلاً من عام ١٩٣٢. وكان هذا الإجراء سهلاً في الماضي، ويتطلب شهادة من المختار، ثم أصبح لا بد من حلف اليمين فيما بعد أمام حاكم الصلح، أي قاضي محكمة الصلح.

كنت المولود الخامس لأسرة أنجبت أحد عشر مولوداً، عاش منهم خمسة أولاد، وأربع بنات، وكان هذا العدد ليس كبيراً آنذاك، فحب النسل، وكثرة الذرية كان الشائع في تلك الأيام، لأسباب دينية واجتماعية واقتصادية. وكان الاعتقاد بأن تحديد النسل محرماً في الإسلام. وكان رب الأسرة يتباهى بعدد أبنائه، وبخاصة الذكور، فهم «عزوته» و«سنده»، وبهم يرفع رأسه شامخاً، ويحمي نفسه، ويكسب احترام الناس وهيبتهم له. وفي الوقت نفسه، يمكن الإعتماد عليهم كمورد للرزق، حينما يعملون، وبهم يؤمن رب الأسرة حياته، وحياة أسرته حينما يدخل مرحلة الكهولة، والشيخوخة. وهذا الأمر كان شائعاً في البلاد العربية والأقطار النامية، وربما لا زال قائماً، ما دام ليس هناك نظام ضمان اجتماعي، كما هو الحال في البلاد المتقدمة.

كان أخي «خليل» الإبن البكر، سُميَّ على إسم الجد «خليل». وكانت الأخت «صبحية» تليه مباشرة، ثم الأخ «هاشم» الذي سُميَّ على اسم عم الوالد، أي شقيق الجد خليل، والذي غادر خان يونس قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨) إلى مصر، واستقر بمدينة الإسماعيلية، وحصل على الجنسية المصرية، وانقطعت أخباره عن العائلة[١].

كان «عبدالرحيم» المولود الرابع للأسرة، ولكنه مات وهو رضيع، فجئت – كما قالت الوالدة – عوضاً عنه. وبعد ذلك بنحو عامين جاءت الأخت «فاطمة» ثم تلتها الأخت «سعاد» ثم الأخ «عبدُالله»[٢]، ثم مولود مات وهو رضيع، جاء بعده «سعيد» الذي كنا نسميه «تميم»، ثم «عبدالمنعم» والأخت يُسرى.

حتى كتابة هذه السطور فإن الأخ الأكبر «خليل» لا زال يعيش مع أسرته ومعظم أبنائه وأسرهم بخان يونس. أما صبحة فقد توفيت ودفنت بخان يونس، بيما توفي

« هاشم » في الجزائر ودفن فيها. وقد هاجر الأخ « سعيد » إلى كندا عام ١٩٧٤، ولحقه الأخ الدكتور « عبدُالله » وأسرته إلى كندا في أواخر التسعينيات من القرن الماضي. وتقيم الأخت « سعاد » وأسرتها، والأخ « عبدالمنعم » وأسرته في الكويت، أمّا الأخت « يُسرى » فتعيش مع أسرتها بخان يونس.

كان والدي « عمر » الإبن البكر للجد « خليل » الذي أحب أن يسمي أول مولود له - كما جرت العادة - على اسم والده تكريماً له، وحفظاً لذكراه. وبسبب تكرار الإسم « عمر »، فقد أُطلق على نسل جدي « خليل » فرع « العمارين ». وإلى هذا الفرع ينتسب « الهواشم »، وهم نسل عمي « هاشم »، أخ والدي، والإبن الثاني للجد « خليل ». ويُعد « العمارين » جزءاً من فرع أكبر هم « السرور ».

أمّا والدتي فكان اسمها « فريزة » بنت « عبدالله السقا ». وعائلة السقا من العائلات المعروفة والمحافظة، وموزعة بين مدينتي غزة وخان يونس، واشتهر عدد من أبنائها بالعلم والاصلاح بين الناس.

عمل والدي في التجارة، وكان حال الأسرة رقيقاً، ودخل الوالد يغطي بالكاد المتطلبات البسيطة والمتواضعة لهذه الأسرة. وكانت الأوضاع الإقتصادية في خان يونس صعبة، فالفقر منتشر، والتعليم غير شائع، والأمراض متفشية، والوفيات، وبخاصة بين الاطفال كثيرة. وهذه الأحوال كانت سائدة في معظم - إن لم يكن - جميع المدن والقرى الفلسطينية، إذ لم يكن قد مضى على انتهاء الحرب العالمية الأولى إلا ثلاثة عشر عاماً، عاني فيها عرب فلسطين الضيق والشدة.

وقد حدثني والدي أن الناس في أثناء هذه الحرب لم يجدوا ما يأكلونه، فانتشرت الأوبئة والأمراض. وربما كان الشيخ « عثمان الطباع » خير من ذكر ذلك بالتفصيل، ووصف المجاعة التي قاسى من شدتها سكان غزة، في مخطوطته المساة « إتحاف الأعزة في تاريخ غزة »[٣]. حيث قال: « وصار الناس يقتاتون من الأعشاب والترمس والقشور والجيف، فأحدثت فيهم الأمراض الفاتكة، ومات أكثرهم بالجوع ».

صحيح أن البريطانيين حينما احتلوا فلسطين من الأتراك حاولوا تحسين الأوضاع الاقتصادية للسكان، ونشر التعليم والعناية بالصحة، إلا أن اهتمامهم بالأمن وبتثبيت أركان حكمهم في البلاد، وبتنفيذ وعد بلفور بتهويد فلسطين، كانت تطغى على سواها من الأمور. ففتح السجون والمعتقلات كان أهم عندهم من فتح المدارس، وتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين وصرف مبالغ كبيرة على أيوائهم، كان أهم عندهم من الصرف على تحسين الأوضاع الصحية لعرب فلسطين. وإذا كان عرب فلسطين قد

عانوا من الشدة والضيق في الحرب العالمية الأولى، فقد استمرت معاناتهم بعد أن ابتلوا بانتداب بريطاني، جاء في ركابه غزو صهيوني للبلاد، فانتفض شعب فلسطين، وقام بعدة ثورات، زادت من بؤسه ومعاناته وشقائه.

يُطلق على العائلة الكبيرة في فلسطين «حمولة». وتعد عائلة الفرا من أكبر «الحمايل» في خان يونس وأشهرها، لما كانت تتمتع به من نفود وسطوة وهيبة. وعن أصل العائلة أخبرني المرحوم عبدالرحمن محمد الفرا، عميد العائلة، ورئيس بلدية خان يونس، من عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٥٧، بأننا ننتسب إلى عالم في النحو نشأ في العراق، كان اسمه «الفراء». ولما بحثت في المراجع، فيما بعد عن «الفراء»، وجدت خمساً قد تسموا بهذا الإسم، كان أولهم «يحيى بن زياد بن منظور الأسلمي» المعروف بأبي زكريا الفراء، المتوفى عام ٢٠٧هـ، والملقب بأمير النحاة. ألف عدداً من الكتب، أهمها وأشهرها «معاني القرآن». وقد اختاره أمير المؤمنين «المأمون» لتعليم ولديه أصول النحو، وقد روى «ابن القفطي» في كتابه[٤] حادثة طريفة للفراء مع المأمون لها دلالات عميقة في التربية والأخلاق واعتزاز العالم بعلمه. قال «إبن القفطي» ما نصه[٥]: «فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء، يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً، فقدماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر، فرُفع إليه الخبر، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين. قال: بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد أن يقدم له فرداً، قال: يا أمير المؤمنين: لقد أردت منعهما من ذلك، ولكن خشيت أن ادفعهما عن مكرمة سبقا إليها، واكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها. وقد يُروى عن ابن عباس أن أمسك للحسن والحسين ركابيهما حتى خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسنّ منهما. قال: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذو الفضل. قال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً، وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبيّن عن جوهرهما، وقد بينت لي مخيلة، الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم».

وعن سبب تسميته الفراء، قال الدكتور «أحمد مكي الأنصاري»[٦]: «إنما سمي الفراء فراء لأنه كان يُحسن نظم المسائل، وما عُرف ببيع الفراء ولا شرائها قط. وقال بعضهم: سُميّ فراء لقطعة الخصوم بالمسائل التي يُعنت بها من قولهم: قد فرى إذا قطع،

قال زهير

ولانت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

يروي «السمعاني» المتوفى سنة ٥٦٢هـ في كتاب الأنساب، سبب ذلك التلقيب عن أبي الفضل الفلكي في كتاب الألقاب، حيث قال: «ولُقب بالفراء لأنه كان يفري الكلام».

أمّا الأربعة الآخرون الذين حملوا لقب «الفراء»، فأولهم هو «علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن العبسي الفراء»، والمتوفى عام ٣٥٢هـ = ٩٦٣م. وكان مؤرخاً مصرياً، ومن فقهاء المالكية. والثاني هو «محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء»، كان عالم عصره في الأصول والفروع، وهو من بغداد، ارتفعت مكانته عند «القادر» و«القائم»[٧]، وولاه القائم قضاء دار الخلافة وحران وحلوان، ولكنه اشترط أن لا يخرج أيام المواكب، ولا في الاستقبالات، ولا يقصد دار السلطان. فاستجيب لمطالبه. وله الكثير من المؤلفات التي لا يتسع المقام لذكرها، وقد توفي في عام ٤٥٣هـ - ١٠٦٦م.

أمّا الثالث فكان «الحسن بن مسعود بن محمد الفراء» المتوفى عام ٥١٠هـ = ١١١٧م، ويلقب بـ«محيي السنة»، ويطلق عليه «البغوي» نسبة إلى «بغا»، من قرى «خراسان». وهو محدث ومفسر، له كتب من أهمها «التهذيب في فقه الشافعية»، و«شرح السنة في الحديث» و«لباب التأويل في معالم التنزيل».

أمّا الرابع فهو «محمد بن محمد بن الحسين الفراء»، المعروف بابن أبي يعلى، ويُقال له «ابن الفراء» توفي عام ٥٢٦هـ = ١١٣١م، ولد ومات ببغداد. من كتبه «طبقات الحنابلة»، و«تنزيه الأدلة في الرد على الفرق الضالة المضللة». وكان من أشهر فقهاء الحنابلة.

من المعروف عن العربي اهتمامه بالأنساب، وتتبعه لأصوله وجذوره، وهذا ما دفعني إلى ذكر ما سبق من العلماء الذين حملوا لقب «الفراء». وإذا كان عميد عائلتنا المرحوم «عبدالرحمن الفرا» قد ذكر لي بأننا ننتسب إلى عالم نحوي عراقي سمي بالفراء، لأنه كان بليغاً يفري الكلام، فإن هذه الصفات لا تنطبق إلا على «أبي زكريا الفراء» سابق الذكر. ولما سالته عن المصدر الذي اعتمد عليه، قال بأنه قول تناقلته الأجيال من قبله. وأصبح من الموروثات، وكانت الأجيال من قبلنا يصرون على وضع الهمزة في آخر الكلمة، ولكن جيلنا حذفها للتخفيف، وصرنا نكتب «الفرا» بدلاً من «الفراء».

لم اقتنع تماماً بأننا ننتسب إلى «أبي زكريا الفراء»، وفي الوقت نفسه لا أملك من الأدلة ما أنفي صحة ذلك، فالمعروف عن العرب أنهم يتناقلون أنسابهم بالرواية في

حالات كثيرة. ولكنني لا استبعد أن يكون جدنا هو المؤرخ المصري «علي بن الحسن العبسي الفراء» الذي سبق ذكره أعلاه. ولعل ما أورده الشيخ «عثمان الطباع» عن عائلة «الفرا» الموجودة في فلسطين وسوريا بأن الجد جاء من مصر، كما سنذكر ذلك بعد قليل. ومن الأدلة الأخرى، وجود عائلات مصرية تحمل اللقب نفسه في محافظة المنوفية بمصر، وفي محافظة الشرقية[٨]. وفي القاهرة بشارع «كلوت بيك» قرب العتبة سمعت بوجود مسجد باسم «علي الفرا». ولكن لا أستبعد أن يكون «أبو الحسن العبسي»، المصري، من نسل «أبي زكريا الفراء» العراقي، فالتنقل بين البلاد العربية والإسلامية كان سهلاً، وأن كثيراً من علماء العراق استقروا بمصر، وبالعكس.

ذكر الشيخ «عثمان الطباع» في مخطوطته سابقة الذكر، بأن جد عائلة «الفراء» اسمه «حسن»، جاء من مصر، وخلّف من البنين أربعة: الأول «حسن» - على اسم والده - عاد إلى مصر، والثاني «محمد» سكن دمشق الشام، والثالث «أحمد» استقر بخان يونس، والرابع «شعبان» سكن غزة. وهو يقول:[٩]

«والفراء أربعة فروع، الأول عاد لمصر، والثاني هو شعبان توطن ولده غزة، واشتهر «بأبي شعبان»، والثالث توطن دمشق الشام، واشتهرت أسرته بالفراء، وظهر من ذريته بها كثير من التجار والوجهاء، وذكرهم في تاريخ دمشق[١٠]، قال: «ومنهم من تولى رئاسة البلدية (يعني بلدية دمشق) في عهد الأتراك، ومنهم من فضل بالعلم والبر والإصلاح، ولهم ذرية بها إلى الآن، والرابع، بقي بناحية خان يونس، ونمت ذريته، وظهر منهم تجار وصلحاء ووجهاء وكرماء، وتولى منهم رئاسة مجلس البلدية السيد «إبراهيم أبو سليم»، ثم السيد «عبدالرحمن أبو أسعد».

يورد الطباع شجرة العائلة التي تناسلت عن الجد «أحمد»، الذي قال بأنه استوطن خان يونس، ولكنه لم يحدد العام الذي جاء والده «حسن الفراء» إلى خان يونس. ولكنني اعتقد أن مجيئه كان في بداية القرن الثامن عشر، أو التاسع عشر للميلاد.

إذا كنا نعتقد بوجود قرابة دموية بين عائلتي، الفرا» و«أبي شعبان»، وتؤكد هذه القرابة هاتان العائلتان، فإنني أتشكك في كون «شعبان» إبنا لحسن الفراء القادم من مصر، كما سبق ذكره، ويؤكد هذا الشك، ما أورده الشيخ عثمان الطباع في مخطوطته. وفيها يقول بأن جد عائلة «أبي شعبان» في غزة[١١]: «جاء مع قرابته «مبروك» جد «المباريك»[١٢]، و«الطنطاوي»[١٣] جد «بني الفراء» من جهة مصر في أوائل القرن الثالث عشر (الهجري)، ونزل بناحية خان يونس، ثم نزل منها إلى مدينة غزة».

ربما كان مما يؤكد، أو يعزز وجود قرابة بين عائلتي «الفرا» في خان يونس و«أبي شعبان»

في غزة، ما ذكره الباحث الغزي المعروف الأستاذ «سليم عرفات المبيّض»[14]، بوجود وثيقة بيع أرض أو عقار لثلاث قطع من الأرض في كرم الزيتون بمنطقة العواميد. وقد اشترى هذه القطع الحاج «محمد عبدالخالق أبو شعبان»: الأولي من الشيخ «حمودة» وأخويه «خطاب» و«موسى الفرا»، والثانية اشتراها من «عطية بركات مبروك الفرا»، والثالثة اشتراها من «الحاج محمد صالح اسماعيل الفرا». وقد تم الشراء عام ١٢٩٦هـ الموافق ١٨٧٨م. وربما كان هذا البيع شكلاً من أشكال ما يعرف بالمخالصة بين البائعين من آل الفرا الذين فضلوا الاستقرار بخان يونس، والمشترين من آل «أبي شعبان» الذين آثروا السكني بغزة.

ربما يكون من بين القراء الكرام من يعتقد أنني أسهبت في الكتابة عن نشأتي وأسرتي وعائلتي، وبذلك أكون قد خرجت عن النهج الذي بيّنته في مقدمة الكتاب، وكنت أود حذف بعض ما كتبت، زيادة على ما سبق حذفه، لولا أن الذين قرأوا هذا الفصل من أبناء عائلتي طلبوا مني عدم الحذف، لأنه يفيدهم في معرفة أصل العائلة، فاستجبت لهم، وفي الوقت نفسه اعتذر لقرائي من خارج العائلة، إن شعروا بالاستطالة والإسهاب، ولكن بإمكانهم تجاوز ما لا يودون قراءته، والانتقال إلى الفصول أو الأجزاء التي تهمهم.

قد يكون من الضروري، بعد الكتابة عن النشأة، إعطاء القارىء الكريم صورة عامة عن مدينة خان يونس، مسقط رأسي، مبيناً أحوالها وأوضاعها: سكانياً واجتماعياً واقتصادياً.. إلخ، في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي (القرن العشرين)، وهي صورة قد تنطبق على معظم – أو ربما كل – مدن فلسطين وقراها. فالظروف السائدة آنذاك كانت عامة وشاملة على جميع الفلسطينيين في مدنهم وقراهم وأماكن سكناهم.

١– لقد فوجئنا في عام ١٩٤٧ بقدوم ابن له اسمه «محمد»، جاء من مصر إلى مدينة يافا، حيث عمل عند العم «راغب خليل الفرا» بعد أن قدم نفسه إليه بأنه ابن عمه «هاشم». وكان العم راغب شريكاً في وكالة للفواكه والخضروات وتمتلك سيارات نقل في مدينة يافا. وبسبب اضطراب الأحوال السياسية في فلسطين، واختلال الأمن، فضل «محمد» العودة إلى مصر، ولم نسمع عنه، ولا عن أسرته بعد ذلك.

٢– حين ولادته طلبت من والدي تسميته بهذا الإسم تيمناً باسم والد النبي صلى الله عليه وسلم والذي كنت آنذاك أدرس سيرته في المدرسة.

٣– طُبعت هذه المخطوطة في عام ١٩٩٩، وظهرت في أربعة مجلدات، وقام بدراستها وتحقيقها الأستاذ عبداللطيف زكي أبو هاشم، وتولت طبعها ونشرها وتوزيعها مكتبة اليازجي في مدينة غزة. (انظر المجلد الأول من ص٣١٣، ٣١٤).

٤- جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، «أنباه الرواة على انباه النحاة»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الرابع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦.

٥- المرجع نفسه، ص١٧، ١٨.

٦- احمد مكي الأنصاري، «ابو زكريا الفراء، ومذهبه في النحو»، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦٢، ص٣١-٣٢. وأصل هذا الكتاب رسالة جامعية، نال عليها «أحمد الأنصاري» درجة الدكتوراه بامتياز مع التوصية بطبعها. وقد أهداني نسخة من الكتاب يشيد بانتسابي إلى الفراء، كما كان يعتقد.

٧- من خلفاء العباسيين المتأخرين، فالخليفة القادر حكم من ٩٩١-١٠٣١م، وجاء بعده الخليفة القائم الذي حكم من ١٠٣١-١٠٧٥م.

٨- يطلق عليهم «آل خطاب»، وحينما سمعت عنهم في خمسينيات القرن الماضي، قيل انهم بمدينة «فاقوس» بالشرقية.

٩- عثمان الطباع، مرجع سابق، راجع النسخة المطبوعة من الكتاب، المجلد الثاني، ص٣٥٦-٣٥٧.

١٠- يقصد «تاريخ دمشق» لمؤلفه المعروف «إبن عساكر».

١١- عثمان مصطفى الطباع، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص٢٤.

١٢- المباريك نسبة إلى مبروك بن عبدالله بن أحمد بن حسن الفرا، كما ورد في شجرة العائلة في كتاب الطباع، المجلد الثالث، صفحة ٥١٩..

١٣- الطنطاوي هو أخ عبدالله والد مبروك وابن احمد بن حسن الفرا. ولا ادري لماذا قال الشيخ عثمان الطباع بأن «الطنطاوي» هو جد «بني الفراء»، ولم يقل أن مبروك كان أيضاً من عائلة الفراء، فهل كان ذلك خطأ أم نسياناً أو إهمالاً؟. وعلى أية حال فإن ذلك يدعونا إلى التدقيق في روايات الشيخ عثمان الطباع وتمحيصها.

١٤- سليم عرفات المبيض، غزة وقطاعها، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص٣٥٧.

في مسقط الرأس

تقع خان يونس في جنوب فلسطين، وتبعد عن الحدود المصرية بنحو عشرين كيلو متراً، حيث تقع كل من رفح الفلسطينية، ورفح المصرية. والمسافة بين خان يونس وغزة لا تزيد عن ثلاثة وعشرين كيلو متراً. وخان يونس، والتي تكتب أحياناً «خانيونس»، مكونة من مقطعين هما: «خان»، وتعني نُزُل أو فندق، و«يونس»، وهو إسم الذي أشرف على بناء الخان، واسمه كما هو مسجل على باب الخان: «يونس الداودار»[1]، في عهد السلطان المملوكي «برقوق». وقد اكتمل البناء في عام ٧٨٩هـ الموافق ١٣٨٧م. وهذا الخان يختلف عن الخانات التي أقيمت على الطرق لراحة التجار والمسافرين ودوابهم، فقد بني على هيئة قلعة حصينة لها أسوار عالية، وبوابة رئيسية ضخمة ومنيعة، وأبراج للمراقبة، وفتحات يطلق منها الجنود السهام أو النيران إذا ما تعرضت القلعة للخطر. وقد شهدت القلعة معارك هامة، لعل من أهمها حادثة الفتنة الكبرى، في عهد السلطان المملوكي «قايتباي» ١٤٦٨-١٤٩٦م حيث تحصن فيها «قانصوه خمسائة» بعد خروجه على السلطان، ودارت معركة رهيبة هُزم فيها «قانصوه». وشهدت القلعة معركة حاسمة بين المماليك والسلطان «سليم» العثماني عام ١٥١٧م، انهزم فيها المماليك، فواصل العثمانيون زحفهم إلى مصر واحتلوها، وفي أثناء عودة السلطان سليم من مصر، غضب على الصدر الأعظم (أي رئيس الوزراء) يونس باشا، وأمر بقتله، فدفن بداخل القلعة[2]. وذكر المؤرخ «مصطفى مراد الدباغ» أن «نابليون بونابرت» كاد أن يُقتل عند قلعة خان يونس عام ١٧٩٩[3].

قبل عام من مولدي - أي في سنة ١٩٣١ - أجرت حكومة الإنتداب البريطاني إحصاءً لمدن فلسطين وقراها، وكان عدد سكان خان يونس ٧٢٤٨ نسمة. وفي الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤ قامت الحكومة بإحصاء ثانٍ وأخير، حيث وصل عدد سكان خان يونس إلى ١٠,٥٠٠ (عشرة آلاف وخمسمائة) نسمة، فجاء ترتيبها سكانياً - أي من حيث عدد السكان - الخامسة عشرة، وهي المرتبة نفسها التي احتلتها مدينة عكا ذات الشهرة التاريخية. وقد تفوقت خان يونس من حيث عدد السكان على المدن التالية: بيت لحم (٨٨٠٠ نسمة)، المجدل (٨٧٠٠ نسمة)، طولكرم (٧٤٠٠ نسمة)، رام الله (٥٩٠٠ نسمة)، بيسان (٤٣٠٠ نسمة)، بئر السبع (٤٢٠٠ نسمة)، جنين (٣٩٠٠ نسمة).

شكلت القلعة النواة التي امتد العمران منها إلى جميع الجهات، فأصبحت قلب المدينة، بعد قدوم الناس إليها للإقامة والاستقرار فيها. وسكان المدينة إمّا من أصول غزية، أو مصرية، وبعضهم جاء من الحجاز وشبه الجزيرة العربية، أو من مناطق أخرى تنتمي لأصول مملوكية وكردية.

لم تكن الأحوال في خان يونس – كما سبق القول – تختلف كثيراً عن ما كانت عليه في سائر المدن الصغيرة والبلدات الفلسطينية الكبيرة، فعلى سبيل المثال لم تكن الخدمات الطبية آنذاك متوافرة في خان يونس. وكانت الولادة تتم في البيوت، ويقوم بالتوليد قابلات غير قانونيات سُميّن «دايات» ومفردها «داية»، ورثن المهنة من أمهاتهن أو أقاربهن، ويعتمدن على خبرتهن وتجاربهن الشخصية، وغالباً ما يجهلن الأصول الصحية والشروط الطبية، مما كان يؤدي إلى ارتفاع معدلات وفيات المواليد أو إصابة الأمهات بالكثير من الإصابات بعد الولادة مثل حمى النفاس ووفاتهن بسبب أخطاء في أثناء عملية التوليد، أو نتيجة التلوث لعدم معرفة التعقيم السليم، وقواعد النظافة قبل الولادة وبعدها.

ونظراً لانعدام الرعاية الصحية وعدم وجود مراكز للأمومة والطفولة، على نحو ما هو متوافر اليوم، فإن معدلات وفيات الأطفال، وبخاصة الرُضع، كانت عالية جداً. وعلى الرغم من ارتفاع معدلات الولادة حيث كان عدد المواليد للأسرة الواحدة يزيد في الغالب على العشرة، وقد يصل إلى أكثر من خمسة عشر، إلا أن من يبقى على قيد الحياة منهم قد لا يزيد على الخمسة. وكثيراً ما كانت تنتشر الأمراض السارية مثل الحصبة والحمى والتيفوئيد، وكذلك الأوبئة مثل الكوليرا. وتفتك هذه الأمراض بالكثيرين وتسبب العديد من الوفيات. وكان من الطبيعي، أن تنخفض معدلات الزيادة الطبيعية، على عكس ما هو عليه الوضع حالياً، حيث يحافظ كثير من الناس على معدلات الإنجاب العالية، في حين انخفضت نسبة الوفيات نتيجة انتشار التعليم والوعي الصحي، وزيادة الخدمات الصحية، وإقامة العديد من العيادات الطبية، والمستوصفات والمستشفيات، وكثرة عدد الأطباء. وهذا لم يكن متوفراً في الماضي. فعلى سبيل المثال، لم يكن يوجد في الثلاثينيات، وبداية الأربعينيات من القرن الماضي في خان يونس طبيب حكومي مقيم في المدينة، ولا مستشفى أو مستوصف رسمي. ولذلك كان كثير من المرضى والمصابون بجروح يموتون قبل أن يصلوا إلى المستشفى في مدينة غزة. وكان معظم الناس يلجأون إلى الوصفات الشعبية للشفاء من المرض، ومنهم من كان يقع فريسة للمشعوذين الذين يزعمون بقدرتهم على شفاء المرضى. ومن الناس من كان لا يؤمن

بالطب ويعتبر المرض ابتلاء من الله يمتحن به عباده الصالحين.

لم يكن في خان يونس حتى بداية الأربعينيات إلا عيادة طبية متواضعة للغاية، مؤلفة من ثلاث غرف، وليس بها غير أدوية بسيطة كالمراهم والمسكنات والشربات المسهلة المستخدمة في معالجة آلام المعدة كالملح الإنجليزي وزيت الخروع. وكان يتفقد العيادة طبيب يحضر عدة أيام في الاسبوع من غزة واسمه فيما اذكر الدكتور طاهر الخطيب، وهو مقدسي. امّا بقية أيام الاسبوع فكان يشرف على العيادة ممرض يعرفه الناس بأبي ميشيل. وهو من غزة. وفي العيادة قابلة قانونية يناديها الناس بأم يوسف، وهي لبنانية الأصل تمكنت من تكوين علاقات طيبة مع عدد من الأسر البارزة في المدينة.

كان الممرض «أبو ميشيل» قوي الشخصية، حاد الطبع، عصبي المزاج، سريع الانفعال، ويصعب التعامل معه لفظاظته وقسوته. وقد أُوكل إليه الإشراف على الشؤون الصحية في المدينة، وكان يشاركه في ذلك مفتش البلدية السيد «كامل إبراهيم الفرا». وكان الإثنان يطوفان في الأسواق ويفتشان الدكاكين والمحلات التجارية للتأكد من تطبيق القواعد والشروط الصحية، وحصولها على شهادة صحية سارية المفعول.

في بداية الأربعينيات من القرن الماضي افتتح الدكتور حيدر عبدالشافي وشقيقه الدكتور مصطفى، مستوصفاً طبياً في المدينة، فكان أول مركز طبي خاص، يخدم المدينة وقراها. وقد استأجر لهذه الغاية دار الشحري، قرب القلعة.

لم تكن في المدينة آنذاك شبكة مجاري صحية، ولم يكن في المنازل المقامة على أطراف المدينة مراحيض. وكانت جميع المراحيض في المنازل الواقعة في حدود البلدية تفتقر إلى الشروط الصحية، فهي عبارة عن حفر بسيطة يتولى تفريغ محتوياتها وتنظيفها اشخاص يلقون الأوساخ أمام البيوت ويغطونها بالتراب، مما يولد مكاره صحية تنمو عليها الجراثيم والحشرات وتتكاثر.

ظلت خان يونس، حتى مطلع الأربعينيات بدون شبكة مياه تزود البيوت بما تحتاج إليه من ماء للشرب وللاستخدامات المنزلية. ولذلك كان الناس ينقلون المياه إلى بيوتهم على ظهور الدواب في جرار فخارية أو في أوعية معدنية يسمونها «فناطيس» ومفردها «فنطاس»، وتُملأ هذه الجرار أو الفناطيس من حنفيات تستمد مياهها من خزان أرضي تعارف الناس على تسميته آنذاك «بركة». ويُملأ هذا الخزان بالمياه من البئر الوحيدة التي حفرتها البلدية في وسط المدينة. ومنها يُرفع الماء بالضخ الآلي إلى الخزان. وكان كثير من الشباب يصعدون إلى سطح الخزان ويتسامرون، وبخاصة في ليالي الصيف المقمرة، وظل هذا الخزان قائماً حتى بداية الأربعينيات، حيث هدم وأزيل، واقيم بدلاً منه، وعلى

بعد بضعة أمتار منه خزان اسمنتي يرتفع على أعمدة خرسانية، وكان الناس يسمونه «حاووز». وبعد بناء هذا الخزان بدأت البلدية بتمديد شبكة المياه لتزود البيوت الواقعة ضمن حدودها بالمياه.

لم يدخل التيار الكهربائي المدينة إلا في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، ولذلك كانت تُنار المنازل بمصابيح تشتعل بالكيروسين (الكاز). وفي بيوت الأسر المقتدرة تُستعمل مصابيح أقوى وأجود تسمى «شمعدانات»، ومفردها «شمعدان». وفي المناسبات تُستخدم مصابيح قوية تسمى «لوكسات»، ومفردها «لوكس». وقد استمدت اسمها من ماركتها التجارية (LUX)، أما الأسر الفقيرة فكانت تستخدم «السّراج» في الإنارة.

كان البلدية تقوم بإنارة شوارع المدينة وأزقتها وحاراتها بفوانيس زجاجية. أمّا الساحات والميادين العامة فكانت تُنار بمصابيح قوية «كلوبات»، ترفع على سواري عالية. وكان موظفو البلدية يبدأون بإنارة الفوانيس والمصابيح وإصلاحها وصيانتها وتزويدها بالكيروسين يومياً، وينيرونها حالما يحل المساء.

كانت المدينة صغيرة المساحة وبيوتها التي لا تزيد عن ألفي بيت متراصة ومتلاصقة وشوارعها ضيقة جداً، فهي أقرب إلى الأزقة منها إلى الشوارع. ولم يكن هناك نسق محدد أو تنظيم أو تخطيط يلتزم به الناس عند البناء، ولذلك كانت الأزقة متعرجة وغير متساوية الأبعاد، فكثير ما تضيق ثم تتسع ثم تعود فتضيق، وكثيراً ما تبرز بعض البيوت وتتقدم لتعتدي على الشارع.

لم تكن المحاجر في منطقة غزة متوفرة لصنع أحجار البناء منها، كما في المناطق الجبلية من فلسطين، اللهم إلا محاجر محدودة جداً، تُستخرج منها صخور رملية، حيث تُصنع منها حجارة البناء، كما هو الحال، قرب قرية بني سهيلا الواقعة شرقي خان يونس. وقد بنيت منها بعض البيوت في المدينة منها منزل الحاج حسن الفرا، ومنزل الشيخ حسن البطة، ومنزل لشخص من آل النجار.

يبدو أنه بسبب عدم توفر حجارة البناء أو ندرتها وارتفاع أثمانها، فقد كان الناس يبنون مساكنهم من الطين المصنوع في قوالب على شكل قطع. وكان الطين يُستخرج من مناطق يطلق على الواحدة منها «مَطيَنة». ومن أشهر هذه «المطاين»، واحدة يملكها «عبدالمالك مضيوف الفرا»، وتقع في شمال المدينة، والثانية يملكها «عثمان شعث» الملقب بعثمان «القصيلة»،وتقع في جنوبها.

وكان يُستخدم الطين الممزوج بالقصل كملاط (قصارة) للجدران، ولتغطية أسقف

المنازل المكونة من الأخشاب أو جذوع الأشجار، ولذلك كان لا بد من صيانتها كل عام. بإعادة «تلييسها»، أي قصارتها بالطين، تعويضاً عما تزيله الأمطار منها. وكثيراً ما كانت تتعرض هذه البيوت للانهيار في مواسم الأمطار الغزيرة، فتسمع صيحات سكانها، وبخاصة في الليل، يطلبون النجدة، فيسارع الناس إلى نجدتهم غير مبالين بالبرد والأمطار، مكتفين بوضع أكياس الخيش على رؤوسهم، حاملين معهم الفؤوس والمعاول التي يستعيون بها في إزالة ما تهدم من المباني، وما جرفته المياه من المساكن. وحينما ظهر الإسمنت بدأ الناس يصنعون منه الحجارة الإسمنتية للبناء، ويستخدمونه في سقف المنازل وأعمدتها الخرسانية.

كانت نسبة التعليم في عام ١٩٣١، كما سبق القول، متدنية جداً في فلسطين التي خرجت كغيرها من الأقطار العربية، من حكم تركي استمر نحو أربعة قرون، ساد فيها الجهل والتخلف، وشاع فيها الظلم والاستبداد والتسلط، ثم خضعت لانتداب بريطاني، كان هدفه إقامة كيان يهودي على أرض فلسطين لضرب وإفشال أية وحدة عربية ممكنة. وكانت حكومة الانتداب في فلسطين مهتمة، كما قلنا سابقاً، بالإنفاق على أمنها وأمن اليهود، بإقامة السجون والمعتقلات لسجن واعتقال الأحرار من الفلسطينيين الذين يثورون أو يعترضون على سياستها الغاشمة الرامية إلى تهويد فلسطين، بمنح اليهود الأراضي، وبخاصة الأميرية، والتي كانت تسمى «أرض المندوب السامي»، وبتسهيل تملكهم أراضي واسعة من فلسطين، والتي كان يملكها في العهد العثماني ملاك من خارج فلسطين مثل عائلة «سرسق» اللبنانية، مما مكن اليهود من الاستيلاء على أراض كثيرة في منطقة «مرج بن عامر»، وإخراج عرب الحوارث من أراضيهم بعد بيعها لليهود.

لم يكن اهتمام حكومة الانتداب إذن بسكان عرب فلسطين اجتماعياً واقتصادياً وصحياً وتعليمياً، وإنما كان اهتمامها بتهويد فلسطين ووضع قواعد الدولة اليهودية، ولذلك تحمل سكان فلسطين العرب عبئاً كبيراً في تعليم ابنائهم.

بموجب احصاء عام ١٩٣١ بلغت نسبة الذين يستطيعون القراءة، والكتابة، أو ما يُسمى آنذاك «فك الخط» في فلسطين نحو ٣٤٪ للرجال. وقد انخفضت النسبة كثيراً عند النساء، فلم تكن تزيد عن ٩٫٥٪ فقط، إذ كان كثيرون لا يحبذون تعليم المرأة بسبب عادات وتقاليد خاطئة.

أما الذين تلقوا تعليمهم في مدارس ابتدائية أو تخرجوا فيها، فكان يطلق عليهم «المتعلمون»، ويتميزون عن الذين تعلموا في الكتاتيب القراءة والكتابة «فك الخط» وحفظ بعض سور من القرآن الكريم، وتلاوة المصحف أو ما يسمى «ختم الختمة».

بموجب احصاء عام ١٩٣١ بلغت نسبة الدارسين في المدرسة الابتدائية من سن السابعة في الصف الأول فما فوق وحتى الصف السابع ابتدائي ٢٢٥ في الألف للذكور، و٥٢ في الألف للإناث، والمعدل العام للجنسين ١٣٧ في الألف، وهي نسبة متدنية جداً وتدل على انخفاض شديد في نسبة التعليم، وهذه النسبة تنطبق على كثير من مناطق فلسطين آنذاك.

١- داوادار لقب يطلق على حامل اختام السلطان، وهو بمثابة رئيس الديوان الملكي اليوم، ويعد من أكبر مناصب الدولة وأهمها.

٢- محمد علي عمر الفرا، «خان يونس: ماضيها وحاضرها»، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٨، ص٦٦-٦٨، ٧٢-٧٣.

٣- مصطفى مراد الدباغ، «بلادنا فلسطين» الجزء الاول، القسم الثاني، الطبعة الأولى، منشورات دار الطليعة بيروت، ١٩٦٦، ص١٣٩.

من ذكريات ثورة فلسطين الكبرى

لا أعي متى بدأت أعي، إلا أن ما استطعت وعيه، وما انطبع في ذاكرة طفولتي المبكرة لم يكن واضح المعالم، ولا ظاهر القسمات والملامح، وإنما كانت ذكريات ضبابية غير مترابطة، فهي أشبه بسحب الصيف الخفيفة المتناثرة والمتباعدة، والتي تظهر كبقع سرعان ما يدفعها الهواء، فتنكشف زرقة السماء، ويظهر صفاؤها.

لعل ما وعته ذاكرتي حينما بدأت أعي، وأتعرف على البيئة التي نشأت فيها، والأحداث التي شهدتها، حديث الناس عن الثورة في سنيّها الأخيرة، وهي التي نشبت في عام ١٩٣٦، وأطلق عليها آنذاك ثورة فلسطين الكبرى، وظلت مشتعلة حتي عام ١٩٣٩، أي عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥). وفي أثناء هذه الثورة حدث الإضراب الكبير الذي استمر ستة أشهر، فكان أطول إضراب حدث في العصر الحديث.

كنت أسمع عن أسماء بعض الثوار في مدينتنا، وما يقومون به من بطولات سنأتي على ذكرها بعد قليل.

لا زلت أذكر أن أسرتنا كانت تقيم في حارة آل العقاد في وسط البلدة، وكان يجاور مسكننا من الشمال منزل «عجاج العقاد»، ومن الجنوب «شلاش المصري»، وإلى الخلف كان يقع جامع «السُنيَّة» والذي أسسته جماعة «السنة المحمدية»، والتي كان من أبرز أعضائها في المدينة التاجر سعيد وادي والشيخ حسن العقاد، والسيد أحمد العسولي، والسيد صالح شبير، والسيد داود كساب.

كان مسجد «السنية» بسيطاً للغاية، حوائطه غير مقصورة، ومنبره من الخشب، وسقفه من الخشب وسعف النخيل، وليس له مئذنة، فكان المؤذن يصعد على سلم خشبي وينادي للصلاة من على سطح المسجد. وفي فصل الشتاء كان الناس يُصلون في قبو أسفل المسجد. وقام المجلس البلدي في بداية الخمسينيات من القرن الماضي بإكمال بناءالمسجد، وبناء مئذنة له، وفرش أرضيته بالبسط بعد أن كان يُفرش بالحُصُر.

في مقابل هذا المسجد، كانت توجد ساحة أرضها منخفضة تتجمع فيها مياه الأمطار والسيول في فصل الشتاء، وكان يطلق عليها «بركة أبي نجا»، لأن مالكها كان — فيما اعتقد — من عائلة «أبي النجا». وكان الصبية والأولاد يمارسون فيها الألعاب في فصل الصيف، وبخاصة في الليالي المقمرة. ومن الألعاب التي أذكرها «لعبة عظام الراح»

و«الاستغماية»، وكرة القدم وغيرها.

كان هذا المسكن الذي نقيم فيه ملكاً للمرحوم «يعقوب الفرا» والد جدتي لوالدتي، واسمها «محبوبة»، فاصبح بعد وفاته لها ولشقيقتيها «عيشة» و«آمنة». وكانت جدتي محبوبة تسكن معنا في المنزل، واحتلت شقيقتها «آمنة» الزوجة الأولى للحاج سليمان حسن حامد الفرا غرفة خاصة. وكانت مريضة لم أرها يوماً خارج غرفتها. وكان ابنها الشيخ «خالد الفرا» الذي يدرس بالأزهر يحرص على زيارتها كلما جاء من مصر لقضاء عطلة الصيف، ويحرص على خدمة والدته. أما «عيشة» فظلت في منزلها الواقع في حارة «آل الفرا» بشرق المدينة بعد وفاة زوجها.

كانت الجدة «محبوبة» رغم تقدمها في السن تحتفظ بملامح وجهها الجميل، فبشرتها بيضاء نقية، ووجناتها حمراء كحمرة الورد، ولم تكن تستخدم المكياج ولا تستعمل أدوات الزينة والتجميل. وقد كانت شديدة التدين تكثر من صلاتها، وتزيد عدد ركعاتها، وتصوم كل «اثنين» و«خميس» من كل اسبوع، وكانت مقلة في طعامها، مما ساعد على رشاقتها وأناقتها واعتدال قامتها، وتصر على لبس الحذاء ذي الكعب العالي الذي كانوا يسمونه «كعب الغزال». وكانت والدتي ابنتها الوحيدة ولها ابن وحيد اسمه «عبدالعال» من زوج آخر غير والد أمي، فوالد أمي كان من آل السقا، أما والد خالي «عبدالعال» فقد كان من آل الفرا واسمه محمد.

قلت إن احداث الثورة كانت أول الانطباعات في ذاكرتي، وكنت أشاهد الناس يتظاهرون دون أن أعرف السبب. فسألت أخي الأكبر مني سناً عن ذلك. فقال بأن ذلك موضوع يطول شرحه، وقد لا تستوعبه الآن، ولكن أقول لك باختصار، بأن قادة يهود تقربوا من بريطانيا في القرن التاسع عشر – وكانت بريطانيا آنذاك أكبر قوة في العالم – وتمكنوا من التأثير عليها، واقنعوها بأن مصالحهم ومصالحها واحدة، فدعمت أطماعهم في فلسطين. وفي ٢ / ١١ / ١٩١٧ أصدر وزير خارجية بريطانيا اللورد «آرثر بلفور» وعده المشؤوم تتعهد بموجبه بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد صدر هذا الوعد قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨)، حيث كانت فلسطين جزءاً من أملاك الدولة التركية العثمانية. وبهزيمة الأتراك في هذه الحرب وانتصار بريطانيا وحلفائها استولت بريطانيا على العراق والأردن وفلسطين، وقامت بتنفيذ وعد بلفور، فعينت على فلسطين مندوباً سامياً بريطانيا يهودياً – واسمه هربرت صموئيل – كانت مهمته وضع أسس الكيان اليهودي بفلسطين، وتهويد البلاد بعدة طرق منها فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حتى يرتفع عدد اليهود فيها، إذ لم تزد نسبتهم

في فلسطين قبل احتلال البريطانيين لها في عام ١٩١٧-١٩١٨ عن ٢٠٪، في مقابل ٨٠٪ للعرب.

ومن وسائل التهويد أيضاً، منح الأراضي الحكومية (الأميرية) لليهود، وتسهيل استيلائهم على المزيد من الأراضي لإقامة مدن وقرى ومستعمرات يهودية، وجعل اللغة العبرية لغة رسمية في البلاد كاللغة العربية والانجليزية، وتعيين يهود في الوظائف الحساسة والهامة، مثل دائرة المهاجرة التي تُسهِّل هجرة اليهود إلى فلسطين، والسماح لليهود بإنشاء وكالة يهودية تتولى وتشرف على شؤونهم. وكانت الوكالة بمثابة دولة داخل دولة. وحينما جلا البريطانيون عن فلسطين، أعلنت الوكالة اليهودية عن نفسها دولة لإسرائيل. وقد سمحت بريطانيا لليهود بإنشاء تنظيمات وعصابات مسلحة لتحارب عرب فلسطين وترهبهم حتى يرحلوا عن بلادهم. وهناك إجراءات أخرى قامت بها بريطانيا لمساعدة اليهود حتى يتمكنوا من إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين يطول ذكرها وشرحها.

لقد كان من الطبيعي أن يثور عرب فلسطين على تهويد بلادهم، ولكن بريطانيا بدلاً من أن تستمع إلى مطالبهم وتنصفهم ألقت القبض على المجاهدين والمناضلين وزجتهم في السجون والمعتقلات التي ضاقت بهم، وقامت بتعذيبهم، وأعدمت كل من وجدت معه سلاحاً نارياً، أو حتى رصاصة واحدة (فشكة)، ونسفت بيوت الثوار والذين يتعاونون معهم.

كلما حل المساء وخيم الظلام، وبخاصة في الليالي المظلمة، ينشط الثوار، فنسمع أزيز الرصاص ولعلعته، فأعرف من أخي هاشم الأكبر مني سناً أن الثوار هجموا على ثكنة للجيش البريطاني، أو اعترضوا طريق قافلة يهودية تحرسها قوات بريطانية متجهة نحو المستعمرات الصهيونية القريبة من خان يونس، مثل مستعمرة «كفار داروم» عند دير البلح أو مستعمرة «الدنجور» الواقعة إلى الجنوب الشرقي من خان يونس.

كان ثوار خان يونس يضعون الألغام تحت قضبان سكة الحديد ما بين خان يونس ورفح جنوباً مما تسبب في نسف عدد من القطارات العسكرية البريطانية، فقامت الحكومة بوضع عدد من أهل المدينة يومياً في عربة تسبق قدوم القطار لتنفجر فيها الألغام. وقد راح ضحية ذلك عدد من رجال مدينتنا. وكنت أشاهد الرجال وقد اقتادوهم من منازلهم، ومن بين أسرهم بالقوة، وحجزوهم في مركز الشرطة تمهيداً لنقلهم إلى محطة سكة الحديد ووضعهم في العربة التي تسمى «عربة الموت». وكان من الذين قضوا نحبهم في هذه العربة، وكتبت لهم الشهادة «الحاج سيد الإمام» الملقب بـ «الفلو»،

و«الحاج شعبان عبدالغفور» و«مهدي أُصرف».

وقد تنبه الثوار المجاهدون لذلك، فصاروا يربطون الألغام بسلك مخفي تحت التراب، ويختبئون خلف الأشجار، أو في مكان غير مرئي يسهل الاختفاء فيه، فلا يضغطون على زر تفجير اللغم عند مرور العربة، وإنما حينما يمر القطار. وهكذا نجا من كان يوضع في العربة بعد ذلك، وكان منهم «الحاج عثمان محمد الفرا» الذي وُضع في تلك العربة مرتين كما أخبرتني حفيدته الدكتورة «سامية الفرا»، مدير عام مدرسة البكالوريا في عمان.

لجأت حكومة الانتداب إلى وسائل أخرى لمعاقبة الثوار وذويهم، ومن يتعاون معهم، بنسف المنازل. وقد شاهدت بنفسي نسف منزل السيد «محمد السقا»، فقد كان الجنود البريطانيون يدخلون المنزل الذي يريدون نسفه وينذرون سكانه بالخروج منه فوراً، وفي الوقت نفسه يضعون أصابع الديناميت في أركان البيت وينسفونه.

طبقت حكومة الانتداب سياسة العقوبات الجماعية التي تطال الجميع بدون تفريق، مثل مداهمة البيوت ليلاً، وترويع السكان الآمنين النائمين وأطفالهم، بحجة البحث عن الثوار، وتحطيم أبواب المنازل في حالة التأخر عن فتحها، وتدمير الأثاث، وكسر النوافذ، والخزائن، وإلقاء الأطعمة على الأرض، أو خلطها ببعضها البعض، كخلط الملح بالسكر، حتى لا يصلح شيء منها للأكل.

لم تكتف حكومة الإنتداب بذلك، بل ألقت القبض على عدد من وجهاء المدينة الذين اتهمتهم بمساعدة الثوار والتستر عليهم، أو الذين رفضوا التعاون معها في ملاحقة الثوار، ونفتهم إلى مناطق نائية شديدة الحرارة والرطوبة في الأغوار. ومن الذين نفتهم رئيس بلدية خان يونس آنذاك السيد «عبدالرحمن محمد الفرا»، ومختار العائلة السيد «مصطفى حسن الفرا»، وعميد آل الآغا السيد «سليم الآغا»، وخطيب المسجد الكبير «الشيخ سعيد حمدان الآغا».

كثيراً ما كانت حكومة الانتداب تلجأ إلى فرض غرامات جماعية على سكان القرى والأحياء في المدن التي ينشط فيها الثوار. وتجمع هذه الغرامات بالقوة من الناس نقداً أو عيناً، فإذا امتنعوا عن الدفع تقوم الحكومة بمصادرة ممتلكاتهم. إما عن منع التجول، فحدّث ولا حرج، إذ كانت الحكومة تفرضه كثيراً، فتمنع السير على الطرق من السادسة مساء حتى السادسة صباحاً. وقد تطول فترة منع التجول لتصل إلى عشرين ساعة أو أكثر، اعتقاداً منها أن ذلك يعيق حركة الثوار، ويساعد على اصطيادهم، ما داموا ينشطون في الليل.

في بداية الثورة، كانت الحكومة تتعرف على الثوار الذين كانوا يضعون «الحطة» أي «الكوفية أو الغترة» البيضاء والمرقطة بالسواد على رؤوسهم، فاصدرت قيادة الثورة قراراً تلزم بموجبه جميع عرب فلسطين وضع هذا النوع من «الحطات» على رؤوسهم، والتخلي عن لبس الطربوش الذي كان شائعاً عند الأفندية في المدن. وأذكر ونحن صبية، أننا كنا نلاحق كل من يرتدي طربوشاً بعد صدور هذا القرار، ونقول متهكمين: «طربوش أحمر منقوش بخمس قروش»، ونقذف لابسه بالحجارة، لنجبره على خلعه.

كان كثير من الثوار يحصلون على أسلحتهم بالهجوم على مراكز البوليس (الشرطة)، بعد أن أصبح الحصول على السلاح من الخارج صعباً جداً بسبب أحكام سيطرة الحكومة على المنافذ والحدود مع الأقطار العربية. وكانت مراكز الشرطة آنذاك في مباني عادية. وعلى أثر زيادة الهجمات على مراكز الشرطة، استدعت الحكومة آنذاك ضابط مخابرات بريطاني اسمه «أورد ونجيت» (Orde Wingate) لدراسة الأوضاع وتقديم النصح لها، ولكنه فشل في مهمته، مما جعلها تستدعي السير «شارلز تيجرت» Charles Teggart لمساعدتها في محاربة الثوار لخبرته الطويلة في الهند، فنصح الحكومة ببناء مراكز شرطة تكون على هيئة قلاع حصينة، ومبنية بالخرسانة المسلحة، ومشادة في مواقع استراتيجية في المدن التي تشهد نشاطاً كبيراً للثوار الذين يهاجمون مراكز الشرطة. وكانت خان يونس من بين مدن فلسطين التي تقرر بناء قلعة للشرطة فيها، ولذلك تم اختيار مكان في شرق المدينة بعد خط سكة الحديد لإقامة القلعة عليها. وقد شهدت حركة البناء التي أشرف عليها مهندسون يهود عرفت واحداً منهم سكن في منزل الحاج حافظ فارس، وكان الناس يسمونه «الخواجة بليستا» Ballesta.

بعد انتهاء البناء انتقل مركز الشرطة في المدينة إليه بعد أن كان يحتل داراً يملكها السيد «حلمي الآغا». وبعد انتقال مركز الشرطة، احتلت دائرة الجمارك الدار وشغلتها. وقد ظلت قلعة الشرطة قائمة حتى مساء ١٩٥٥/٨/٣١، حيث تسللت قوة إسرائيلية ونسفت القسم الأكبر من القلعة وعلى رؤوس من كان فيها من رجال الشرطة الفلسطينية، وسنذكر ذلك في مكانه في ما بعد.

إلى الكُتَّاب *

كان نظام الكتاتيب منتشراً في معظم مدن فلسطين وقراها. والكتاتيب، مفردها كُتَّاب، إحدى نظم التعليم التي كانت سائدة في العصر العثماني أو التركي. والكُتّاب من الكتابة لأن مهمة الكتّاب الأساسية كانت تعليم الصبية القراءة والكتابة. أو ما يسمى آنذاك «فك الخط».

كانت الكتاتيب آنذاك الوسيلة الوحيدة للتعليم في القرى والمدن، ويدير الكتاب ويشرف عليه شخص يعرف القراءة والكتابة، وغالباً يكون من الذين درسوا في الأزهر الشريف، قمة العلم آنذاك، حتى أن الأم كانت تتمنى أن يرزقها الله بولد نبيه ذكي ليتعلم في الأزهر. ويعود عالماً، تتباهى وتتفاخر به في كل مكان، وحتى يقال لها أم الشيخ فلان.

ونظراً لأن غالبية الذين كانوا يمتلكون الكتاتيب أو يعلمون فيها من خريجي الأزهر، فقد كان الكثيرون يطلقون علي الكتاب «الشيخ»، على نحو ما كان في الكويت حينما كانوا يطلقون عليه «مُلاّ». والملا لقب يطلق على رجل الدين في الكويت والخليج العربي، وجمعها «ملالي». ويقال للمعلمة آنذاك «مُلاية».

كان من أشهر «شيوخ» أو «كتاتيب» ذلك الزمان – أي في أواخر الثلاثينيات الشيوخ: «تيّم أبو لبن»، وعبدالوهاب، وحسن العقاد. وكان الشيخ «تيّم» رحمه الله أكبر الشيوخ سناً، يلبس قمبازاً، وعلى وسطه حزاماً من قماش، وعلى رأسه عمامة. ويبدو أنه كان يعاني من شلل في إحدى ساقيه، لذلك كان يسير على عكاز. وكان يسكن بجوار مساكن آل شهوان خلف القلعة، وكانت نظراته صارمة، وعلى محياه تبدو الشدة والجدية، ولكنه مع ذلك كان في غاية الطيبة، وعلو الهمة، ويتحلى بالأخلاق العالية. وقد تلقى مبادىء القراءة والكتابة على يد الشيخ «تيّم» عدد كبير من الناس في خان يونس في أواخر القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين. وكان جميع تلاميذه يقدرونه ويحترمونه. وذات مرة شاهدت العم عبدالرحمن محمد الفرا رئيس البلدية يكاد يقبل يده، فلما سألته عن سبب احترامه الشديد لهذا الشيخ قال: إنه استاذي.. من علمني حرفاً صرت له عبداً.

---

* اعتمدت في كتابة هذا الفصل على كتابي «تراث فلسطين»، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٩، ص٦٨–٧٤.

أمّا الشيخ «عبدالوهاب» فكان مصرياً مُعمّماً – أي يلبس لباس الأزهريين – الجبة والقفطان – ويسكن في حارة العقاد، وكان أعرج، يهوي بشدة على إحدى قدميه. أمّا الشيخ «حسن العقاد»، فكان أصغر شيوخ الكتاتيب سناً، ويلبس الجُبَّة والقفطان كما يفعل الأزهريون، ولكن كان يختلف عنهم في نوع العمامة التي يضعها على رأسه، والتي هي عبارة عن لفة من قماش على طاقية يغطيها القماش الابيض، ويتدلى من هذه اللفة من الخلف جزء بسيط منها. ويطلق على هذه اللفة المميزة «عَذَبة»، وهو غطاء رأس جماعة السنة المحمدية التي كان ينتمي إليها الشيخ حسن العقاد، وهي جماعة سلفية سبق ذكرها.

سمعت الوالد يستشير الوالدة في إحدى الأمسيات في أمر إرسالي إلى الكُتاب، لتعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن، وبخاصة أن المدرسة الإبتدائية الرسمية لم تقبلني لصغر سني، واشترطت أن أكمل السبع سنين من العمر، كما تنص قوانين المعارف آنذاك. وتم الاتفاق على إلحاقي بكُتّاب الشيخ «حسن العقاد» لقربه من منزلنا، ولصلة القرابة التي تربطه بالوالدة، ولأنه كان أفضل الكُتّاب في المدينة آنذاك. وصاحبه «الشيخ حسن» يحمل شهادة من الجامع الأزهر.

كان اليوم الذي ذهبت فيه إلى الكُتاب هاماً بالنسبة لي، لأنه كان عالماً جديداً وحياة جديدة لم أشهدها من قبل، فنمت مبكراً، وصحوت من الفجر، وأعدت لي الوالدة شنطة صنعتها من قماش – كانوا يسمونها جزء – أحملها على الكتف ووضعت فيها رغيفاً من الخبز وبيضة مسلوقة غداء لي حينما يحين موعد استراحة الظهر.

في صبيحة يوم من أيام صيف عام ١٩٣٨ غادرت المنزل متوجهاً إلى كتاب الشيخ حسن العقاد، وكان لا بد من أن يذهب معي الوالد ليسلمني باليد للشيخ ويوصيه بي خيراً، ويعتبرني أمانة في عنقه، ولما اطمأن الوالد عليّ ذهب إلى عمله، وما كنت أود أن يتركني في هذا الجو الجديد الذي لم آلفه من قبل.

في نحو السابعة والنصف صباحاً قرع الشيخ حسن جرساً كان يحمله في يده، وعلى الفور دخل التلاميذ الغرفة الوحيدة التي كان قد استأجرها لتكون مقراً لكتابه، وجلس التلاميذ على حُصر مصنوعة من نبات الحلفا تصنع وتستورد من مصر، حيث تخصصت في عملها بلدة «أبو حماد» والقرى المحيطة بها في مديرية الشرقية بمصر. وكان آل جربوع «آل صادق» قد تخصصوا في استيراد الحصر والحناء من مصر، وهم أصلاً قدموا من الشرقية بمصر واستوطنوا خان يونس.

وأحياناً كانت أرضية الكتاب مفروشة بالبسط التي تخصص في صنعها آل الشحري

الذين كانوا يسكنون في الأطراف الشرقية لخان يونس. وكان آل الشحري يصنعون هذه البسط على أنوال يدوية، وكثيراً ما كان والدي يرسل معي شيئاً من صوف الغنم الخام إلى آل الشحري ليصنعوا منه بساطاً مقلماً بألوان حمراء وسوداء وبيضاء.. إلخ.

وكانت بعض البسط تصنع من القطن. والبسط الصوفية تستخدم في الشتاء. إمّا البسط القطنية فتستخدم في الصيف في المنازل والمساجد، والديوانيات، ويطلق أهل خان يونس على البساط «قياس»، وجمعها «قياسات».

وبينما كان التلاميذ يجلسون على الحُصر أوالبسط المفروشة على الأرض، كان الشيخ يجلس على كرسي، أو «دكة» مرتفعة ومن خلفه لوح اسود يكتب عليه بالطباشير كلما استدعى الأمر.

كان الشيخ يدرس تلاميذه الصغار بواسطة التلقين حيث يقوم بنطق آية من آيات القرآن الكريم أو بجملة أو كلمة تحوي عدداً من الحروف الهجائية بصوت منغم، فيردد التلاميذ ذلك بطريقة منغمة، وأحياناً يتمايلون يمنه ويسره محركين رؤوسهم إلى الأمام والخلف، وكأنهم في حفلة «زار» عند أحد الدراويش «الطرق الصوفية».

وكان مع كل تلميذ لوح أسود صغير مصنوع من الأردواز، وله قلم خاص صلب يكتب به. وكلما كتب الشيخ حرفاً أو كلمة يقوم التلاميذ بكتابتها على الواحهم، وحينما ينتهون من الكتابة، يقومون واحداً واحداً إلى الشيخ ليشرف على تصحيحها وإرشاد التلميذ إلى كيفية كتابتها من جديد.

يبدأ اليوم الدراسي في الكتاب في نحو السابعة والنصف صباحاً في الشتاء، وفي السابعة في الصيف، وكما سبق القول يدخل التلاميذ الحجرة بمجرد أن يقرع الشيخ جرساً يدوياً دون طابور أو نظام. فكل تلميذ يركض من كل اتجاه ليدخل الغرفة. ولم يكن للتلاميذ زي موحد يلتزمون به، فكان منهم من يرتدي القمباز، ومنهم من يلبس البنطلون القصير أو الطويل وفوقه القميص، ومنهم من حلق شعر رأسه حتى الصفر، في حين أن بعضهم تركه حتى يسترسل.

جرت العادة أن يخصص الشيخ الدرس الأول لقراءة القرآن، وتلاوته، ويطلب من التلاميذ تسميع ما حفظوه عن ظهر قلب، ثم يكلف بعض التلاميذ القدامى بتحفيظ بعض آيات من القرآن الكريم وسوره للتلاميذ المستجدين.

ويخرج الشيخ من الغرفة ليترك المجال للتلاميذ لحفظ القرآن، وقد يطلب من بعضهم الخروج من الغرفة ليجلسوا في العريشة، وبخاصة في فصل الصيف ليذاكروا مع زملائهم الكبار.

ويبدأ الدرس الثاني بعد ساعة، وفيه يقوم الشيخ بتدريس اللغة العربية، ويقسم التلاميذ إلى مجموعات بحسب سنهم ومستواهم، فمنهم المستجدون الذين لا بد من أن يتعلموا حروف الهجاء أولاً ثم التعلم على كتابتها ثانياً. وأما الذين سبق لهم حفظ حروف الهجاء واتقنوا كتابتها، فتكون مهمة الشيخ تدريبهم على القراءة في كتب للمطالعة، ويكلفهم في نفس الوقت بالإملاء، وبعد ذلك يقرع الشيخ الجرس لتبدأ فترة الاستراحة والتي كانوا يسمونها «الفسحة» وفي اثنائها يتناول التلاميذ الطعام الخفيف والذي تكون أمهاتهم قد وضعته لهم في أجزائهم ويتالف غالباً من رغيف وبيضة مسلوقة أو قطعة من الجبن أو شيئاً من الدقة والزعتر. وفي أثناء فترة الاستراحة يلهو التلاميذ ويلعبون في الساحة فمنهم من يركض، ومنهم من يتسلق الأشجار. وقد يتشاكسون مع بعضهم أو يتضاربون ويتصايحون.

وتستمر الاستراحة نحو نصف ساعة، فيقرع الشيخ الجرس، ويدخل التلاميذ الحجرة، ويبدأ درس الحساب. ويقوم الشيخ بتعليم المستجدين عد الأرقام، ويستعين في ذلك ببعض كبار التلاميذ. أما التلاميذ الأقدمون فيعلمهم جدول الضرب، ويدرب المتقدمين منهم على عمليات الجمع والطرح والقسمة والضرب.

وتنتهي الفترة الصباحية عند الظهر حيث يذهب التلاميذ إلى منازلهم لتناول طعام الغداء مع أسرهم وذويهم. وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر يعود التلاميذ إلى الكتاب حيث يحضرون درسين مسائيين أحدهما عن السيرة النبوية وأركان الإسلام وكيفية الصلاة، والدرس الثاني عن الخط.

ولم تكن الدروس تسير يومياً على هذا النمط، إذ كان الشيخ يغير مواعيدها أو يقدم بعضها على بعض كما يريد. ولم يكن هناك جدول دراسي منظم يسير عليه التلاميذ كما هو الحال في المدارس النظامية.

لم يكن الكتاب يهتم إلا بتدريس القرآن والدين واللغة العربية والحساب. أما التاريخ والجغرافية والعلوم فلا يدرسها. وعلى أية حال فإن الكتاب كان في زماننا أشبه بالروضة، أي فترة ما قبل المدرسة مع الاختلاف الكبير في فلسفة الرياض وأهدافها حالياً. ولكن في الماضي كان الكتاب يقوم مقام المدرسة. وكان الناس يعتقدون بأن غاية التعليم هو قراءة القرآن وحفظ بعض سوره، وفك الخط ومعرفة مبادىء الحساب. ولا شك في أن الكتاب كان يحقق هذه الأغراض.

وفي أغلب الأحيان كان الشيخ حسن يقسم التلاميذ إلى مجموعات صغيرة، ويضع على رأس كل مجموعة تلميذاً من التلاميذ الكبار أو القدامى ويطلق عليه «العريف»

ومجموعها «عرفاء». ويتولى العريف تحفيظ التلاميذ الصغار والمستجدين الحروف الهجائية، وبعض سور من القرآن الكريم، وقليلاً من الأناشيد، ويتلقى العريف التعليمات والإرشادات من الشيخ مباشرة وهو مكلف بتطبيق هذه التعليمات.

ويختار الشيخ من بين هؤلاء العرفاء، عريفاً عاماً، ينوب عنه في حفظ النظام والتقيد بآداب الكتاب وسلوكه، أو ما يسمى بعملية الضبط والربط. وينبغي أن يتمتع العريف بقوة الشخصية، وقوة البدن والذكاء والنجابة. فقوة البدن، وامتلاء الجسم، وارتفاع القامة أمور ضرورية تساعده على فرض هيبته على التلاميذ الذين يخشون عادة من يمتلك مثل هذه الصفات. أما الذكاء والنجابة فأمران أساسيان حتى يكون العريف قدوة حسنة للتلاميذ.

وكان العريف يسجل على اللوح الأسود أسماء التلاميذ المشاغبين حتى يعاقبهم الشيخ حينما يحضر ويدخل غرفة الدرس. وكان من عادة الشيخ معاقبة المشاغبين والكسالى الذين لا يحفظون الدروس، ولا يؤدون الواجب، أو الذين يتأخرون عن الحضور أو يتغيبون دون عذر.

كان الشيخ يضرب بالمؤشر الذي يستخدمه في التدريس، وهو عصا طويلة مدببة الطرف سميكة عند مقبضها. ولكن العقاب الأمثل كان يتمثل في عصا الخيزران التي يهوي بها الشيخ على أيدي التلاميذ بشدة فلا تنكسر. وإذا كان الذنب كبيراً كان العقاب شديداً، وتستخدم فيه ما يسمى «الفلقة». وهي ربط القدمين بحبل قوي، ويقوم العريف بمساعدة الشيخ بان يرفع قدمي التلميذ المذنب إلى أعلى حتى يسهل على الشيخ ضرب هاتين القدمين بعصاه، وبأقصى قواه. وكلما هوت العصا على قدمي التلميذ علا صراخه أمام أقرانه من التلاميذ، لأن العقاب يجب أن يكون أمام الجميع حتى يكون المذنب عبرة وعظة لغيره، ولذلك كان نظام التخويف هو المتبع في التعليم آنذاك مما جعل التلاميذ يكرهون الكتاتيب والمدارس ويهربون منها، ويحضرون إليها متثاقلين خائفين ودون رغبة أو محبة. وتكون سعادتهم لا توصف في أيام العطل والأعياد لأنهم في أثنائها يتحررون من رهبة الكتاب.

ولما زاد عدد التلاميذ في كُتاب الشيخ حسن، وجد أن من الصعب عليه القيام بالمهمة وحده، فاستعان بشخص فاضل اسمه «خليل صوالي» أنهى دراسته الابتدائية، وعمل مع الشيخ حسن فترة ليست طويلة، ثم التحق للعمل في مكتب بريد خان يونس، الذي كان مديره آنذاك عطا أبو شقرة، الذي جاء بعد «سليمان العامري» وكنيته «أبو إبراهيم».

كان خليل صوالي يدرس تلاميذه في ساحة صغيرة أمام حجرة الكُتاب، مغطاة بسعف النخيل ليقي التلاميذ من أشعة شمس الصيف الحارة. وقد زاول هذه المهنة بعده أخوه «محمد» الذي افتتح له فيما بعد كتاباً في منطقة رمال خان يونس. وقد استشهد في عدوان ١٩٥٦ أثناء استيلاء الإسرائيليين على مدينة خان يونس، وارتكبوا فيها مذبحة مريعة.

مكثت في كُتاب الشيخ حسن قرابة العام الدراسي ١٩٣٧-١٩٣٨. وكان بالنسبة لي بمثابة البستان الذي تعلمت فيه بعض آداب التعليم وسلوكياته، وشيئاً من سور القرآن الكريم، بحيث أصبحت مؤهلاً للالتحاق بالمدرسة النظامية.

إلى المدرسة

كان نظام التعليم العام في فلسطين يتألف من مرحلتين هما: المرحلة الإبتدائية، والمرحلة الثانوية. ومدة المرحلة الإبتدائية سبع سنين، تبدأ من الصف الأول الإبتدائي، وتنتهي بالصف السابع الإبتدائي.

أمّا المرحلة الثانوية، فيلتحق بها الطلبة الذين أنهوا المرحلة الإبتدائية، ونجحوا في الصف السابع الإبتدائي. ومدة الدراسة في المرحلة الثانوية أربع سنوات، تبدأ بالصف الأول ثانوي، وتنتهي بالصف الرابع ثانوي، حيث يقدم الطلاب امتحاناً عاماً وهو امتحان الإجتياز إلى التعليم العالي، وكان يطلق عليه «المتريكوليشن» أو «المترك» وذلك من قبيل الاختصار. والكلمة إنجليزية الاصل (Matriculation)، ومعناها إمتحان القبول بالجامعة.

كان هناك نوعان من «المترك»: مترك لندن، ويستعد له الطلبة في نهاية السنة الثالثة الثانوية، ومترك فلسطين، ويقدمه الطلبة في نهاية السنة الرابعة الثانوية، وهو أصعب من مترك لندن، والذي كان يقدمه الطلبة طوعاً واختياراً وحسب رغبتهم. أما مترك فلسطين فكان مفروضاً على الطلبة اجتيازه إذا أرادوا الإلتحاق بالجامعات أو الحصول على وظيفة محترمة. والطالب الذي لا يحقق الدرجات المطلوبة في المترك يمنح شهادة أقل تسمى «دون المترك» (Sub-Matriculation)، ودون ذلك يكون الرسوب.

في العام الدراسي ١٩٣٨/١٩٣٩ استكملت السنة السابعة من عمري، وسُمح لي الالتحاق بالتعليم النظامي، وسُجلت في الصف الأول الإبتدائي بالمدرسة الإبتدائية، وكانت تسمى آنذاك «مدرسة ذكور خان يونس». وكانت تحتل مبنى بجوار موقف شركة سيارات غزة والقرى الجنوبية المحدودة. ولما انتقلت هذه المدرسة إلى مبنى جديد في الأربعينيات، وهو المبنى الذي احتلته فيما بعد مدرسة القسّام الثانوية، أصبحت تشغله مدرسة إناث خان يونس، والتي كانت تستأجر أحد الدور، في حارة شراب قرب مساكن الطرفندات.

كانت الدراسة في المدارس النظامية على فترتين: فترة صباحية، وأخرى مسائية. وتتألف الأولى من خمسة دروس تليها فترة استراحة طويلة يتمكن التلاميذ في أثنائها من الذهاب إلى منازلهم لتناول طعام الغداء مع أسرهم. وتشتمل الفترة المسائية على درسين يعود بعدها التلاميذ لمنازلهم.

يختلف التعليم في المدرسة كثيراً عن نظام التعليم في الكُتاب. فالمدرسة تتألف من حجرات عديدة، يتوزع عليها التلاميذ بحسب سنوات الدراسة ومراحلها، فلكل صف حجرة خاصة به. وبخلاف الكتاب حيث يكون الشيخ هو المدرس والمدير والبواب (الفرّاش)، فإن المدرسة بها عدد من المعلمين. وكل معلم يتخصص في تعليم مادة من مواد الدراسة، أو في صف من الصفوف. وكان للمدرسة مدير مسؤول، وبواب أو أكثر. وكانوا في فلسطين لا يستخدمون كلمة مدرس وناظر وفراش، على نحو ما هو شائع اليوم بل كانوا يطلقون على المدرس «معلماً»، وعلى الناظر «مديراً»، وعلى الفراش «بواباً».. وبينما كان التلاميذ في الكتاب يجلسون على حُصر أو بُسط مفروشة على الأرض، كان التلاميذ في المدارس النظامية يجلسون على مقاعد خشبية. وقد خصص للمعلم طاولة وكرسي. وكانت حجرات الدرس مستوفية للشروط الصحية. وللمدرسة ساحة يخرج إليها التلاميذ في فترات الإستراحة. وفي المدرسة كان التلاميذ يزاولون الألعاب الرياضية، والرسم والتمثيل، والخطابة وتنمية بعض الهوايات، في حين أن نظام الكتاب كان يخلو من كل هذه المناشط، مما يجعل طابع الجفاف يغلب عليه، فلا يهم الشيخ في الكتاب إلا تحفيظ التلاميذ حروف الهجاء والقراءة والكتابة، وحفظ سور من القرآن الكريم. وقمة العلم في الكتاب هو قراءة جميع سور القرآن الكريم أي «ختم الختمة». فإذا ختم التلميذ الختمة أقام له والده حفلة كبيرة دعا إليها الأهل والأصدقاء والمعارف، ويكون الشيخ نجم الحفلة. ويولم الأب بهذه المناسبة وليمة كبيرة وغالباً ما يكون فيها نحر الخراف.

في المدرسة يلبس المعلمون الملابس الإفرنجية، بينما في الكتاب يلبس الشيخ عادة زياً أزهرياً إذا كان من خريجي الأزهر الشريف، أو اللباس التقليدي وهو القمباز والحطة والعقال أو الملابس الإفرنجية، اي أنه لم يكن يتقيد بزي معين. وكذلك التلاميذ كانوا في الكتاب يلبسون حسب ما يريد أولياء أمورهم، أما في المدرسة فكان ينبغي على كل تلميذ أن يلبس البنطلون القصير (الشورت) ويكون غالباً من الكاكي (الخاكي)، ومع البنطلون يلبس قميصاً. وفي حين كان يسمح للتلميذ في الكتاب بإطالة شعر رأسه، كانت المدرسة تجبر التلاميذ على قص شعورهم إلى درجة الصفر بحجة النظافة.

وكان التلاميذ يدخلون غرفة الكتاب من غير نظام، أمّا في المدرسة، فكان يصطف التلاميذ بعد قرع جرس الصباح في ساحة، على شكل طوابير، وكان لكل (فصل) مكان معلوم يحافظ عليه. وقبل أن يُسمح للتلاميذ بالدخول إلى حجرات الدرس يقوم مدير المدرسة بإلقاء بعض التوجيهات أو التنبيهات على التلاميذ، ويُنادي على التلاميذ

الذين تغيبوا عن المدرسة في اليوم السابق، ويعاقب كل من تغيب دون عذر مقبول بضربه على يديه بعصا يحملها المدير. ويقف أمام كل صف مربيه. والمربي هو المعلم الذي يكون مسؤولاً عن الصف، ويتولى متابعة التحصيل العلمي لكل تلميذ، ويرصد درجات الصف، ويحرر شهادات التلاميذ في كل فصل من فصول السنة الدراسية، ويسجل عليها سلوكه وأخلاقه.

بعد أن ينتهي المدير من إلقاء تنبيهاته، ومعاقبة المسيئين من التلاميذ، يقوم كل مربي فصل بالتفتيش على نظافة التلاميذ، وهم مصطفون على هيئة صفين متقابلين، وكأنهم ينظرون في بعضهم البعض. ويمد كل تلميذ يديه بحيث يستطيع مربي الفصل التأكد من تقليم الأظافر ونظافتها، وحلق شعر الرأس، ونظافة الملبس. وكل من يجده مخالفاً للتعليمات يخرجه من الطابور ليلقى عقابه.

بعد أن تنتهي عملية التفتيش، يعطي مدير المدرسة إشارة للتلاميذ حتى يدخلوا فصولهم، فيبدأون بالتحرك صفاً بعد صف وبنظام يتبع يومياً. ثم يقرع الجرس إيذاناً ببدء الحصة الأولى أو الدرس الأول كما كانوا يطلقون عليه.

وكان أسلوب التعليم يختلف كثيراً عن الطريقة التي كانت متبعة في الكُتاب، على الرغم من أن كلاً منهما يبدأ بتعليم الحروف الهجائية وسور من القرآن الكريم، ومعرفة الأعداد باستخدام العدّاد، وهو على هيئة مربع فيه أسياخ من حديد. وبكل سيخ عدد متساوٍ من الكرات الخشبية الملونة، تساعد المعلم في تعليم التلاميذ العد، والجمع والطرح.

كان كتاب تعليم اللغة العربية هو «الجديد في القراءة العربية»، وهو من تأليف الأديب والمربي الفلسطيني واللغوي المعروف، «خليل السكاكيني»، والذي شغل عدة وظائف تربوية منها مفتش اللغة العربية في دائرة المعارف بحكومة فلسطين. ويتألف كتاب «الجديد في القراءة العربية» من ثلاثة أجزاء، يبدأ الجزء الأول بكلمات: راس – روس، ولذلك كان يطلق عليه كتاب «راس – روس»، وهو مقرر على الصف الأول إبتدائي. أما الجزء الثاني، والذي يبدأ أول عنوان فيه «إلى المدرسة» فكان مقرراً على الصف الثاني ابتدائي، في حين أن الجزء الثالث والذي كان الدرس الأول فيه «الخيوط الذهبية» يُدرس في الصف الثالث إبتدائي.

لم تكن طريقة التعليم في المدرسة النظامية تعلم حروف الهجاء بشكل منفرد، وإنما هدفها أن يتعرف عليها التمليذ من خلال الكلمات البسيطة، والتي بواسطتها تُعرف أشكال هذه الحروف وكيفية نطقها. فمن المعلوم بأن أشكال الحروف تختلف بحسب

موقعها من الكلمة. فالحرف إذا كان موقعه في أول الكلمة يختلف من حيث الشكل عن نفس الحرف إذا جاء في وسط الكلمة أو في آخرها. لذلك كان الدرس الأول في اللغة العربية يبدأ بالكلمات : راس. روس، دار دور.

أقبلت على دروس اللغة العربية بشغف لأني أحببت معلمها الأستاذ عبدالمعطي طهبوب رحمه الله، وهو من مدينة الخليل، وكان على خلق رفيع، مخلص في عمله، ويحب تلاميذه ويعتبرهم أبناءه.

وكان يقرأ علينا بعض الأناشيد لنحفظها من كتاب اسمه «البستان»، وهو من تأليف الأديب الفلسطيني المعروف «إسعاف النشاشيبي»، ولا زلت أذكر أنشودة القهوة والتي مطلعها:

أنـــا المحـبـوبـة الـسـمـرا ... وأجـلـى فـي الـفـنـاجـين
وعـــود الـهـنـد لـي عـطـرٌ ... وذكـري ذاع في الـصـين

تعلمت في الصف الثاني إبتدائي الجمع والقسمة وبعضاً من جدول الضرب، وحفظ قصار السور في القرآن الكريم، وحياة الرسول، والدعوة، وظهور الإسلام، علاوة على اللغة العربية، والرياضة البدنية.

وفي الصف الثالث بدأت بقراءة كتب المطالعة التي تحتوي على قصص تشبع خيال الأطفال. وكان الكتاب المقرر يبدأ بقصة «الدجاجة الصغيرة الحمراء»، وفيه قصص اخرى من بينها قصة «ليلى والذئب». وفي هذا الصف أكملت حفظ جدول الضرب وصرت أحسن القسمة والضرب، وبدأت أدرس التاريخ في كتاب عنوانه «المجمل في التاريخ» تأليف الأستاذ أحمد خليفة، ويبحث هذا الكتاب بشكل موجز في التاريخ القديم في بلاد الرافدين ومصر الفرعونية. وكان الأستاذ جرير القدوة إبن عم ياسر عرفات (الذي أصبح زعيم فلسطين فيما بعد) وزوج شقيقته، يقوم بتدريس مادة التاريخ..

وفي الصف الرابع إبتدائي بدأت أقرأ سلسلة كتب كامل كيلاني للأطفال، التي كان يوزعها علينا مدرس اللغة العربية في دروس المطالعة، واذكر منها الكتب التالية: أبو صير وأبو قير، عبدالله البري وعبدالله البحري، نعمان، السندباد البحري. ومعظم هذه القصص أخذها كامل كيلاني من كتاب «ألف ليلة وليلة»، وأعاد صياغتها بلغة سهلة بسيطة تناسب مستوى الأطفال، وزينها بالرسوم التوضيحية ليحبب الأطفال فيها، ويجذبهم إليها، ويغريهم بقراءتها.

يبدأ تدريس اللغة الإنجليزية في الصف الرابع ابتدائي بكتاب اسمه «موريس ون»

(Morris One). وكان الأستاذ «أكرم برزق» هو معلم اللغة الإنجليزية، أما أخوه «شريف» فكان يعلم الصفين السادس والسابع إبتدائي. وكان يُوزع مع كتاب اللغة الإنجليزية كتاب آخر اسمه (Companion)، وهو أشبه بقاموس، يحتوي على معاني الكلمات الواردة في كتاب «موريس» علاوة على أسئلة وتمارين متنوعة.

وفي هذا الصف درست تاريخ العرب قبل الإسلام، من كتاب اسمه «تاريخنا بأسلوب قصصي» من تأليف المربي الفاضل والوطني المجاهد الأستاذ درويش المقدادي الذي أصبح في مطلع الخمسينات مديراً لمعارف الكويت. أما كتاب المطالعة في اللغة العربية فقد كان من السلسلة التي عنوانها «القراءة الرشيدة»، وهو كتاب كان مقرراً في مدارس وزارة المعارف المصرية. والجزء الأول منه يُدرس في الصف الرابع الإبتدائي، والجزء الثاني يدرس في الصف الخامس وهكذا. حتى الصف السابع.

وفي الصف الخامس درست تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في كتاب عنوانه «المجمل في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى». ويبدأ بغارات البرابرة مثل قبائل القوط والفندال على روما وسقوط الدولة الرومانية وانتهاء العصور القديمة. والكتاب من تأليف «مصطفى الدباغ»، الذي كان مفتش اللواء الجنوبي في معارف فلسطين.

أما دروس الجغرافية فكانت على شكل رحلة يقوم بها شخص إسمه سمير يركب القطار ويتجول في أقطار البحر المتوسط. ومن خلال هذه الرحلة يتعرف التلميذ على جغرافية هذه الأقطار.

وتبدأ دروس مادتي «الصحة» و«الزراعة» من الصف الخامس إبتدائي. ومادة الصحة عبارة عن دروس مبسطة في العلوم. وتبدأ بالتعرف على جسم الإنسان وأعضائه ووظائف كل عضو، وأنظمته كالنظام الهضمي، ونظام التنفس، ونظام الدورة الدموية، والشروط الصحية لحياة الإنسان، ومقومات الحياة من مأكل وملبس ومسكن، والهواء ومكوناته..وهكذا. وكان الاستاذان جرير القدوة وأحمد خليل الآغا يدرسان مادة الصحة في المدرسة.

أما مادة الزراعة فكان الكتاب المقرر وعنوانه «علم الزراعة» من تأليف الأستاذ أحمد القاسم. ويبدأ الكتاب باعطاء فكرة عن النباتات وشروط نموها، ثم يرشد التلاميذ إلى كيفية غرس النباتات والتطعيم بالعقلة، وكيفية حفظ السماد، وأوقات تسميد الأرض. وكان الأستاذ صائب الناظر، من مدينة الخليل، يدرس مادة الزراعة، ثم خلفه الأستاذ محمد ياسين حجازي، ومن بعده جاء الأستاذ حلمي الأمير، ثم الأستاذ بكر.

وكانت المدرسة تستأجر أرضاً زراعية خلف جامع السنية. واستخدمتها مزرعة، حيث

يقوم مدرس الزراعة بتدريب التلاميذ على زراعة الخضروات كالخس والطماطم والسلق ونحوه. وكان التلاميذ يشعرون بالسعادة كلما خرجوا إلى المزرعة، ففي ذلك تحرر من حجرات الدرس ونظام الدروس. وكانت دروس الزراعة العملية في المساء غالباً، أي في الدرسين السادس والسابع.

وفي الصفين الخامس والسادس ابتدائي كانت تُعطى دروس متقدمة في اللغتين العربية والإنجليزية والحساب الذي كان يدرس على شكل مسائل.

كان التلاميذ يدرسون في الصف السابع مواداً اجتماعية كالتاريخ والجغرافية، وبخاصة من كتاب «معلومات مدنية» لمؤلفه محمود العابدي، وهو من مدينة صفد. ويبدأ الكتاب برسم لمائدة طعام الإفطار، بحيث يذكر الأقطار والبلاد التي يُستورد منها أصناف الطعام الموضوع على تلك المائدة.

– محمد علي الفرا وهو في المرحلة الابتدائية

أما مادة الخط فكان يبدأ تدريسه من الصف الخامس ابتدائي، ويتولى تدريسه الأستاذ «أحمد الريماوي»، بينما يعلم الخط باللغة الإنجليزية الأستاذ «أكرم برزق».

كان يطلب من التلاميذ حفظ قصائد من الشعر العربي. وفي دروس المحفوظات أذكر أنني حفظت الكثير من عيون الشعر العربي مثل قصيدة «عليا وعصام» والتي تروي قصة حب عذري بين فتى يقال له «عصام» وفتاة تسمى «علياء». وهما من فخذين متخاصمين ينتميان إلى قبيلة عربية معروفة هي قبيلة «الرولا»، والتي كانت تعيش وتتنقل في صحراء بادية الشام. والقصيدة محزنة ومؤثرة فالأهل يقفون في وجه هذا الزواج لأن والد «عليا» هو الذي قتل والد «عصام». وقد وقفت أم عصام ضد زواج

إبنها من «عليا»، لأنها تريد منه أن يقتل والد «عليا» ثأراً لمقتل والده. وكان قبل ذلك لم يكن يعرف من قتل والده. وتتطور الأحداث بعد ذلك، لتصل إلى المبارزة بين «عصام» وأبي «عليا»، وتنتهي بمصرع أبيها. وفيما كان يخبر أمه بأنه أخذ ثأره، وشفى غليله، وإذا بعليا تقبل وتناشد حبيبها «عصام» أن ينتقم لأبيها، وما كانت تعلم أنه هو القاتل.

هنا تبدأ حلقة أخرى من الفاجعة، فيها يغمد «عصام» سيفه في أحشائه، حتى يثبت أنه الرجل الوفي لحبيبته المنتقم لها. وتنتهي القصيدة بقول «عليا» وهي تنتحر «لا تمت قبلي يا عصام». والقصيدة من نظم الشاعر اللبناني «قيصر المعلوف»، وهو شاعر مهجري (١٨٧٤-١٩٦٠). وهي تذكرنا بتراجيدية «روميو وجولييت» التي كتبها الشاعر الإنجليزي «وليم شكسبير» في عام ١٥٩٥م.

ربما كان من المناسب أن نذكر مطلع هذه القصيدة التي حفظناها آنذاك، وعدداً من أبياتها:

رُبى عربٌ قصورهم الخيامُ ... ومنزلهم حماةٌ والشآمُ
إذا ضاقت بهم أرجاء أرضٍ ... يطيب بغيرها لهم المقامُ

ثم تبدأ أبيات المأساة على النحو التالي:

ولما أصبحت عليا فتاةً ... يليق بها التحجب واللثام
وصار عصام ذا زند قوي ... يهز به المهند والحسام
دعته أمه يوماً إليها ... وقالت: يا حسامي يا عصامي
بثار أبيك خذ من قاتليه ... وإلا عابك العرب الكرام
فصاح: وهل أبي قد مات قتلاً ... وأنى يُقتل البطل الهمام؟
أبو عليا الغريم بني فانهض ... فهذا الدرع درعك والحسام
فحل عصام مهرته سريعاً ... وسار وسحب مدمعه سجام
وكان أبو حبيبته بعيداً ... على مهر أضر به الجمام
هناك تبارز الخصمان حتى ... على راسيهما عُقد القتام
عصام أرسل الطعنات تترى ... فقدت من مبارزه العظام
فعاد لأمه جذلاً طروباً ... فقالت: ما وراءك يا عصام؟
فجرد سيفه الدامي ضحوكاً ... وقال لها أبشري قُضي المرام
وبيناهما بضحك، إذ بعليا ... وقد أدمى مباسمها اللطام

فقالت: يا عصام أبي قتيلٌ ألا فاثأر لعليا يا همام!
فمن لي غير زندك في الرزايا إذا عم البلا وطما العرام؟
فقال لها: ابشري عليا فإني لأهل العهد في الدنيا إمام
لسوف ترين قاتله قتيلاً وأنصت ما أتم له كلام
وأغمد سيفه بحشاه حالاً وخرّ وللكلوم به كلام
فلما شاهدته في هواها قتيلاً يستقي دمه الرغام
نضت من صدره الهندي حالاً وقالت: لا تمت قبلي يا عصام!
وأغمدت الحسام بها وقالت على الدنيا ومن فيها السلام

ومن القصائد التي أذكرها والتي تعبر عن عفة العربي وشجاعته، قصيدة «ليلى بنت طريف الشيبانية». وكان أخوها من الخوارج، وقد قتله معن بن زائدة. قالت ليلى ترثي أخاها:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قناً وسيوف

إلى أن تقول:

عليك سلام الله وقفاً فإنني أرى الموت وقاعاً بكل شريف

ومن القصائد المؤثرة التي كنا نُطالب بحفظها قصيدة «أنة طفل ضرير» للشاعر «ولي الدين يكن». وهو من أصل تركي، ولد في الآستانة عام ١٨٧٣، وعاش ومات في مصر عام ١٩٢١م. ويَكنْ، تعني بالتركية إبن الأخت. وإليك القصيدة

يا أم ما شكل السما ء وما الضياء وما القمر؟
بجمالها تتحدثون ولا أرى منها أثرا
هل هذه الدنيا ظلام في ظلام مستمر؟
يا أم مُدّي لي يديكِ عسى يزايلني الضجر
أمشي أخاف تعثراً وسط النهار أو السحر
لا أهتدي في السير إن طال الطريق وإن قصُر
أمشي أحاذر أن يُصا دفني إذا أخطو خطر
والأرض عندي يستوي منها البسائط والحفر
عكازتي هي ناظري هل في جماد من نظرا
يجري الصغار ويلعبو ن ويرتعون ولا ضرر
وأنا ضرير قاعد في عقر داري مستقر
الله يلطف بي ويصر ف ما أقاسي من كدر

أما في اللغة الإنجليزية فقد كنا نحفظ أشعاراً من كتاب لا زلت أذكر أسمه: «ليرا هوريكا» (Lyre–Horica) وهي من النوع الغنائي.

ومن الكتب الإنجليزية التي كانت مقررة في المرحلة الإبتدائية كتب سلسلة القراءة والتي تسمى (Reader One, Reader Two, Reader Three, Reader Four).

كان الاستاذ كامل مصطفى اللحام يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية لتلاميذ الصفين السادس والسابع الإبتدائي.

ورغم جدية التعليم وصرامة نظامه، وشدة المعلمين آنذاك، إلا أن الحياة المدرسية كانت لا تخلو من بعض النوادر التي يتذكرها التلاميذ بعد تخرجهم من المدرسة ويتندرون بها فيما بينهم إذا جمعت بينهم ظروف الحياة. وهذه النوادر لها علاقة بتصرفات بعض المدرسين، أو تصف أعمال بعض أشقياء التلاميذ في غرف الدرس، ومع بعض المدرسين.

فعلى سبيل المثال ما زلت أذكر أسلوب احد مدرسي المدرسة في التدريس ونمط حياته.

كان هذا المدرس أزهرياً يعتكف في منزله ولا يزار ولكنه كان يُرى في عصر كل يوم يجلس على كرسي في شرفة غرفة مكتبه في الدور الثاني من منزله المطل على الشارع العام، ويضع نظارته على عينيه ويستغرق في القراءة. وكان هذا المدرس مفرط البدانة، يتمايل في مشيته يمنة ويسرة، وكان أرجله تنوء بما تحمل. وكان لا يكلف نفسه عناء الشرح، ولكنه كان بمجرد أن يدخل حجرة الدرس، يجلس على الكرسي، ويطلب من التلاميذ أن يخرجوا كتبهم ويذاكروا فيها. ولذلك كان الطلبة يشعرون بالملل والسأم فيلجأون إلى ازعاجه، بأن يُصدر الذين يجلسون في المقاعد الخلفية أصواتاً كأنها «طنين» أو «زنين». فما أن يسمع المدرس هذا الطنين حتى يرفع عينيه من كتاب يقرأ فيه، ويوبخ الطلبة قائلاً «مين الوبش اللي بيزن». فيسكت الطلبة خوفاً من القصاص، ولكن يقوم غيرهم في جهة أخرى من الصف بترديد «الزنين» مرة ثانية وثالثة وهكذا.

وكان من عادة هذا المدرس حينما يجلس، يجذب الكرسي إلى الأمام، ويفتح درج الطاولة، ولذلك وامعاناً في ازعاجه، كان بعض أشقياء الطلبة يضعون تحت أرجل الكرسي شريطاً نارياً يصدر أصواتاً كأصوات الانفجارات بمجرد أن يجلس عليه هذا المدرس ويحركه قليلاً. وكانوا يضعون في درج الطاولة فأراً صغيراً، يقفز في وجه المدرس حينما يقوم بفتح هذا الدرج. وفي بعض الأحيان كان التلاميذ في المقاعد الخلفية يصنعون السلطة أو الدقة ويأكلون. وما أن يسمع المدرس صوت المضغ حتى ينتفض ويشتم الطلبة قائلاً: «مين الوبش ابن الوبش اللي بيتلمض».

وذات يوم دخل الفصل مدير المدرسة، وكان وجهه شديد السُمرة، وطلب من أحد

التلاميذ أن يقول شيئاً مما حفظه من الشعر. فأنشد التلميذ بعض أبياتٍ من قصيدة للمتنبي يهجو فيها كافور الإخشيدي، إلى أن يقول:

لا تَشترِ العبد إلا والعصا معه　　　إن العبيد لأنجاس مناكيد

فغضبَ المدير، ونهر التلميذ قائلاً: «أقعد يا وقح» ثم انصرف. وما أن غادر المدير الفصل حتى علق هذا المدرس بقوله: «وليش الوبش أخذ المعنى على حاله؟».

ومن المعلمين الذين درّسوني آنذاك المرحوم الشيخ خالد سليمان الفرا الذي تعلمت على يديه الدين في الصف السابع الإبتدائي. أما الأستاذ «إسحق الشوا» فكان يعلم اللغة العربية للصفين السادس والسابع الإبتدائي، والنحو من كتاب اسمه «النحو الواضح» من تاليف علي الجارم بك ومصطفى أمين. وكان الأستاذ «إسحق الشوا» يحبب التلاميذ في قراءة المجلات الثقافية آنذاك، وبخاصة مجلة الرسالة للأديب المعروف «أحمد حسن الزيات»، ومجلة الثقافة التي كانت تصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بوزارة المعارف المصرية، ويشرف على تحريرها الأديب المعروف الدكتور «أحمد أمين». وكان الأستاذ «أشرف الشوا» يدرس مادة الحساب في الصف السابع الإبتدائي، في حين كان الأستاذ «توفيق أبو سمرة» يدرس هذه المادة في الصفين الرابع والخامس ابتدائي.

أما مدراء المدرسة «مدرسة ذكور خان يونس»، فقد حل محل الأستاذ حلمي أمان الأستاذ «أكرم العلمي» ثم خلفه الأستاذ «سامي سعيد أبو شعبان»، والذي عملت معه بعد تخرجي من الجامعة، واشتغلت مدرساً بمدرسة ثانوية خان يونس في الفترة ما بين ١٩٥٤/١٩٥٥ وحتى ١٩٥٥/١٩٥٦.

أما المدراء الذين جاءوا قبل الأستاذ «حلمي أمان»، فقد سمعت من إخوتي الكبار أسماءهم، وهم الأساتذة: «إبراهيم انشاصي»، و«علي السرطاوي»[1]، و«راضي عبدالهادي».

وكانت الدراسة خمسة أيام في الأسبوع فقط إذ تعطل المدرسة يومي السبت والأحد في المدن التي بها مسيحيون. أما في المدن الصغيرة مثل خان يونس والقرى، والتي تخلو من سكان مسيحيين، فكانت المدارس تعطل يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع.

بعد أن يتخرج التلميذ من الصف السابع إبتدائي يكون قد أنهى المرحلة الإبتدائية. وكان معظم الخريجين يخرجون إلى الحياة لمساعدة ذويهم في أعمالهم الزراعية أو التجارية أو الصناعية، وكثيراً منهم يلتحق بالوظائف الكتابية سواء في القطاع الخاص أو الحكومة أو في معسكرات الجيش البريطاني المنتشرة في فلسطين آنذاك.

كانت دائرة المعارف تختار أوائل الطلبة من خريجي المدارس الإبتدائية، وتلحقهم

بالكلية العربية بالقدس ليواصلوا تعليمهم حتى يحصلوا على شهادة المترك. والكلية العربية مدرسة ثانوية داخلية كان مديرها المربي الفاضل «أحمد سامح الخالدي». ولأنها كانت الكلية الحكومية الوحيدة بفلسطين، فقد كان جميع مدرسيها من حملة الشهادات الجامعية، وبخاصة من جامعتي أكسفورد وكيمبردج، ويتمتع مديرها بمكانة مرموقة، فهو يحتل مرتبة رفيعة في دائرة معارف حكومة فلسطين آنذاك. ونظراً لازدياد عدد الطلبة، أفتتحت في القدس مدرسة ثانوية أخرى أسمها الرشيدية.

كان نظام التدريس في فلسطين يعتمد على الإرهاب والتخويف. ابتداء من المعلم والمدير والمفتش. وكان التلاميذ يتوارون عن الأنظار أو يسرعون إلى بيوتهم أو يختفون في الأزقة والحواري إذا صادفوا أحد المعلمين يسير في الشارع العام بعد الدراسة. فنظرة التلميذ الى استاذه وكأنه إنسان غير عادي، وحياته تختلف تمام الاختلاف عن حياة الناس العاديين، وأن كل ما يقوله صواب، وأنه معصوم عن الخطأ، منزه عن الزلل، وملم بكل أنواع العلوم والمعارف، وأنه قادر على إجابة أي سؤال أو استفسار يوجه إليه.

وعلاوة على ذلك كان يحظى المعلم باحترام وتبجيل من جميع السكان في كل مكان، وبخاصة في القرى والمدن الصغيرة، فالمعلم في نظرهم تجسيد للعلم ورمز له، ولذلك كانوا يحرصون على دعوته في كل مناسبة من المناسبات، ويُجلسونه في صدر المكان، ويلقونه دائماً بكل ترحاب واحترام.

في القرى ينظر الناس إلى المعلم نظرة إكبار وإجلال، يتسابق الجميع في خدمته ومساعدته، وتكليف أبنائهم بقضاء حاجاته ولوازم داره وأفراد أسرته. وكثيراً ما كانوا لا يتقاضون أجرة المسكن الذي يستاجره، ولا تقام وليمة إلا ويدعى إليها. وفي شهر رمضان يحرص سكان القرية بل ويصرون على دعوته لتشريفهم بتناول الطعام على موائد إفطارهم العامرة بالطعام الشهي، وما أكثر المناسبات التي يرسلون إليه الطعام.

وفي مواسم جني المحاصيل لا ينسون نصيب المعلم منها. ولذلك تراهم يطرقون باب داره وقد حملوا له سلالاً ملآنة بأجود أنواع الفواكه في أول مواعيد قطفها. كما يبعثون له بالخضروات الطازجة. وكلما ذبح أحد القرويين ذبيحة خص المعلم بجزء منها، وكانوا يرسلون له مختلف أنواع الدواجن والطيور كالدجاج والحمام، والديك الرومي.

وإذا نشب خلاف في القرية حكموا المعلم واستشاروه في حله وفضه. والمعلم علاوة على كونه مؤدب أولادهم، فهو واعظهم ومرشدهم في كثير من أمور دينهم ودنياهم. وإذا جاء كبير أو زعيم أو حاكم إلى القرية كلفوا المعلم بالتكلم نيابة عنهم، والترحيب به بدلاً منهم.

ولذلك كان كثير من المعلمين يحبون العمل في مدارس القرى ويفضلونها على مدارس المدن. ففي القرية لا يتحمل المعلم من تكاليف الحياة وأعباء المعيشة ما يتحمله المعلم في المدينة. والمعلم في المدينة لا يلقى نفس الاحترام والتقدير والتبجيل الذي يلقاه زميله في القرية.

انهيت المرحلة الإبتدائية بخان يونس في عام ١٩٤٦ بنجاح. وفي شهر آب / اغسطس من نفس العام أعلن مدير المدرسة الإبتدائية آنذاك، الاستاذ سامي سعيد أبو شعبان، أسماء التلاميذ الذين وقع الاختيار عليهم لإكمال دراستهم الثانوية. وقد كان سروري عظيماً حينما وجدت إسمي بين الأسماء التي علقت على هيئة إعلان في أماكن بارزة من المدينة. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحلم بدخول المدرسة الثانوية، وقد اعتبرت نفسي محظوظاً، وكأنني مولود في ليلة القدر، ذلك أن التعليم الثانوي كان عزيزاً جداً، وليس بمقدور كل تلميذ آنذاك أن يحظى به.

كانت معظم مدن فلسطين في حاجة ماسة إلى مدارس ثانوية، وبعضها كانت بها صفوف ثانوية غير مكتملة. فمدينة غزة على الرغم من عراقتها وأهميتها من حيث أنها عاصمة اللواء الجنوبي، والذي تزيد مساحته عن ثلث مساحة فلسطين بكاملها، ورغم ما لها من وزن محلي، وما تحظى به من سمعة عالمية منذ العصور القديمة، إلا أنه لم يكن بها آنذاك غير صفين ثانويين فقط. وقد قررت الحكومة في أواخر سني الإنتداب إضافة صفين آخرين هما: الثالث والرابع حتى تكتمل المرحلة الثانوية. وكان من يتخرج من الصف الثاني ثانوي آنذاك يلتحق بالأعمال المختلفة، سواء في القطاع الخاص أو القطاع العام، أو يعمل مدرساً إضافياً في المدارس الإبتدائية بالقرى.

وبسبب قلة المدارس وندرتها بفلسطين، فقد قام نفر من المربين بإنشاء مدارس خاصة في مدن مختلفة في أنحاء البلاد، مثل مدرسة النجاح الثانوية بنابلس، ومدرسة بير زيت الثانوية، وكلية غزة الثانوية، والمدرسة الإبراهيمية، وروضة المعارف بالقدس.

قامت بعض الإرساليات والجمعيات التبشيرية المسيحية الغربية بإنشاء مدارس في فلسطين، منها على سبيل المثال مدرسة «سان جورج»، أو مدرسة المطران، كما كان الناس يسمونها، وتتبع الكنيسة الأنجليكانية. ومدرسة تراسنتا (Terra Santa) أي «الأراضي المقدسة»، وتتبع الكنيسة الكاثوليكية الإيطالية، ومدرسة الفرير وتشرف عليها الكنيسة الفرنسية، «الجيزويت»، ومدرسة شميت للبنات، وتخضع لإشراف الكنيسة الألمانية، ومدرسة صهيون وتتبع النظام البريطاني. وتتركز هذه المدارس في مدينة القدس ولها فروع في المدن الكبرى مثل يافا وحيفا.

أما التعليم المهني فقد كان في حكم النادر. وكانت مدرسة خضوري الزراعية والتي أُنشئت في عام ١٩٣١ في مدينة طولكرم، أول مدرسة مهنية عربية بفلسطين. وفي عام ١٩٣٤ أُنشئت مدرسة حيفا الصناعية. وبعد ذلك بعامين أُنشئت في حيفا أيضاً مدرسة تجارية، وأُنشئت بعد ذلك مدرسة العامرية بمدينة يافا، حيث خصصت فيها صفوف تجارية، لحاجة البلاد إلى موظفين يلمون بالعلوم التجارية والمحاسبية، وبخاصة مسك الدفاتر. وكانت مدينتا يافا وحيفا قطبي الحركة التجارية في البلاد، بحكم أنهما ميناءان، أحدهما في وسط البلاد والثاني في الشمال.

في كثير من المدن والقرى كان أولياء الأمور لا يجدون أماكن لأبنائهم في المدارس مما أدى إلى حرمانهم من التعليم، وساهم في ارتفاع نسبة الأمية في البلاد. ونتيجة ضغوط شعبية وافقت حكومة الانتداب على فتح فصول جديدة في المدارس الإبتدائية، شريطة أن يتحمل الأهالي – عبر مجالسهم البلدية والقروية – نفقات إقامة واستئجار مبان تستوعب هذه الفصول، وكذلك تتكفل بدفع رواتب المعلمين الذين يقومون بالتدريس فيها. وفي كثير من الأحيان يقوم الأهالي بجمع التبرعات ويتحملون إنشاء مدرسة بالكامل وتجهيزها بالمختبرات وبعض اللوازم الضرورية. وهذا ما حدث في مدينة خان يونس حيث أخذت البلدية زمام المبادرة، وفرضت رسوماً إضافية خصصتها لصندوق التعليم، وأنشأت لجنة اسمها «لجنة المعارف المحلية»، والتي استطاعت بفضل ما توفر من أموال في هذا الصندوق من إنشاء مدرسة ابتدائية – ثانوية من الحجر الجيري الأبيض الجميل. وما تزال المدرسة قائمة إلى اليوم واسمها «مدرسة القسام الثانوية». ومن قبيل الوفاء والحق والواجب الإشارة إلى أن الفضل في كل هذا العمل ينسب إلى رئيس البلدية آنذاك، المرحوم عبدالرحمن الفرا، فقد كان يسعى بكل طاقته من أجل خدمة بلده ووطنه بكل الطرق والوسائل، ويعتبر التعليم أساس الحياة، وإنني لا أقول ذلك بحكم القرابة، وإنما أملاه عليَّ الواجب.

لقد كان اليوم الذي التحقت فيه بمدرسة الإمام الشافعي الثانوية مشهوداً بالنسبة لي، حيث ذهبت مع زملائي التلاميذ الذين وردت أسماؤهم في إعلان مدير المدرسة الإبتدائية بخان يونس سابق الذكر.

كانت مدرسة الإمام الشافعي الثانوية تحتل مباني خشبية في غاية التواضع، ويبدو أنها كانت في السابق تستخدم كثكنة عسكرية، بدليل أن الناس في غزة كانوا يطلقون عليها آنذاك «بركسات». وهي تحريف لكلمة (Barrack) الإنجليزية والتي تعني ثكنة. وكان موقع المدرسة في حي الصبرة، وفي منخفض من الأرض وغربي «تل السكن»،

والذي أسموه فيما بعد تل الزهور، حيث كان مستشفى غزة البلدي يحتل قمته، وإلى الجنوب منه مباشرة مقبرة عامة. وفي عهد الإدارة المصرية انتقل المستشفى واحتلت مبناه مكاتب بلدية غزة.

لم يكن بالمدرسة ما يشرح الصدر، فالمباني كئيبة سوداء، والأرض رملية غير مبلطة، ليس فيها نبات أو أزهار تؤنس وحشة الأرض العارية الجرداء، وليس في المدرسة مرافق مناسبة. لقد صدق المربي الفاضل الأستاذ حلمي أبو رمضان، مدرس العلوم بالمدرسة آنذاك حين قال معلقاً على المدرسة بقوله: «إنها وصمة عار بأن يقبل أهل مدينة غزة بمدرسة ليس فيها مقومات المدرسة».

وفي العام الذي دخلت فيه مدرسة الإمام الشافعي، استأجر مدير المدرسة مبنى مقابلاً مؤلفاً من طابقين، وذلك لاستخدامه سكناً للطلاب القادمين من مدن وقرى لواء غزة. وكان يشرف على هذا السكن، أو ما يسمى بالقسم الداخلي من المدرسة كل من الأساتذة حنفي فرحات[٢]، وجرار القدوة[٣]، ومحمد فايز الخطيب[٤].

درست في مدرسة الإمام الشافعي مبادىء الفقه والشريعة الإسلامية على يد الشيخ الجليل محمود سرداح، وكان شيخاً معمماً من خريجي الأزهر الشريف، تميز بغزارة العلم، وتحلى بخلق رفيع.

أما اللغة العربية فقد درست في الأول الثانوي كتاب «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» وهو من كتب التراث ألفه محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا. ودرست الأدب والشعر من كتاب «الوسيط في الأدب العربي»، والنحو من كتاب النحو الواضح. وهو عبارة عن سلسلة من عدة كتب بحسب السنوات الدراسية وقد سبقت الإشارة إليه. وكان الأستاذ رامز فاخرة يدرس اللغة العربية، وهو أديب وشاعر متمكن في مادته، واثق بنفسه، معتد بشخصيته ويتمتع باحترام زملائه وطلابه.

ومن كتب اللغة العربية التي درستها آنذاك كتاب «العروض السهل» من تأليف الدكتور إسحق موسى الحسيني والأستاذ محمود الغول. ويتناول هذا الكتاب بحور الشعر العربي بالشرح والتحليل.

وفي اللغة الإنجليزية درست كتاب (Britian and her Neighbours)، ويتناول تاريخ بريطانيا في أواخر العصور الوسطى، وحياة الملوك واستبدادهم. ومن الكتب المقررة أيضاً: رواية «يوليوس قيصر» (Julius Caesar)، وقصص مثل : قصة «سجين زندا» (Prisoner of Zinda)، وقصة «جزيرة الكنز» (Treasure Island)، وقصة مدينتين» (Tale of Two Cities). وكان الأستاذ اكرم برزوق يعلم اللغة الانجليزية في الصف

الأول ثانوي، في حين كان الاستاذ إبراهيم سكيك يدرس اللغة الإنجليزية في الصف الثاني ثانوي ودروساً في التاريخ والجغرافية.

أما قواعد اللغة الإنجليزية فكانت تدرس من كتاب English Grammar and Idiom وكتاب Higher English Grammar. ويدرس هذين الكتابين الأستاذ ممدوح الخالدي مدير المدرسة، وكان شديداً وصارماً، استطاع أن يفرض هيبته واحترامه على الطلاب والمعلمين ومدينة غزة بأسرها.

وفي التاريخ كان مجلد «تاريخ العصور القديمة» تأليف «جيمس هنري برستد» أستاذ التاريخ القديم بجامعة لندن مقرراً. وقد ترجمه أساتذة من الجامعة الأمريكية. ويقوم على تدريس مادة التاريخ الأستاذ أحمد جبرين الذي استقال والتحق بكلية الطب بجامعة القاهرة وتخرج بعد ذلك طبيباً.

وفي الجغرافية كان الطلبة يدرسون كتاب «جغرافية فلسطين والبلاد العربية وسائر بلدان الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط» من تاليف الأستاذين وصفي عنبتاوي وسعيد الصباغ، وكان يدرس هذه المادة الاستاذ إبراهيم خليل سكيك.

أما مادة الحساب والجبر فكان يدرسها الأستاذ زكي الجلاد، في حين كان يدرس علم الطبيعة «الفيزياء» والكيمياء الأستاذ حلمي أبو رمضان من كتب ألفها مفتش العلوم الأستاذ «سليم كاتول». أما علوم الأحياء فكان يدرسها الأستاذ محمد ياسين حجازي، والذي سبق أن درست على يديه مادة الزراعة في مدرسة خان يونس الإبتدائية. وعلى العموم ففي المرحلة الثانوية درست كتباً في التراث مثل مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان الهمذاني، وكتاب نور اليقين، والمعلقات السبع، وكليلة ودمنة، وكتاب الحيوان، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيرها. وفي الأدب الإنجليزية درست روايات شكسبير. وبعض مشاهير الشعراء والأدباء الانجليز. وفي التاريخ والجغرافية درست تاريخ العالم وبخاصة التاريخ الأوروبي، والتاريخ العربي والتاريخ اليوناني والروماني، وجغرافية العالم وقاراته.

وعلى العموم كانت برامج التعليم مكثفة جداً. ومطولة بحيث تستنزف كل وقت التلميذ تقريباً فلا تترك له فراغاً يرفه فيه عن نفسه، أو ينمي هواية من هواياته. وكانت الواجبات المنزلية ترهقه وتلاحقه، والويل كل الويل لمن لا يؤدي تلك الواجبات فالعقاب البدني على مرأى الطلاب كان المتبع آنذاك.

وقد أشرف على وضع برامج التعليم صهاينة، ولذلك كانت تخلو من الحس الوطني، وروح الإنتماء القومي، بل وفي كثير من الأحيان تتعارض مع الأهداف العربية والإسلامية،



– طلبة القسم الداخلي بمدرسة الإمام الشافعي في غزة، ويبدو في الوسط مدير المدرسة الأستاذ ممدوح الخالدي، وعلى يمينه الأستاذ جرار القدوة، وعلى يساره الأستاذ حنفي فرحات. وفي أقصى يسار الصورة في الصف الأول تبدو صورتي المشار إليها بعلامة *.

ففي العلوم الاجتماعية، وبخاصة التاريخ والجغرافية كانت المقررات الدراسية تركز وبشكل مسهب وملفت للنظر على دراسة التاريخ البريطاني والشعوب والأمم الأوروبية الغربية، وجغرافية الجزر البريطانية، والأقطار الأوروبية والعالم، في حين كان نصيب تاريخ الوطن العربي وجغرافيته قليلاً جداً.

وفي حين تسهب المقررات – دون داع – في التركيز على دراسة التاريخ القديم لمصر والشرق الأدنى، كانت تتناول تاريخ العرب والإسلام على عجل، وكأنها تريد أن تحرم التلاميذ من التعرف على كثير من الصفحات المنيرة في تاريخهم المجيد، وما حققه أجدادهم من رفعة وسؤدد، وما ساهموا به في بناء صرح العلم والحضارة.

ونفس الشيء يقال عن الجغرافية. فقد كانت المقررات لا تدرس اقطار الوطن العربي بما فيه الكفاية، وإنما تكتفي بذكر ملامحها العامة، وكأنها جمعت بينها عوامل الجوار أكثر مما تجمع بينها عوامل الانتماء القومي.

لقد أهملت برامج التعليم آنذاك مسألة تنمية قدرات التلميذ وطاقاته العقلية والبدنية. فالموسيقى لا وجود لها في المدارس الحكومية، ولا ذكر لها في المنهاج، وكذلك قل عن

الفنون الجميلة كالنحت والرسم، والآداب كالخطابة والتمثيل. والرسم كان يُعطى بمعدل حصة أو حصتين في كل الاسبوع. وكانت حصص الرسم تُعطى في أغلب الأحيان للمدرسين الذين لا بد من إكمال جداولهم، ولذلك كانوا يعتبرونها دروساً تافهة طالما ان الذي يدرسها لا يعرف هذا الفن ولا يتقنه ولا حتى يتقبله، وإنما يتخذ من هذه الحصة وقتاً يرتاح فيه، ويترك التلاميذ يرسمون ما يشاءون وحسب ما يخطر على بالهم أو يصوره لهم خيالهم.

أمّا التربية البدنية فكان يقوم بتدريسها معلمون هواة لم يتلقوا في حياتهم درساً واحداً في أصول التربية البدنية، كان مدرس التربية البدنية يخرج التلاميذ إلى ساحة المدرسة ليعلمهم حركات بسيطة مثل : استرح، استعد، ثني الساق، القفز وهكذا. وكانت المدرسة تخلو من صالات اللعب مثل صالة كرة السلة، أو صالة الجمنازيوم، وكذلك تخلو من لوازم الألعاب الرياضية. ولذلك نشأ معظم أبناء جيلنا لا يعرف من الرياضة إلا اسمها، وأن عرف منها شيئاً فإنما من الحياة التي كانت مدرسته الكبرى، التي تعلم فيها كل شيء، وبخاصة الإعتماد على النفس، وتحمل المشاق، والصبر على المكاره، والتصميم والعزم على مواصلة مسيرة الحياة، وشق الطريق مهما كان الثمن.

١– كان ابنه الاكبر الدكتور عصام من رموز المقاومة الفلسطينية، اسس في العراق بعد نكسة يونيو حزيران ١٩٦٧، «الهيئة العاملة لتحرير فلسطين»، كفصيل فدائي، وما لبث ان توحد مع حركة فتح وعمل مستشاراً لزعيمها ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، وكان يمهد لحوار فلسطيني يهودي. وقد اغتيل في لشبونة في العاشر من ابريل عام ١٩٨٣ على يد احد عناصر حركة فتح – المجلس الثوري – بزعامة صبري البنا «ابو نضال» بسبب اجتماعه مع عناصر يهودية من إسرائيل بتكليف من ياسر عرفات.

٢– غادر الاستاذ حنفي فرحات فلسطين في عام ١٩٤٧ مبعوثاً إلى بريطانيا لاكمال تعليمه العالي، وقد استقر بها حيث اصبح فيما بعد احد علماء الذرة (كما قيل).

٣– الاستاذ جرار القدوة من خان يونس وابن عم السيد / ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية – فيما بعد – حصل على ليسانس الآداب – لغة عربية من جامعة فؤاد الاول بالقاهرة، وبعد النكبة رحل إلى السعودية واستقر بها واصبح اسمه محمد القدوة، وعاد إلى غزة بعد اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣.

٤– الاستاذ محمد فايز الخطيب من المجدل، شغل عدة مناصب في وكالة الغوث الدولية بعد النكبة، ثم استقر في عمان وأصبح من رجال الاعمال.

مدينة غزة في النصف الأول من القرن الماضي

غزة مدينة عريقة، ومن أشهر المدن وأقدمها في العالم، لها شهرة تاريخية قلما تحظى بها مدن أخرى قديمة، شهدت عصوراً وعهوداً متقلبة من نمو وذبول، وانتعاش وانكماش، وازدهار واضمحلال، وتقدم وتراجع.

تاريخها مجيد، فقد صمدت لنوائب الزمان، ونكبات الحدثان، استقبلت الفاتحين، ونازلت الغزاة المحتلين، منذ الفرس بقيادة «قمبيز» حينما غزوا مصر، ومن بعدهم اليونان بقيادة الإسكندر الأكبر، ثم الرومان بقيادة «إسكندر يانيوس»، ثم دخلها العرب المسلمون بقيادة «عمرو بن العاص». وأخيراً غزاها البريطانيون بقيادة الجنرال «إللنبي»، الذين مهدوا لقيام اسرائيل التي احتلتها بعد حرب حزيران / يوليو ١٩٦٧.

تضاربت الآراء حول معنى كلمة غزة، فهناك من يقول انها مشتقة من القوة والمنعة، ويرى آخرون بأنها تعني الثروة معتمدين في ذلك على أن «غازا» تعني الكنز الملكي. وتسمى أحياناً «غزة هاشم»، لأن جد الرسول صلى الله عليه وسلم «هاشم بن عبد مناف» مرض بينما كان عائداً من رحلة تجارية بين مكة المكرمة ودمشق الشام (رحلة الشتاء والصيف). ولما اقتربت القافلة من غزة تُوفي فدفن فيها، ولا زال قبره ومقامه يعد من أهم معالم غزة التاريخية.

تحظى غزة بالكثير من المزايا الجغرافية الموضعية، يحتضنها البحر ويضمها السهل، والصحراء من حولها تلفها وتكتنفها. وهي تتمتع أيضاً بموقع استراتيجي وأهمية حربية، لوقوعها على طريق حيوي وحساس، فهي همزة وصل يصل مصر بالشام، وشمال إفريقية بغرب آسيا، والحجاز بفلسطين والشام.

تنتعش غزة وتزدهر وتنمو وتتسع إذا كانت هذه الطريق سالكه تؤدي دورها، وإذا ما تعطلت وانقطعت كما هي حاله حالياً، فإن غزة مقطوعة ومحصورة، فالحدود السياسية تصبح بمثابة السدود، فتتحول غزة إلى سجن كبير، وتمر في مرحلة من التراجع والذبول، وتتعرض للكثير من المشاكل والأزمات.

حينما جئت إلى غزة طالباً لألتحق بمدرسة الإمام الشافعي عام ١٩٤٦م، كانت مدينة منتعشة، فعادت إليها الحياة بعد أن دُمرت في الحرب العالمية الأولى، حيث دارت على أرضها معركة رهيبة استبسل فيها الأتراك وألحقوا بالقوات البريطانية خسائر فادحة في الأرواح، قدرت بنحو ستة آلاف قتيل.

إلى الشرق من مدرسة الإمام الشافعي يقع «تل السكن» الذي سُمي فيما بعد «تل الزهور». وقيل أنه كان من مخلفات صناعة الفخار التي اشتهرت بها غزة من قديم الزمان. وعلى هذا التل كان يوجد المستشفى الأهلي. وفي الخمسينيات من القرن الماضي احتلت بلدية غزة مبنى المستشفى، بعد أن كانت مكاتبها في منتصف شارع «عمر المختار».

بين «تل السكن» ومدرسة الإمام الشافعي أرض فضاء استخدمت فيما بعد فاقيمت عليها «سوق فراس» التي اشتهرت في عهد الإدارة المصرية، وإلى الغرب من هذه السوق كان ملعب المدرسة الذي تقام عليه مباريات كرة القدم في المدينة، وكذلك المهرجان الرياضي السنوي للفرق الرياضية لجميع مدارس اللواء.

إلى الشرق من المستشفى الأهلي، و بعد المقبرة، تقع مباني المستشفى الإنجليزي، والذي سمي فيما بعد «المستشفى المعمداني». ويقابل المستتشفى من الشمال ساحة لوقوف السيارات، وهي أشبه بميدان، ويعد مركز المدينة ووسطها، وإلى الشرق منها مباشرة «كراج» وموقف «شركة باصات غزة والقرى الجنوبية المحدودة»، ويفصل الساحة عن المستشفى المعمداني شارع «عمر المختار».

يعد شارع «عمر المختار» أهم شوارع غزة وأهمها، وقد سُمي باسم قائد المجاهدين الليبيين «عمر المختار» الذي اعدمه الإيطاليون في ١٦ أيلول / سبتمبر ١٩٣١م، رغم أنه كان شيخاً عمره اربع وسبعون عاماً.

في الجهة الجنوبية الشرقية من المدرسة، وفي الأرض المنخفضة أسفل تل الزهور كانت تقع مزرعة يتعلم فيها التلاميذ الزراعة ويمارسونها باشراف مدرس الزراعة، كما توجد مباني فيها «ورشة» للنجارة يتدرب فيها التلاميذ بإشراف مدرس النجارة.

إلى الغرب من المدرسة مباشرة يقع حي «الصبرة» والذي كان يمتد حتى حديقة البلدية حيث يبدأ حي «الرمال». ولكن البعض يحدد حي الرمال ابتداء بسرايا الحكومة الذي بُني في أواخر الثلاثينيات عقب ثورة ١٩٣٦ إبان حكم الانتداب البريطاني، على هيئة قلعة حصينة من الخرسانة المسلحة تضم الدوائر الحكومية بما فيها الشرطة والأمن.

إلى الشمال من المدرسة تقريباً وعلى يمين الشارع الرئيسي الممتد إلى سرايا الحكومة وحي الرمال – وهو امتداد لشارع عمر المختار – توجد سينما السامر، وكانت السينما الوحيدة في غزة ولوائها، فالناس كانوا محافظين شديدي التمسك بالعادات والتقاليد ومتدينين ومعظمهم لا يحبذ ارتياد السينما لأنها في اعتقادهم تنشر الرذيلة والفساد.

في الجهة المقابلة لسينما السامر كانت توجد مكتبة «خميس وكمال أبو شعبان»،

والتي انتقلت فيما بعد إلى أول شارع عمر المختار من جهة الشرق – في حي الزيتون – أي بالقرب من نادي الضباط الإنجليزي «النافي» Navy, Army and Airforce Institute N.A.A.F.I. وقد احتل مبناه في عهد الإدارة المصرية مستشفى الهلال. وكان أول رئيس له الدكتور «موسى التلاوي»، وهو من الذين هاجروا من يافا إلى غزة على أثر نكبة عام ١٩٤٨.

كانت هناك مكتبة أخرى لصاحبها «حكمت برزق» تبعد عن مكتبة «خميس وكمال أبو شعبان» بنحو مائة متر باتجاه الغرب. وعلى بعد نحو خمسين متراً منها «بنك باركليز» البريطاني الذي حل محله في العهد المصري «بنك الإسكندرية». وغير بعيد من البنك محل «سبني» (Spinneys) الانجليزي. وباتجاه الشمال وفي شارع عمر المختار نفسه يوجد فرع البنك العربي وفرع بنك «الأمة العربية» الذي أسسه «أحمد حلمي عبدالباقي»، أحد رجالات فلسطين وزعمائها، والذي أصبح أول رئيس لحكومة عموم فلسطين، التي أسسها زعيم فلسطين الحاج أمين الحسيني في غزة عقب نكبة عام ١٩٤٨ مباشرة، وكان مقرها في القاهرة.

كانت مدينة غزة في الأربعينيات من القرن الماضي أصغر مساحة وأقل سكاناً مما هي عليه اليوم، فبموجب إحصاء عام ١٩٤٤ بلغ عدد سكانها ثلاثين ألف نسمة، فهي من حيث الحجم السكاني كانت تعد خامس مدن فلسطين، أي بعد القدس، وتل أبيب، وحيفا، ويافا.

يُعد حي الشجاعية أكبر أحياء غزة، فهو يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها لولا خلوه من الدوائر الحكومية. ويقع في أرض منبسطة وفي شرق غزة التي كان يفصله عنها خط سكة الحديد التي تربطها بالقاهرة جنوباً وباللد وحيفا شمالاً. ومن أحياء غزة الأخرى حي «الزيتون»، وحي «الدرج»، وحي «التفاح» الذي كانوا ينطقونه «التفين»، وحي «التركمان»، وحي «الفواخرية»، وحي «الصبرة». وأحدث الأحياء كان حي «الرمال» والذي كان يبدأ من «سراي الحكومة» حتى البحر. وكانت هذه المنطقة رمالاً وكثباناً رملية قامت البلدية ببيعها على شكل قطع، مساحة كل قطعة دونماً واحداً، وشجعت السكان على البناء، واشترطت أن يكون بيوتاً مستقلة «نظام الفلل» (Villa System). وفي العام الذي التحقت فيه بمدرسة الإمام الشافعي، كانت حركة البناء في حي «الرمال» نشطة، ولكن معظمه كان رمالاً أو تلالاً رملية، تنتشر عليها بعض أشجار التين والجميز والخروب، وفي الجهة الجنوبية قامت دائرة «الأحراش» بزراعة أشجار حرجية مثل السنط والأثل والسرو والكينياء، مما أكسب البيئة منظراً جميلاً. وكثيراً ما كان الناس يقصدون

المكان للنزهة والاستجمام.

كان ساحل بحر غزة خالياً من مظاهر العمران فبالقرب منه تنتشر قوارب الصيد لنفر من صيادي الأسماك، حيث كان بحر غزة انذاك غنياً بالسمك، بأصنافه المعروفة وبخاصة «البوري» و«اللوكس»، و«السردين» في الشتاء والربيع. وكان يوجد على شاطىء غزة جسر على هيئة لسان مبني من الخرسانة المسلحة يدخل في البحر بنحو خمسين متراً، بحيث يمكن الوصول إلى المراكب التي لا تستطيع الرسو على الشاطىء الرملي.

ربما كان «خان الزيت» من معالم غزة البارزة، وكان يقع في وسط المدينة وعلى شارع عمر المختار مقابل المسجد الرئيسي الكبير، المسمى «المسجد العمري». وكان هذا الخان يحتوي على ساحة أو «حوش» يربط فيه المسافرون دوابهم التي تحمل بضائعهم وأمتعتهم. وفي الجهة الغربية من الخان كان يوجد مبنى من طابقين، وقد احتوى الطابق العلوي على غرف يبيت فيها من يقصد الخان من التجار. وكنت أشاهد فيه كثيراً من الأفغان الذين كان بعضهم يصطحب معه دولاباً يستخدم في عملية شحذ «سن» السكاكين والأمواس.

في خمسينيات القرن الماضي هُدم هذا الخان، الذي قيل بأن أصحابه من عائلة «أبي رحمة» وأقيمت مكانه عمارات تجارية.

في الجهة المقابلة لخان الزيت، وعلى شبه اتصال بالمسجد العمري كان – واعتقد انه لا يزال – سوق صغير يسمى «القيصرية» مبني على هيئة قباب من الجص، وسمي بهذا الاسم لأنه على الطراز الروماني إبان عصر القياصرة. وكانت معظم محلات بيع الذهب «الصاغة» في هذا السوق والذي ينتهي عند بوابة الجامع العمري.

يعد مقام السيد هاشم وقبره من أهم معالم غزة التاريخية، وقد أشرنا اليه سابقاً، وإلى جانب المقام بنيت غرف كان يقيم فيها فقراء الطلبة وأبناء السبيل. وفي كل عام، وفي موسم المنطار يبدأ رجال الطرق الصوفية «الدراويش» مسيرتهم من هذا المقام مخترقين شوارع غزة حاملين أعلامهم وراياتهم ويقرعون طبولهم ويضربون على الكاسات النحاسية ويتجهون إلى تلة المنطار الواقعة إلى شرق غزة بعد حي الشجاعية.

إن معالم غزة التاريخية كثيرة ولا يتسع المقام لذكرها هنا، ومن أراد التوسع والاستزادة فالمراجع عنها وفيرة، ولكن كان هدفي الإشارة إلى بعضها مما وعته ذاكرتي حينما التحقت بمدرسة الإمام الشافعي، وحتى أضع القارىء في البيئة التي عشتها آنذاك، وكي أعطي صورة مبسطة للمكان الذي حللت فيه آنذاك. أمّا تاريخ غزة فيحتاج إلى مجلد، وربما مجلدات، حتى يمكن أن يوفى حقه من البحث والدراسة.

قرار التقسيم عام ١٩٤٧

في عام ١٩٤٦ أخذت أوضاع فلسطين بالتدهور والأجواءالسياسية بالتوتر، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في أيار/ مايو ١٩٤٥، وعودة الفيلق اليهودي الذي اشترك في هذه الحرب مع الحلفاء – وبكامل أسلحته – اشتد ساعد اليهود، وصاروا يهاجرون إلى فلسطين من أوروبا وغيرها بأعداد كبيرة، وبخاصة الشباب المدربين على استعمال الأسلحة، وقاموا بأعمال إرهابية كان من أهمها نسف جناح الحكومة في فندق الملك داود بالقدس، في الثاني والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٩٤٦. وقام بهذا العمل الإرهابي، عصابتا «شتيرن» و«زفاي ليئومي». وقد تم تدمير المبنى وقتل ثلاثة وثمانون شخصاً، منهم ثلاثون عربياً كانوا يعملون في الحكومة، والباقي من البريطانيين.

في عام ١٩٤٧ إزدادت الأوضاع سوءاً، وكان لا بد من أن يقوم عرب فلسطين بالرد على تحرش اليهود بهم والاعتداء عليهم، فقاموا بهجمات ناجحة على المستعمرات اليهودية المنتشرة في أنحاء البلاد، وعلى الأحياء اليهودية في المدن كالقدس وحيفا. ففي الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ نسف المجاهدون الفلسطينيون أنابيب المياه بين رأس العين والقدس قرب مدينة اللد، فانقطعت المياه عن الأحياء اليهودية بالقدس. وتتابعت الأحداث وتوالت الهجمات المتبادلة بين العرب واليهود، وزادت الإضطرابات في البلاد، واختل الأمن، وافتقد الناس الأمان والاستقرار.

في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧ صدر عن هيئة الأمم المتحدة القرار رقم ١٨١، تقسيم فلسطين، وفي صبيحة اليوم التالي ظهرت صحف فلسطين مجللة بالسواد، وكان «المانشيت» الرئيسي لجريدة فلسطين – فيما أذكر – يقول بأن «فلسطين بيعت في سوق النخاسة الدولي». وقد دعت الهيئة العربية العليا لفلسطين إلى الاضراب العام عن العمل لثلاثة أيام، تعبيراً عن رفض عرب فلسطين لتقسيم وطنهم، وعمت المظاهرات مدن فلسطين وقراها.

كان من الطبيعي أن يرفض عرب فلسطين قرار التقسيم آنذاك لأنه أعطاهم نحو ٤٣٠٠ ميلاً مربعاً من أراضي فلسطين الجبلية والوعرة والقاحلة، أي حوالي ٤٣٪ من مساحة وطنهم، رغم أنهم كانوا يشكلون نحو ٦٩٪ من سكان فلسطين. وكان معظم مدن فلسطين وجميع قراها لا تزال بأيديهم، بينما كانت ملكية اليهود لا تزيد عن ٦٪ من أراضي فلسطين، ومع ذلك أعطى قرار التقسيم اليهود نحو ٥٧٠٠ ميلاً مربعاً، أي حوالي

٥٧٪ من مساحة فلسطين، البالغة حوالي ١٠,٠٠٠ ميلاً مربعاً[١]، ولم تكن ملكيتهم في الحصة التي منحها لهم قرار التقسيم تزيد عن ٩,٤٪ فقط (أي ١,٤٠١,١٤٥ دونما فقط من ١٤,٩٤٢,١١٤ دونما). أما المنطقة الدولية التي ستقع تحت الإشراف الدولي فبلغت مساحتها ٦٨ ميلاً مربعاً، أي ٠,٦٥٪ من مساحة فلسطين كلها.

لم يكن من المنطقي أن يقبل الفلسطينيون التنازل عن وطنهم بمحض إرادتهم، والرحيل عن أراضيهم وممتلكاتهم في الوقت الذي كانوا يملكون معظم فلسطين من النهر إلى البحر: وكانوا لا يزالون واثقين بأنفسهم، وبقدرتهم على مقاومة اليهود الصهاينة، ونصرة إخوانهم العرب لهم في جميع البلاد العربية. وكانوا على ثقة – وهم على حق – بأن قدرات العرب وطاقاتهم، لو استغلت لكانت كافية للقضاء على المشروع الصهيوني في فلسطين آنذاك. ولذلك ليس من الإنصاف لوم الفلسطينيين آنذاك لرفضهم قرار التقسيم، إذ لا يجوز محاكمة أحداث الماضي على معطيات الحاضر، وفي الوقت نفسه، فإن رفض الفلسطينيين لهذا القرار لايلغي حقهم في الأراضي التي خصصت لهم بموجبه. ذلك أن إسرائيل اعتمدت في قيامها، كدولة، على هذا القرار، وان عدم إلتزامها به يلغي شرعية قيامها. فمن المعلوم أن الأمم المتحدة ربطت إعترافها بإسرائيل وقبولها عضواً فيها، بقبول إسرائيل جميع قرارات الأمم المتحدة، بما فيها قرار التقسيم، وقرار عودة اللاجئين رقم ١٩٤ لعام ١٩٤٨.

كان من الطبيعي أن يرحب اليهود بقرار التقسيم لأنه كان أول قرار دولي أيّد إقامة دولة يهودية في فلسطين، وأنه إذا كان وعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢ قد اعترف بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فإن قرار التقسيم جاء ليرفع من سقف المطالب اليهودية لتصبح دولة ذات سيادة.

ازدادت الأحوال سوءاً في عام ١٩٤٨، واشتدت الاضطرابات، وتصاعدت الأعمال الإرهابية اليهودية كلما اقترب موعد الجلاء البريطاني عن فلسطين، والذي تقرر في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨، وكان لا بد للعرب من الرد على الإرهاب اليهودي ضدهم، فقاموا بأعمال انتقامية كثيرة منها نسف مبنى الوكالة اليهودية بالقدس في الحادي عشر من شهر آذار/ مارس ١٩٤٨. وكانت الوكالة اليهودية بمثابة حكومة اليهود غير المعلنة في فلسطين. وقد سقط في العملية ست وثلاثون يهودياً. وكان المجاهدون بقيادة «عبدالقادر الحسيني» قائد جيش الجهاد المقدس قد نسفوا حي «مونتفيوري» اليهودي في القدس في الثاني عشر من شباط/ فبراير ١٩٤٨. وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه نسف المجاهدون الفلسطينيون أيضاً شارع «بن يهوذا» الذي كان من أكبر الشوارع اليهودية في القدس.

تتابعت الحوادث والهجمات المتبادلة بين العرب واليهود بشكل خطير، ونحن لسنا بصدد ذكرها هنا، ولكن ما يهمنا مدى تأثيرها علينا كطلاب في مدرسة الإمام الشافعي، ما دام هذا الكتاب ليس مخصصاً لتناول تاريخ فلسطين وأحداثها، وإنما هدفه كما وضحنا في المقدمة هو تسجيل ما رافق سيرتي ومسيرتي من أحداث شاهدتها، أو عاصرتها، ولها علاقة بهذه السيرة والمسيرة.

كانت الروح المعنوية بين الطلاب في مدرسة الإمام الشافعي عالية جداً، كما هو الحال في جميع شرائح الفلسطينيين في المدن والقرى. وكانت الثقة بالنصر كبيرة. وذات يوم ألقى مدير المدرسة «ممدوح الخالدي» كلمة أمام طلاب المدرسة قال فيها: «أن صراعنا مع الصهاينة طويل، وعلينا الصبر والثبات ومواصلة الجهاد والنضال». وفي هذه الأثناء بدأت طلائع المتطوعين العرب تصل فلسطين قادمة من الأردن وسوريا ولبنان ومصر والعراق، وعدد قليل من بعض أقطار الخليج العربي.

دخل المتطوعون المصريون إلى غزة على شكل فرق، أذكر منها فرقة الشيخ «محمود أبو العزايم» التي يبدو أنها كانت فرقة صوفية، وقد اتخذت من مطار غزة قاعدة لها. ومطار غزة لم يكن مطاراً بالمفهوم المتعارف عليه، وإنما كان مهبطاً للطائرات البريطانية استخدم في الحرب العالمية الثانية.

كان من الذين قادوا المتطوعين في منطقة غزة «عاهد السخن» من نابلس و«طارق الإفريقي» الذي كان إفريقي الأصل. وفي أحد الأيام واستجابة لحماسة الطلاب قام مدير المدرسة «ممدوح الخالدي» بجمع عدد كبير من تلاميذ المدرسة – وكنت واحداً منهم – وطلب منا التوجه إلى مطار غزة لتحية المتطوعين ومساعدتهم في حفر الخنادق والاستحكامات. وكانت انطباعاتي عن المتطوعين آنذاك و– وبخاصة فرقة أبي العزايم المصرية – أنهم يتمتعون بروح عالية، مدفوعين بإيمان عميق للجهاد في فلسطين، وحماية المسجد الأقصى المبارك، وحباً للشهادة على أرض الإسراء والمعراج، ولكنهم كانوا غير مدربين على القتال، وينقصهم التنظيم والتنسيق، ولا يمكنهم مواجهة العصابات اليهودية التي كانت تتمتع بكفاءة قتالية عالية، وتدريب عالٍ وتنظيم وتنسيق رفيع.

إقترب موعد الجلاء البريطاني عن فلسطين، وزادت الأوضاع تدهوراً وتصاعدت العمليات الإرهابية اليهودية، وشكل الفلسطينيون لجاناً قومية في مدن فلسطين وقراها للدفاع عن السكان من الهجمات اليهودية، والتصدي للإرهاب اليهودي. وكنت أشاهد المجاهدين في غزة بكامل أسلحتهم ذاهبين للتصدي للعصابات اليهودية عند المستعمرات القريبة من المدينة. وكان يوماً لن أنساه حينما خرجت مع زملائي

من التلاميذ للسير في أول قافلة من قوافل الشهداء في غزة. وكان الشهيد «مدحت الوحيدي» من طلائعها. ورغم قلة إمكانيات المجاهدين وندرة السلاح والذخائر، فقد كان الغزيون يقومون بتصفيح بعض سيارات النقل العادية في محلات الحدادة بطرق بدائية ويستخدمونها في نقل المجاهدين. وكانوا يغنمون بعض المصفحات اليهودية ويستعينون بها في عملياتهم الجهادية ومنها الهجوم على المستعمرات القريبة من غزة.

لقد كانت جنازة الشهيد «مدحت الوحيدي» مهيبة ألهبت حماس الجماهير الغفيرة التي سارت فيها، وكانت الهتافات بفلسطين وعروبتها، والكل يتوعد العصابات اليهودية بالويل والثبور وعواقب الأمور. وقد عم المدينة إضراب عام فأقفلت المحلات التجارية، وعُطلت المدارس، وتوقفت الأعمال، وتقدم الجنازة حملة الأكاليل والشعارات. وفي أثناء سير الجنازة من شارع عمر المختار إلى المقبرة المقابلة للمستشفى الإنجليزي (المعمداني حالياً)، كبّر المؤذنون من فوق المآذن، وعلت الأصوات مرددة: الله أكبر، وقرعت الكنائس أجراسها، وكالعادة دائماً يتعانق الهلال والصليب ويحتضن كل منهما الآخر في أرض فلسطين، مهد المسيح عليه السلام، وإسراء محمد صلى الله عليه وسلم، وأرض المحبة والسلام.

خرجت من القسم الداخلي يوم الخميس الموافق التاسع من شهر نيسان / ابريل عام ١٩٤٨ متجهاً نحو مزرعة المدرسة للترويح عن نفسي المكدودة المهمومة من الأوضاع المتردية، وإذا بأحد الزملاء يخبرني بنبأ استشهاد البطل القائد «عبدالقادر الحسيني» والذي تمكن من استرجاع القسطل، قرب القدس، رغم نفاد الذخيرة، بعد أن عاد من دمشق محبطاً حيث مكث فيها إثني عشر يوماً، واجتمع بالمسؤولين في اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، والمشكّلة في الأصل لنصرة عرب فلسطين، وقابل أمين عام جامعة الدول العربية «عبدالرحمن عزام باشا»، الذي كان آنذاك في دمشق، والتقى «رياض الصلح» رئيس وزراء لبنان، وعرض عليهم ما يعانيه المجاهدون من قلة السلاح والذخيرة، وتدهور الأوضاع في فلسطين، وتصاعد الأعمال الهجومية اليهودية، وأبلغهم نبأ سقوط القسطل، وبسقوطها تصبح القدس مهددة، ويصبح طريق القدس - يافا تحت سيطرة اليهود. وللأسف لم تجدِ محاولات عبدالقادر وتوسلاته نفعاً، ورد عليه رئيس اللجنة العسكرية اللواء «اسماعيل صفوت باشا» ساخراً بلهجته العراقية: «شنو عبدالقادر؟ ما كو مدافع!». وقال له وزير الدفاع السوري «أحمد الشرباتي»: «إذا احتل اليهود القسطل، فسنأتي ونخرجهم منها أو نقتلهم جميعاً». عندئذ ثار «عبدالقار»، ورمى الخريطة في وجه الباشا والوزير، وقال بصوت مسموع: «أنتم خائنون.. أنتم

مجرمون.. سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين.. سأحتل القسطل، وسأموت أنا وجميع إخواني المجاهدين»، واتهم الهيئة العربية العليا لفلسطين ورجالها بأنهم كانوا السبب في كل ما حدث.

عاد «عبدالقادر» إلى القسطل ونفذ ما عاهد الله عليه، ونجح في استرجاعها ولكن الثمن كان استشهاده. ولما علم اليهود بذلك وتأكدوا من نفاد ذخيرة المجاهدين عادوا واحتلوها ثانية.

بكينا على استشهاد «عبدالقادر الحسيني» فقد كان هو الأمل المتبقي لنا في النصر، وحزنت فلسطين بمدنها وقراها على فقدانه، وهي في أمس الحاجة إليه، وأضربت البلاد، وقامت التظاهرات، وسمعت التكبيرات من مآذن المساجد، وأجراس الكنائس تقرع حزناً على هذا القائد البطل.

باستشهاد «عبدالقادر الحسيني» وسقوط القسطل، وقلة سلاح المجاهدين ونفاد ذخائرهم، أصبحت الأمور تسير في غير صالح الفلسطينيين، وبدأ الخط البياني نحو الانحدار، وقويت شوكة اليهود. وفي اليوم التالي لاستشهاد عبد القادر الحسيني، أي في التاسع من نيسان / إبريل عام ١٩٤٨، ارتكب اليهود مجزرة دير ياسين، فدب الرعب والذعر في أوساط الفلسطينيين. وكان ذلك من العوامل التي ساهمت في سقوط عدد من المدن والقرى الفلسطينية. فسقطت طبريا في ١٩/ ٤/ ١٩٤٨، ثم حيفا في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، تلتها يافا بعد سبعة أيام (٢٩/ ٤/ ١٩٤٨)، وصفد في الحادي عشر من شهر أيار/ مايو، ثم بيسان في اليوم التالي.

إزدادت الأحوال سوءاً، وأصبح السير على الطرق الرئيسية في فلسطين محفوفاً بالمخاطر، فقد كانت المستعمرات اليهودية المقامة على الأراضي المرتفعة والمشرفة على الطرق تطلق النار على السيارات وتصيب السكان.

كان من عادة والدي زيارتي كلما جاء إلى غزة للالتقاء بالذين تربطه بهم صداقة أو علاقات تجارية، ففرحت برؤيته، وطلبت منه العودة إلى خان يونس، فرحب الوالد، وذهب إلى عريف القسم الداخلي «عبدربه أبو معيلق» للاستئذان من المدير كي يسمح لي بالذهاب مع الوالد. ووجد المدير في ذلك فرصة ربما لن تسنح في المستقبل، وطلب من والدي أخذ طلبة خان يونس المقيمين في القسم الداخلي وإيصالهم إلى ذويهم، فقبل الوالد المهمة، وقد كانت الطريق بين غزة وخان يونس تتعرض للخطر لأن مستعمرة «كفار داروم» عند دير البلح، والواقعة عند منتصف هذه الطريق تطلق النار على السيارات.

ذهب الوالد إلى موقف السيارة ليبحث عن سيارة تنقلنا إلى خان يونس، وتصادف أن التقى بشخص من خان يونس اسمه أو لقبه – فيما اذكر – « كوبر بربخ »، وكان والده عليان، « أبو جميل بربخ »، صديق الوالد. وحضر « كوبر » مع سيارته « بيك أب » التي كان ينقل فيها الخضار والفاكهة من خان يونس إلى غزة. ولا زلت اذكر أن من الذين ركبوا معنا من طلبة القسم الداخلي: أولاد العم صبري مصطفى الفرا، ومحيي الدين عبدالمالك الفرا، وشوقي عبدالكريم الفرا. ومن الزملاء كلاً من: حيدر مصطفى الآغا، ورضوان الآغا، وسليمان الآغا، وقاسم صُلْح الآغا، وقنديل شاكر شبير، ومحمود شاهين، وإبراهيم شحدة زعرب (إبن مختار رفح)، وإبراهيم الدغمة (ابن مختار عبسان)، وعلي محمد فارس.

ولما وصلنا خان يونس حمدنا الله على السلامة، ولم تطلق علينا مستعمرة « كفار داروم » النار، واستقبلنا الأهل بالفرح والسرور، وكنا آنذاك في الصف الثالث ثانوي، ولم يبق غير سنة واحدة لننهي المرحلة الثانوية ونتقدم لشهادة « المترك ».

---

(١) هنري كاتن، « فلسطين في ضوء الحق والعدل »، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٠، ص٢٦–٣١.

النكبة

كان شغلي الشاغل منذ مغادرة مدرسة الإمام الشافعي ووصولي إلى خان يونس الاستماع إلى محطات الإذاعة ومتابعة الأحداث المتسارعة. وكنت أتحول من محطة إلى أخرى، وبخاصة محطة الشرق الأدنى البريطانية في قبرص، والإذاعة الفلسطينية في القدس، وهيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C). وللأسف كانت الأحداث غير سارة في مجملها، فالأوضاع في فلسطين تتدهور وتزداد سوءاً، والهجمات اليهودية على العرب تتصاعد، والأعمال الإرهابية في ازدياد، والنزوح العربي من الخطر اليهودي من القرى المهددة من المستعمرات اليهودية أو من المدن التي سقطت بيد العدو بدأ يتخذ منحاً خطيراً، ومع ذلك فالروح المعنوية للفلسطينيين كانت عالية، وثقتهم بالنصر كبيرة، وإيمانهم بدعم إخوانهم العرب لهم لا شك فيه. وكان الزعيم الفلسطيني الحاج محمد أمين الحسيني في القاهرة يجتمع بالقادة والزعماء العرب الذين أكدوا له دعمهم للفلسطينيين ومساندتهم. وفي أحد المرات وحينما كان خارجاً من مبنى جامعة الدول العربية سأله أحد الصحفيين عن الأخبار والمستجدات، فقال كلمته المشهورة: «إذا تكلم السيف فاسكت يا قلم».

مع اقتراب موعد جلاء البريطانيين عن فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨ ازداد تسلل المتطوعين العرب عبر الحدود إلى فلسطين. وكان من أبرزهم جماعات الإخوان المسلمين، بقيادة كامل الشريف الذين دخلوا من مصر، ورابطوا أول الأمر في النقب، وانضمت إليهم أعداد من عرب فلسطين، وهاجموا في الرابع عشر من نيسان/ إبريل ١٩٤٨ مستعمرة «كفار داروم» شمالي خان يونس، ولم يكن الإخوان على علم تام وكاف بتحصينات هذه المستعمرة، ولذلك فشل الهجوم وسقط عدد من الشهداء كان من بينهم «محمد إبراهيم اللحام» من خان يونس، وكان يعمل في مكتب تموين المدينة قبل انضمامه للاخوان في المعركة.

في الخامس من أيار/ مايو تمكنت كتيبة من المتطوعين المصريين، معظمهم إن لم يكن كلهم، من الإخوان المسلمين من دخول فلسطين بقيادة القائمقام (العقيد) «أحمد عبدالعزيز». وحتى يتجنب الصدام مع القوات البريطانية التي لم تكن قد جلت عن فلسطين، فقد أمر أن تتحرك سيارات الكتيبة من رفح إلى خان يونس على خط سكة الحديد. وقد إستقبله الناس بالترحاب، وطلبوا منه تجنيد أبنائهم ليحاربوا مع قواته.

وقد اتخذ من مدرسة خان يونس الثانوية (مدرسة عز الدين القسام فيما بعد) مقراً لقيادته.

قرر «أحمد عبدالعزيز» مهاجمة مستعمرة «كفار داروم»، وأعد خطة لذلك يتم بموجبها خروج قوة من الإخوان تهاجم المستعمرة قبل الفجر. وللأسف تأخر الهجوم حتى شروق الشمس، وترتب على ذلك انكشاف القوة المهاجمة، وارتكب قائد المدفعية خطأً قاتلاً، فقد كان من المفروض ان يأمر بإيقاف الضرب بمجرد دخول القوة المهاجمة المستعمرة، ولكن الذي حدث كان عكس ذلك، فاستمر الضرب، وسقط عدد من الإخوان داخل المستعمرة بعد أن تمكنوا من فتح ثغرة في الأسلاك الشائكة التي تحيط بها.

كان الأُمباشي (العريف) «فتحي الخولي» أول شهيد من شهداء هذه الكتيبة، وحينما شُيعت جنازته التي اشتركتُ فيها، خرجت جماهير خان يونس عن بكرة أبيها، وكان في مقدمتهم أحمد عبدالعزيز، وأختير القبر في الطرف الغربي من المقبرة الرئيسية قرب خان الخضار والفواكه. وعند الدفن ألقى «أحمد عبدالعزيز» كلمة مؤثرة شكر فيها سكان المدينة، وقال إنه جاء مع إخوانه المتطوعين لتحرير فلسطين وحماية المسجد الأقصى والفوز بالشهادة على هذه الأرض المقدسة، ثم ودعنا وعاد مع ضباطه وجنوده إلى مركز قيادته.

كان «أحمد عبدالعزيز» رحمه الله ممتلىء الجسم، أسمر البشرة، يضع على رأسه «بيريه». وكنت أراه وهو في سيارة الجيب يدخل إلى مقر قيادته في المدرسة الثانوية المقابلة لمنزلنا. وقد شاهدته بوضوح يوم دفن الشهيد «فتحي الخولي». وكانت تلك آخر مرة أراه فيها قبل استشهاده قرب مدينة الخليل[1]، حيث قيل أنه أصيب بطلقة من أحد جنود الجيش المصري النظامي لأنه أخطأ سر الليل. ولما انتشر الخبر بكاه الجميع، واعتقد كثيرون بأن قتله كان مدبراً لأسباب منها خلافه مع قائد الجيش المصري بفلسطين آنذاك الأميرلاي «العميد» أحمد علي المواوي[2] الذي كان يريد الأشراف على المتطوعين.

قبل الجلاء البريطاني، ودخول الجيوش العربية فلسطين، كانت بعض الطائرات اليهودية تحلق على المناطق الحدودية، وترصد تحركات المناضلين العرب، ودخول المتطوعين. وكثيراً ما كانت هذه الطائرات تلقي القنابل على السكان الآمنين فتقتل وتجرح عدداً منهم. ولكون خان يونس مدينة حدودية، يتجمع فيها المتطوعون القادمون من مصر، فقد كانت الطائرات اليهودية تداوم التحليق في سمائها. وفي إحدى المرات ألقت طائرة

يهودية قنبلة على وسط المدينة، فاستشهد الحاج منصور زعرب الذي كان يجلس في مقهى قرب حديقة البلدية، يملكه الحاج «حسني حافظ الفرا».

كان أهالي خان يونس كلما شاهدوا طائرة يهودية بادروا إلى إطلاق الرصاص عليها من بنادقهم، على أمل أن تصيب إحدى الطلقات خزان وقودها فتنفجر. وفي إحدى المرات، وحينما كانت طائرة يهودية تحلق في سماء المدينة، واصبحت فوق السمّت – أي فوق الراس –، إنبطحت أرضاً عند حائط منزل الخال حافظ السقا «أبو حلمي»، وإذا بالحاج عبداللطيف شهوان يصوب بندقيته، ويطلق النار على الطائرة. فقلت له مازحاً: وهل تعتقد بأنك تستطيع ببندقيتك إصابة طائرة تحلق في عنان السماء؟. فقال رحمه الله: «كلا يا ابن أخي، ولكننا نمنعها من الاقتراب من الأرض.. إننا نُخيفها حتى تبتعد عن مدينتنا، كما نخيف الحدأة حينما تقترب لتلتقط الصيصان».

كان الناس ينتظرون اليوم الذي تجلو فيه بريطانيا عن فلسطين، وتدخل الجيوش العربية لنصرتهم ومساندتهم واسترجاع المدن التي سقطت بيد اليهود مثل حيفا، ويافا، وطبريا، وصفد، وبيسان. ولم نكن ندري أن المأساة لم تكتمل فصولها بعد.

ربما كان من المفيد أن نعطي للقارىء الكريم صورة عامة وشاملة لليوم المشهود الذي دخلت فيه جيوش ست دول عربية هي: مصر، والسعودية[٣]، والأردن، والعراق، وسوريا، ولبنان، الأراضي الفلسطينية في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨م. وقد خرجتُ آنذاك مع الصبية لاستقبال الجيش المصري مع الكبار على مشارف خان يونس. واختزنت ذاكرتي صورة ذلك اليوم، والأحداث التي جرت بعد ذلك على الساحة الفلسطينية، وقد نشرتها في كتابي «تراث فلسطيني»[٤]. ومن هذا الكتاب أنقل الصورة والأحداث الهامة حتى يقف القارىء على الوضع العام قبل أن أنقله إلى الوضع الخاص في خان يونس فالجزء عادة لا يفهم إلا من خلال الكل.

«كلما اقترب موعد دخول الجيوش العربية زادت حماسة الجماهير التي تتابع نشرات الإذاعات العربية وتعليقاتها السياسية. وهي تهدد وتتوعد اليهود الذين عاثوا في فلسطين فساداً وارتكبوا على أرضها أبشع الجرائم والمذابح التي يندى لها الجبين خجلاً، وتبشر أهل فلسطين بالنصر، فإن مع العسر يسرا. وكانت بعض الإذاعات العربية وبخاصة الإذاعة اللاسلكية للمملكة المصرية تحرص على إذاعة قصيدة للشاعر «علي محمود طه» التي يغنيها محمد عبدالوهاب:

أخـي، جـاوز الظـالمون المدى		فحق الجهـاد وحق الفدا
أنتركهم يغصبون العروبة		مجد الأبوة والسؤددا؟
وليسوا بغير صليل السيوف		يجيبون صوتاً أو صدى
فجرِّد حسامك من غمده		فليس له بعد أن يُغمدا
أخـي، أيها العربيُّ الأبي		أرى اليوم موعدنا لا الغدا
أخـي، أقبل الشرق في أمة		ترد الضلال وتحيي الهدى
أخـي، إن في القدس أختاً لنا		أعدَّ لها الذابحون المدى
صبرنا على غدرهم قادرينا		وكنا لهم قدراً مرصداً
طلعنا عليهم طلوع المنون		فصاروا هباءً وصاروا سدى
أخـي، قُم إلى قبلة المشرقين		لنحمي الكنيسة والمسجدا
أخـي، قُم إليها نشق الغمار		دماً قانياً ولظى مرعداً
أخـي، ظمئت للقتال السيوف		فأورد شباها الدم المصعدا
أخـي، إن جرى في ثراها دمي		وشب الضرام بها موقدا
ففتش على مهجة حُرّة		أبت أن يمر عليها العدا
وخذ راية الحق من قبضة		جلاها الوغى، ونماها الندى
وقبّل شهيداً على أرضها		دعا بإسمها الله واستشهدها
فلسطين يفدي حماك الشبابُ		وجلّ الفدائي والمفتدى
فلسطين تحميك منا الصدور		فإما الحياة وإما الردى

إنه نشيد مؤثر ملهب للحماس مبهج للنفوس، يرفع من معنويات الجماهير العربية التي تتطلع إلى اليوم الذي تشرق فيه شمس العرب، ويحققون فيه بعض أمجادهم الغابرة، وينتصرون على الصهيونية الغادرة.

كان كثير من اليهود يتوجسون خيفة من دخول الجيوش العزبية فلسطين، ويعتقدون بأنه ليس في مقدورهم محاربة ست دول عربية في وقت واحد. لقد كانوا غير قادرين على محاربة الفلسطينيين وحدهم، ولولا نفاد ذخيرة الفلسطينيين وأسلحتهم لما استطاعوا الاستيلاء على شبر واحد من البلاد، ولولا دعم بريطانيا لهم ومحاربتها العرب

لصالحهم لما استطاعوا دخول فلسطين والثبات في مواقعهم، فكيف يستطيعون الصمود أمام الفلسطينين وجيوش ست دول عربية؟.

جاء اليوم الموعود وهو الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨م، والذي تحدد فيه جلاء بريطانيا عن فلسطين، وانتهاء الانتداب البريطاني عليها، وكانت القوات البريطانية قد احتلت البلاد في عامي ١٩١٧ / ١٩١٨، بعد هزيمة الاتراك العثمانيين في الحرب العالمية الأولى.

قررت بريطانيا الجلاء بعد أن تأكدت من تحقيق وعد بلفور سابق الذكر، والذي نص على إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين، وإقامة كيان صهيوني على أرضها، وتهويد البلاد بطرق سبق ذكرها. وقبل الجلاء، فتحت السلطات البريطانية بفلسطين مخازن أسلحتها وذخائرها لليهود في الوقت الذي كانت تحاكم فيه كل فلسطيني عربي يحمل السلاح. وكانت إبان ثورة ١٩٣٦ تعدم من كان بيده مجرد طلقة واحدة (فشكة). وقد سمحت بريطانيا بتشكيل فيلق يهودي اشترك في الحرب العالمية الثانية، وأذنت له بالذهاب إلى فلسطين بكامل أسلحته ومعداته ليحارب عرب فلسطين. وزيادة على ذلك قامت السلطات البريطانية – قبيل جلائها عن فلسطين – بتسليم المواقع والأماكن الحساسة لليهود، وساعدتهم على احتلال كثير من القرى والمدن العربية بفلسطين.

بانتهاء الانتداب وخروج القوات البريطانية بدأت الجيوش العربية دخول الأراضي الفلسطينية. وفي صباح الخامس عشر من أيار/ مايو نادى منادٍ في مدينة خان يونس يطلب من الأهالي التوقف عن الأعمال وإقفال الحوانيت والمتاجر والذهاب إلى الطريق الرئيسية العامة التي تربط مصر بفلسطين، وتمر بمدينة رفح، وبمشارف خان يونس. وخرج سكان المدينة شيباً وشباباً لإستقبال الجيش المصري وتحية ضباطه وجنوده. وكان يقود هذا الجيش الذي دخل فلسطين الأمير الاي (العميد) أحمد محمد على المواوي بك[٥]. وذهبت مع أخي الأكبر مني سناً هاشم مع الجموع المستقبلة للجيش المصري. وكلما مرت سيارة محملة بالجنود المصريين كان الناس يهتفون قائلين عاش الملك فاروق، يحيا الجيش المصري الباسل، أما إذا مرت سيارة من سيارات الجيش البريطاني وتسير في الاتجاه المعاكس أي متوجهة إلى مصر لتنضم إلى القوات البريطانية المرابطة على قناة السويس، فكانوا يهتفون بسقوط الاستعمار والصهيونية.

كان منظر الجنود المصريين في سياراتهم ومصفحاتهم ومدرعاتهم يبعث الفرح والسرور في النفوس، ويطمئن القلوب، ويقوي الآمال، ويشيع جواً من الحماس والنشوة. وكان الجنود يردون على تحيات الناس بالوقوف في حالة استعداد رافعين أيديهم بالتحية،

ويحركون مدافعهم الرشاشة المنصوبة على السيارات العسكرية يمنة ويسرة، وإلى أعلى وإلى أسفل، والبشر والحبور يبدو على ملامحهم، وكأنهم كانوا في عرض عسكري يستعرضون فيه مظاهر قوتهم. واستمر تدفق الجيش المصري ساعات طويلة وكانت الإذاعة المصرية من القاهرة توالي إذاعة الأناشيد والأغاني الوطنية والتعليقات السياسية والأقوال الحماسية التي يقرؤها حسني الحديدي كبير المذيعين آنذاك. وفي نفس الوقت كانت إذاعة القدس تحرص على إذاعة الأخبار التي تصف تقدم وحدات الجيش العربي الأردني. وكان يتناوب عملية الإذاعة كل من عزمي النشاشيبي، مديرالإذاعة، وراجي صهيون.

فوق قوافل الجيش المصري حلّت في السماء نسور الجو من سلاح الطيران الملكي المصري تحمي القوات المصرية، وتقوم بحركات إستعراضية وهي ذاهبة راجعة بشكل يثير الإعجاب ويزيد الحماس في النفوس. وكان يتقدم تشكيل الطيران قائد الجناح أبو زيد، وهو من أشهر الطيارين المصريين آنذاك. وكانت له صولات وجولات في ضرب بعض أحياء تل أبيب وبعض المدن والمستعمرات اليهودية القريبة منها، وكذلك عدة مطارات عسكرية.

حينما دخلت الجيوش العربية فلسطين كانت كتائب وفرق المجاهدين الفلسطينيين والمتطوعين العرب لا تزال تتصدى للقوات اليهودية. ومنها كتائب الإخوان المسلمين، وجيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي، والجهاد المقدس الذي كان يقوده عبدالقادر الحسيني قبل استشهاده في معركة القسطل في ٨ نيسان/ إبريل ١٩٤٨م، وقوات المجاهد حسن سلامة الذي استشهد في معركة رأس العين شمال شرق يافا في ٣١ أيار/ مايو ١٩٤٨م. وفي اللواء الجنوبي دارت معارك بين المجاهدين واليهود كان من أهمها معركة «عراق سويدان» بين المجدل والفالوجا استشهد فيها القائد محمد مصطفى إبراهيم الفرا في ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٨.

في اليوم الذي دخل فيه الجيش المصري فلسطين عبر الجيش العراقي عن طريق جسر المجامع جنوب طبرية، بينما دخل الجيش الأردني عبر جسر اللنبي (جسر الملك حسين)، وجسر دامية. أما الجيش السوري فقد عبر فلسطين بالقرب من الحمة، والجيش اللبناني رابط عند الحدود، وفي السادس من يونيو احتل قرية المالكية. وبدخول الجيوش العربية فلسطين أصبحت القضية الفلسطينية في أيدي حكومات الدول العربية.

كانت الخطة العسكرية التي اتفق عليها أركان الجيوش العربية تقضي بأن يزحف الجيش المصري من رفح المصرية فيدخل خان يونس وغزة والمجدل وبئر السبع وأسدود

ويلتقي بالجيش الأردني عند اللد والرملة، والتي تبعد عن تل أبيب عاصمة الكيان الإسرائيلي آنذاك بنحو خمسة عشر كيلو متراً فقط.

ومن الشمال يتقدم الجيش اللبناني من نقطة الحدود عند رأس الناقورة إلى مدينة عكا على الساحل الفلسطيني. ويزحف الجيش السوري عبر بانياس وبنت جبيل بجنوب لبنان صوب الناصرة وصفد والعفولة.

ومن الشرق يزحف الجيش العراقي عن طريق جسر «اللنبي» إلى بيسان في الغور ثم العفولة. وفي الوقت نفسه يزحف الجيش الأردني عبر جسر «دامية» نحو جنين والعفولة ويتجه قسم منه إلى القدس – باب الواد، ورام الله.

واتفق كذلك على أن تلتقي جيوش كل من سوريا والأردن والعراق عند العفولة، وتتوجه بعد ذلك لاحتلال كل من الخضيرة ونتانيا، وتحاصر مدينة تل ابيب. وعلى هذا النحو تتمكن الجيوش العربية من فصل الكيان الصهيوني بفلسطين إلى قسمين على النحو التالي: منطقة تل أبيب وبتاح تكفه «ملبس»، ورخبوت «ديران» في الجنوب، عن منطقة حيفا وصفد وطبريا وبيسان في الشمال. ولو تم تنفيذ هذه الخطة لنجحت الدول العربية في القضاء على الكيان الاسرائيلي وهو في مهده. ولأسباب كثيرة – لا مجال لذكرها هنا – لم تلتزم الجيوش العربية بالخطة العسكرية الموحدة وأصبح كل جيش يتصرف دون تنسيق مع الجيوش الأخرى. ولم تتجاوز الجيوش العربية المناطق التي خصصت للعرب بموجب مشروع التقسيم الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة في مساء التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧، حتى أن قرى ومناطق كان مشروع التقسيم قد أعطاها للعرب، وظلت بيد الفلسطينيين في أثناء دخول الجيوش العربية واستنجد أهلها بهذه الجيوش، إلا أنها لم تلب النداء، فاحتلتها القوات الصهيونية.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يهدف إلى تسجيل تحركات الجيوش العربية منذ أن عبرت الحدود الفلسطينية، ولا وصف المعارك التي خاضتها تلك الجيوش ضد قوات الكيان الصهيوني، إلا أنني سأورد وصفاً مختصراً لزحف القوات العربية، واحتلالها للمدن والقرى والمناطق التي استطاع عرب فلسطين الاحتفاظ بها والدفاع عنها من الهجمات الإسرائيلية قبل دخول الجيوش العربية فلسطين في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨. ففي هذا الوصف ما يفيد القارىء.

ونظراً لانني كنت في أثناء هذه الفترة أقيم في خان يونس، فإنني أوليت الجبهة المصرية، بوصف مفصل نسبياً عن بقية الجبهات الأخرى.

بعد أن زحف الجيش المصري واحتل رفح الفلسطينية، وخان يونس، ودير البلح، وغزة،

قام بمهاجمة مستعمرة « نيريم » (Nirim) – ويسميها العرب « الدنقور » وتبعد عن طريق رفح – خان يونس بأقل من أربعة كيلومترات. وتتحكم هذه المستعمرة في الطريق التي تصل خان يونس في الغرب وبئر السبع في الشرق. ولم تنجح القوات المصرية في احتلال هذه المستعمرة لمناعتها وشدة تحصيناتها واستحكاماتها. وكانت المستعمرات اليهودية مشيدة على شكل قلاع منيعة وتحتوي على برج للمراقبة، وبيوت بسيطة للحياة اليومية العادية ومعظم منشآت المستعمرة تحت الأرض. وأقام اليهود مستعمراتهم في المواقع الحساسة والإستراتيجية كان تتحكم في شبكات الطرق الرئيسية التي تصل المدن والقرى العربية ببعضها البعض، أو تسيطر على مفارق الطرق وتقاطعاتها أو التقائها. وكان اليهود يختارون المواقع المرتفعة لمستعمراتهم حتى يتمكنوا بواسطتها من الإشراف والسيطرة على المدن والقرى والمناطق العربية.

لم يكن لدى الجنود المصريين خبرة كافية بحرب العصابات التي كان اليهود يتقنونها وحاربوا الجيوش العربية بموجبها. ولذلك لم يكن من السهل الاستيلاء على المستعمرات اليهودية التي كانت تعترض عملية زحف القوات العربية وتهاجمها وتقطع خطوط مواصلاتها وتمنع عنها امداداتها.

تركت القوات المصرية مستعمرة « نيريم » وتحولت إلى مستعمرة « كفار داروم »، وتقع إلي الشرق من محطة سكة حديد دير البلح، وتبعد عن الطريق العام التي تصل بين مدينة خان يونس جنوباً ومدينة غزة شمالاً بنحو ٤٠٠ متراً فقط، وصوبت مدفعيتها نحو المستعمرة، وأطلقت عليها النار وحاولت اقتحامها، ولكن دون نتيجة، فتركتها واتجهت إلى مدينة غزة.

واصل الجيش المصري زحفه شمالاً نحو مدينة المجدل التي كانت لا تزال بيد الفلسطينيين. وكان لا بد له من الاستيلاء على مستعمرة « يدمردخاي »، والتي يسميها العرب مستعمرة « دير سنيد »، لأنها كانت تقع على أراض تابعة لقرية « دير سنيد » العربية. وقد تمكن الجيش المصري من اقتحامها في التاسع عشر من أيار / مايو ١٩٤٨، وكانت أول مستعمرة يحتلها الجيش المصري آنذاك.

تقع هذه المستعمرة على الطريق الرئيسية التي تصل غزة في الجنوب بالمجدل في الشمال وتبعد عن غزة بنحو خمسة عشر كيلومتراً. واضطر الجيش المصري الاستيلاء على هذه المستعمرة بعد أن تأكد بأن التقدم شمالاً إلى المجدل مستحيل طالما ظلت باقية. ولما اشتد الهجوم على المستعمرة، رفع سكانها علم التسليم. ولما تقدم الجنود المصريون نحوها واقتربوا كثيراً من مبانيها أطلق اليهود النيران الكثيفة من مدافع رشاشة

فسقط كثير من الجنود شهداء على أرض المستعمرة من جراء هذه الخدعة اليهودية الغادرة. وقد اشترك في الهجوم على هذه المعركة جمال عبدالناصر حيث كان رئيس أركان حرب الكتيبة السادسة والمسؤول عن التموين.

لقد كانت مستعمرة «يد مردخاي»، أشد تحصيناً، وأكثر مناعة من مستعمرتي «نيريم» و«كفار داروم»، ولكن إصرار الجيش المصري وتصميمه على اقتحامها أدى إلى سقوطها، ولو فعل الشيء نفسه مع جميع المستعمرات التي مرّ عنها ولم يدمرها، لتجنب الكوارث والهزائم التي مُني بها الجيش بعد ذلك. فقد قامت هذه المستعمرات بمهاجمة الجيش المصري من الخلف وقطعت عليه الطريق فيما بعد، واضطرته الى التراجع والإنسحاب من الأراضي التي كان يستولي عليها، – وبخاصة منطقة النقب التي تزيد مساحتها عن ثلث مساحة فلسطين – وتنكمش المساحة التي ظلت تحت سيطرة الجيش المصري الى قطاع غزة الحالي، التي لا تزيد مساحته عن ٣٠٠ كيلومتراً مربعاً، كما سنرى لاحقاً.

بعد سقوط مستعمرة «دير سنيد»، واصل الجيش المصري زحفه شمالاً نحو مدينة المجدل والتي اتخذها قاعدة لقيادته الميدانية. وبعد المجدل توجه قسم من الجيش المصري في الرابع والعشرين من أيار / مايو إلى الشرق نحو قرية «عراق سويدان» ثم قرية «كرتيا» و«الفالوجا» و«عراق المنشية» وبيت جبرين»، ومنها إلى مدينة الخليل، وبذلك أصبح الاتصال بالقدس عبر حلحول وبيت لحم سهلاً، لأن جميع هذه المناطق كانت وما تزال بيد عرب فلسطين. وقد دخلت هذه المناطق قوات من الجيش الأردني والمتطوعين العرب، وبخاصة الأخوان المسلمين الذين كان لهم وجود فعلي في القدس، واشتركوا في المعارك التي دارت فيها وحولها، وعليه أصبح اتصال الجيش المصري في الجنوب بالجيش الأردني في وسط البلاد ممكناً. وفي الوقت نفسه أصبح من السهل على الجيش المصري الاتصال بقواته في مدينة بئر السبع في الجنوب، والتي كانت قاعدة للنقب. ومن بئر السبع يمكن للجيش المصري الاتصال بقواعده في شبه جزيرة سيناء، عبر «الخَلَصة» و«بير عسلوج» و«العوجة» ثم العريش مباشرة، أو مروراً بالقويسمة داخل سيناء، ومنها إلى «الكونتيلا» في الجنوب.

أما القسم الثاني من الجيش المصري، فقد توجه شمالاً وبمحاذاة السهل الساحلي نحو قرية اسدود والتي كانت لا تزال بيد الفلسطينيين. وفي أثناء زحفه تقرر احتلال مستعمرة «كفار هنعر نيتسانيم»، والتي تقع على الطريق الممتدة من المجدل حتى اسدود. وكان الأميرالاي (العميد) محمد نجيب هو المسؤول عن الكتيبة التاسعة التي

احتلت هذه المستعمرة في السابع من حزيران/ يونيو ١٩٤٨، وكان عبدالحكيم عامر رئيس أركان حرب هذه الكتيبة.

ولما وصل الجيش المصري اسدود رابط فيها وتوقف عن الزحف، ولم يحاول دخول القرى العربية التي كانت وما تزال بيد أهلها مثل «يبنة» و«بيت داراس»، رغم إلحاح السكان، وطلبهم من الجيش المصري دخول قراهم، التي باتت مهددة من المستعمرات اليهودية المحيطة بها.

من المعلوم بأن جميع المدن والقرى والمناطق التي احتلها الجيش المصري من الأراضي الفلسطينية كانت آنذاك بيد عرب فلسطين، مما ترتب على ذلك أن دخلها دون قتال، اللهم إلا بعض المستعمرات التي اضطرت القوات المصرية احتلالها لكونها تعترض مسيرة الجيش، كما سبق أن ذكرنا.

لقد كان من المؤلم حقاً أن يتحول الجيش المصري إلى الدفاع بدلاً من الهجوم، وفي هذا إضعاف لروح جنوده المعنوية، فقد دخلوا فلسطين وهم يتعطشون شوقاً لقتال الصهاينة الذين ارتكبوا المجازر على أرض فلسطين، ويسعون إلى تهويدها . إن توقف الجيش المصري في المواقع التي احتلها دون قتال شجع العصابات اليهودية على مهاجمته في المناطق الحساسة، والاعتداء على حامياته المنتشرة على مساحات واسعة من فلسطين. فقد بلغت المساحة التي احتلها الجيش المصري أكثر من نصف مساحة فلسطين بكاملها.

صحيح أن الجيش المصري لم يكن وحده في الميدان، فقد كانت فرق من المتطوعين العرب وقوات من الجهاد المقدس الفلسطيني، وكتائب من الإخوان المسلمين، ولكن التنسيق بين هؤلاء كان في حكم العدم، وعلاوة على المضايقات التي كان يتعرض لها الإخوان المسلمون من الجيش المصري، فالحكومة المصرية لم تكن في الأصل راغبة في دخول الإخوان أرض فلسطين، خشية أن يشتد بأسهم بعد أن استقطبوا الجماهير الكثيرة في مصر. والحق يقال إن كتائب الإخوان المسلمين أبلت أحسن البلاء في جميع المعارك التي خاضتها على أرض فلسطين وكان أفرادها يحاربون عن مبدأ وإيمان وعقيدة.

ولما تصاعدت الأحداث وزاد التوتر بين حكومة محمود فهمي النقراشي باشا السعدية، وبين جماعة الإخوان المسلمين، قامت الحكومة المصرية بحل الجماعة ومصادرة أموالها ومطاردة رجالها. وكرد فعل قام الاخوان باغتيال النقراشي، وهو يهم بدخول مصعد وزارة الداخلية في ٢٨ كانون أول/ ديسمبر ١٩٤٨. وعلى أثر ذلك قامت الحكومة المصرية بواسطة البوليس السياسي باغتيال الشيخ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين في ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٩، والقت حكومة إبراهيم عبدالهادي باشا السعدية، التي خلفت

وزارة النقراشي بعد اغتياله، القبض على كل من تشتبه في انتمائه إلى الاخوان المسلمين، ونكلت بهم، وصارت تطارد متطوعيهم في ساحات القتال، وتعتقلهم وترسلهم، إلى مصر ليلقوا مصيرهم في السجون والمعتقلات التي ضاقت بهم.

وعلى أية حال قام سلاح الجو الملكي المصري بطلعات موفقة، ونجح في ضرب بعض أحياء تل أبيب، وبعض المدن والمستعمرات اليهودية القريبة منه، وكذلك عدة مطارات عسكرية. وفي صبيحة الثاني والعشرين من شهرأيار/ مايو ١٩٤٨، توجه سرب من الطائرات الحربية المصرية لقصف بعض المدن اليهودية. وبسبب سوء الأحوال الجوية ضلت الطائرات طريقها ووصلت ميناء حيفا، والذي كانت ما تزال ترابط فيه بعض القوات البريطانية. وعلى الفور تصدت هذه القوات للطائرات المصرية، وكان عددها خمسة فاسقطتها جميعها وأسر قائد السرب عبدالرحمن عنان. وكانت هذه خسارة فادحة للجيش المصري آنذاك.

الموقف على الجبهات الأخرى:

بدأ الجيش السوري يتجمع في «الحمة» منذ الأسبوع الأول من شهر مايو ١٩٤٨. وفي الخامس عشر من هذا الشهر صدرت الأوامر لقطاعات من الجيش السوري بالعبور إلى فلسطين واحتلال بلدة سمخ الواقعة على الطرف الجنوبي من بحيرة طبريا. وقد اصطدم الجيش السوري بسلسلة من المستعمرات الحصينة التي حالت دون تقدمه.

أما الجيش اللبناني فلم يحرز أي تقدم لعدم استعداده للقتال. وعلى العكس من ذلك دخلت القوات الإسرائيلية عدداً من القرى اللبنانية الحدودية، واحتلتها.

ووصلت قطعات من الجيش العراقي رأس العين. واشتركت في الثالث من يونيو ١٩٤٨ في معارك جنين. وكادت بعض وحدات من الجيش العراقي أن تصل إلى نتانيا على ساحل البحر المتوسط لتحكم الحصار على مدينة تل أبيب، لولا أن جاءتها الأوامر بالتوجه إلى جنين لنجدتها من الهجوم الإسرائيلي.

واشترك الجيش الأردني في المعارك التي كانت تدور في القدس ومنطقتها. وانتشر في منطقة واسعة شملت مدناً هامة منها: القدس ورام الله ونابلس والخليل واللد والرملة.

وعلى أية حال كان الموقف العسكري على العموم لصالح العرب، فالجيش المصري رابط في قرية اسدود، أي على مسافة لا تزيد من ٣٥ كيلومتراً من تل أبيب. وكان النقب بكامله مع العرب. ورابط الجيش الأردني في مدينتي اللد والرملة، واللتان لا تبعدان عن تل أبيب إلا بنحو خمسة عشر كيلومتراً. والجيش العراقي وصل كما قلنا إلى نتانيا الواقعة شمالي تل أبيب بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً. وبذلك أطبقت الجيوش

العربية على تل أبيب من جميع النواحي، فدب الذعر والهلع في قلوب اليهود، وبدأت أعداد منهم تستعد للرحيل من حيث أتوا.

استنجد الصهاينة بالدول الكبرى وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا، وبذلت هذه الدول ضغوطاً شديدة على الدول العربية، مما جعلها تقبل بالهدنة الأولى في العاشر من حزيران / يونيو ١٩٤٨، وتلتزم بها في اليوم التالي.

بمجرد أن انتشر خبر قبول الحكومات العربية للهدنة، حتى عمت موجة من السخط والاستياء، وانتاب الشعب الفلسطيني شعور بالخيبة والإحباط، وأوجس خيفة من الأيام المقبلة.

أما اليهود فقد شعروا بالارتياح والاغتباط، وصاروا يرقصون في الشوارع ويهنئون بعضهم بعضاً، فقد زال الخطر، وتنفسوا الصعداء.

استغل اليهود الهدنة أحسن استغلال فأعادوا تسليح أنفسهم، واستوردوا من الخارج الأسلحة والمعدات والطائرات والمتطوعين. ولما استكملوا استعداداتهم صاروا يتحرشون بالجيوش العربية، غير مبالين بالهدنة وشروطها.

وزيادة في الاستهانة بالعرب، أطلق الاسرائيليون النار على القطار الملكي الخاص بالملك فاروق. ففي السابع من حزيران / يونيو ١٩٤٨، قام الملك فاروق بزيارة خاصة يتفقد فيها جيشه في الميدان، وحتى يرفع من معنويات الجنود. وما إن وصل القطار الملكي محطة دير البلح في طريقه إلى غزة حتى أطلق عليه الاسرائيليون النار من مستعمرة «كفار داروم»، إلا أنه لم يصب بأذى. وعلى ما يبدو كانوا يريدون أن يشعروه بوجودهم. ولا شك بأن الاعتداء بهذا الشكل على ملك أكبر دولة عربية له دلالته الكبرى. وقد فهم الملك ما يقصده الإسرائيليون فأصدر أمره بضرورة مهاجمة هذه المستعمرة ومحوها من الوجود. وبالفعل نجحت القوات المصرية في العاشر من تموز / يوليو من اقتحام المستعمرة بعد أن دكتها بالمدفعية فاضطر سكانها إلى الرحيل عنها ليلاً.

بعد انتهاء الهدنة استؤنف القتال في صباح يوم الجمعة التاسع من تموز / يوليو ١٩٤٨. وتبين منذ الساعات الأولى لبدء القتال مدى استفادة اليهود من الهدنة. ولذلك لم تكن المعارك في كل الجبهات لصالح العرب.

ولن نخوض في وصف سير العمليات العسكرية، فذلك أمره يطول. وعلى أية حال فقد أسفرت المعارك عن سقوط عدد كبير من المدن والقرى العربية، مثل اللد والرملة وبئر السبع. ففي الجبهة المصرية سقط النقب وانسحب الجيش المصري من اسدود والمجدل وحوصرت الفالوجا. وتقلص الوجود المصري في فلسطين في شريط من الأرض. يمتد

من قرية بيت حانون شمالاً حتى رفح جنوباً، بحيث لا يزيد طوله عن أربعين كيلومترا، وعرضه لا يزيد عن ستة كيلومترات، ومساحته نحو ٣٠٠ كيلو متر مربع فقط، كما ذكرنا سابقاً.

نظراً للهزائم التي مني بها العرب وافقوا على الهدنة الدائمة بينهم وبين إسرائيل. وبدأت مفاوضات الهدنة مع مصر أولاً في الثالث عشر من كانون الثاني / يناير ١٩٤٩، ثم حذت الدول العربية حذو مصر، ووقعت إتفاقيات الهدنة الدائمة مع إسرائيل.

وبتوقيع الحكومات العربية للهدنة الدائمة مع إسرائيل إنتهت أخطر مرحلة من مراحل الصراع العربي الإسرائيلي، وحسمت المعركة لصالح الصهيونية. ولا شك في أن ذلك كان خيبة أمل كبيرة للفلسطينيين بصفة خاصة، وللشعوب العربية بصفة عامة. فقد كان الفلسطينيون يعتقدون بأن الجيوش العربية ستحررهم من الصهيونية العالمية، وستيعدهم إلى أوطانهم التي نزحوا عنها مضطرين، بعد أن نفدت عدتهم وذخيرتهم. وستعيد لفلسطين وجهها العربي الأصيل، وتساعد شعبها على إقامة دولته المستقلة، وتصبح عضواً فعالاً في جامعة الدول العربية.

كانت هناك أسباب كثيرة لهزيمة الجيوش العربية في حرب فلسطين، لعل من بينها، أن العرب استهانوا باليهود، وبقوة إسرائيل، وظن بعضهم أن الحرب لن تستغرق منهم إلا أياماً معدودة، وأنها ستكون أشبه بنزهة قتالية وليست حرباً بمعناها الحقيقي.

ومن الأسباب الأخرى عدم وجود تنسيق بين الجيوش العربية، فكل جيش كان يتصرف بمعزل عن الآخر، واختلفت رؤى هذه الجيوش. وفي الوقت نفسه أستُبعد الفلسطينيون من الحرب على الرغم من أنهم أعرف بطبيعة بلادهم، وأقدر على مواجهة العدو لخبرتهم الطويلة في قتاله. وللأسف فقد تم حل القوات الفلسطينية المجاهدة، وجُمعت منها الأسلحة، ومُنعت من القتال.

لقد عانينا الكثير طيلة الحرب، فالطائرات الإسرائيلية كانت تغير يومياً علينا وتسقط قنابلها على السكان الآمنين في مدن وقرى قطاع غزة، وراح ضحيتها عدد من الشهداء، وسقط الكثير من الجرحى. وكنا لا نعرف الراحة في النهار، ولا نستطيع النوم في الليل من كثافة هذه الغارات، وبخاصة بعد انتهاء الهدنة. ولم تستطع مدفعية الجيش المصري اسقاط هذه الطائرات، لأنها كانت تنفجر في الجو مخلفة وراءها دخاناً كثيفاً.

بهذه النهاية المأساوية تبخرت آمال الشعب الفلسطيني، وانتاب الناس شعور بالإحباط، واعتقدوا بأن هناك مؤامرة عالمية دبرت بذكاء ودهاء ضدهم، وضد وطنهم. وساد شعور الغضب لدى الناس، الذين لم يتقبلوا الوضع، ولم يرضوا بالهزيمة والهوان،

ولم يستسيغوا الرحيل عن ديارهم، والبقاء بعيداً عن مدنهم وقراهم، وصاروا يطالبون الحكومات العربية بضرورة تدريبهم وتجنيدهم وتسليحهم وتمكينهم من تحرير أوطانهم، فهم أحق من غيرهم في حرب عدوهم. ولكن هذه المطالب لم تجد أذناً صاغية من أحد من المسؤولين آنذاك.

١- دفن في مقبرة قبة «راحيل» الإسلامية في بيت لحم، ثم نقلت رفاته فيما بعد إلى مصر.

٢- رُقي فيما بعد إلى رتبة لواء.

٣- أرسلت السعودية جنودها ليكونوا تحت إمرة وقيادة الجيش المصري. وكان يرافقهم «شكيب الأموي»، وهو فلسطيني من مدينة صفد. تعرفت عليه في عام ١٩٥٦م حينما كنت في جدة بالمملكة العربية السعودية، حيث كان رئيساً لتحرير مجلة قافلة الزيت التي تصدرها شركة «أرامكو».

٤- محمد علي الفرا، «تراث فلسطيني»، مرجع سابق، ص٢١٨-٢٢٦.

٥- كانت الرتب العسكرية في الجيش المصري بالنسبة للضباط تبدأ برتبة ملازم ثان (نجمة)، ملازم أول، (نجمتان)، يوزباشي (نقيب: ثلاث نجوم)، صاغ (رائد: تاج)، بكباشي (مقدم: تاج ونجمة)، قائمقام (عقيد: تاج ونجمتان)، أمير الاي (عميد: تاج وثلاث نجوم)، ثم لواء، فريق، مشير.

الإدارة المصرية بفلسطين

كانت حكومة الانتداب، قبل رحيلها عن فلسطين، قد سلّمت شؤون الحكم والإدارة إلى رؤساء البلديات، على اعتبار أن البلديات، هي السلطات المحلية الشرعية التي بقيت في البلاد. وبطبيعة الحال كانت المسؤوليات أكبر من أن تتحملها البلديات، وبخاصة فيما يتعلق بالأمن، والصحة، والتعليم والبريد والقضاء. وهي مسؤوليات تتطلب سلطة أكبر وخبرة أوسع، حتى تستطيع السيطرة على مناطق أوسع من مناطق نفوذ البلديات، والتي تنحصر مهماتها في تقديم الخدمات البلدية لسكان المدن، كالنظافة، والإنارة، والمياه، وترخيص المباني، وتخطيط الأحياء السكنية، وشق وبناء الطرق داخل المدن وصيانتها. ولذلك سادت الفوضى، وتعطلت بعض المرافق والخدمات كالبريد والتعليم لفترة من الزمن إلى أن عينت الحكومة المصرية إدارة تشرف على الأراضي التي تسيطر عليها قواتها بفلسطين. وأطلقت على هذه الأراضي «المناطق الخاضعة لرقابة القوات المصرية بفلسطين»، وألحقتها بسلاح الحدود الملكي المصري، حيث كان مقر رئاسته في منطقة كوبري القُبة بالقاهرة. وبناء عليه تغير لقب مدير عام سلاح الحدود ليصبح «مدير عام سلاح الحدود الملكي المصري والحاكم العام للمناطق الخاضعة لرقابة القوات المصرية بفلسطين»، وأُعطيت له صلاحيات المندوب السامي البريطاني لفلسطين. وتم تعيين القائمقام (العقيد) «مصطفى الصواف» نائباً للحاكم العام، ومقره مدينة غزة. وكان «مصطفى الصواف» قد عمل من قبل مساعداً لمحافظ سيناء، ومركزه مدينة العريش. وكان على معرفة جيدة بفلسطين وأهلها.

في ٢٧ أيار/ مايو ١٩٤٨م وصل مدينة غزة «مصطفى الصواف»، ومعه عدد من ضباط سلاح الحدود، ولفيف من الموظفين المنتدبين من مختلف الوزارات للقيام بالأعمال الإدارية، والأمن، والإشراف على الدوائر الحكومية.

قُسمت الأراضي الفلسطينية التي دخلها الجيش المصري إلى ثلاث مناطق:

١- منطقة خان يونس، وتمتد من دير البلح شمالاً حتى رفح على الحدود المصرية جنوباً.

٢- منطقة غزة، وتبدأ من شمالي دير البلح جنوباً حتى قرية دير سنيد شمالاً.

٣- منطقة المجدل، وتبدأ من شمالي دير سنيد جنوباً حتى اسدود شمالاً.

وعُين لكل منطقة حاكم إداري من ضباط الجيش المصري، واختيرت مدينة غزة مقراً للإدارة العامة، يقيم فيها نائب الحاكم العام.

ظل هذا النظام الإداري متبعاً حتى أيلول/ سبتمبر ١٩٥٢م، حينما تم فصل القطاع عن سلاح الحدود، وعين للقطاع حاكم إداري عام مقره مدينة غزة، يتبع وزير الحربية مباشرة ويُعين بقرار جمهوري. وكان «مصطفى الصواف» الذي رقي إلي رتبة (أمير الاي) أي (عميد) أول من شغل هذا المنصب[١]. وقد أعيد تقسيم المناطق عدة مرات حتى أنتهى إلى تقسيم قطاع غزة - بعد انكماشه - إلى منطقة رفح، ومنطقة خان يونس، ومنطقة المعسكرات الوسطى، ومنطقة غزة. وظل هذا التقسيم معمولاً به حتى احتلال إسرائيل للقطاع في حرب الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧م.

كان اليوزباشي (النقيب) «ناجي سلام»، أول حاكم إداري لمدينة خان يونس ومنطقتها[٢]. وكان يساعد الحاكم الإداري عدد من ضباط الشرطة الفلسطينيين. ومن ضباط الشرطة الذين عملوا بمدينة خان يونس خالد رشيد، وياسر خماش، وحافظ دودين، وشحادة العناني، ومصطفى السرّاج، وأحمد الزين، ويعقوب مرقة.

كان قطاع غزة في النصف الأول من عقد الخمسينيات يشهد ضائقة اقتصادية خانقة، وأحوالاً معيشية صعبة، فالبطالة منتشرة، وكانت معظم الأسر تنتظر ما تجود به عليها وكالة الغوث الدولية من مواد تموينية غير كافية. وقامت الحكومة المصرية بتقديم معونات رمزية للعائلات المستورة. وطافت قطارات الرحمة تجوب مدن مصر وقراها لجمع التبرعات.

كان من نتائج حرب ١٩٤٨م نزوح معظم الفلسطينيين من المدن والقرى التي احلتها اليهود. وقد استخدم اليهود وسائل مختلفة لإجبار عرب فلسطين على ترك مواطنهم. منها ارتكاب المجازر، والتهديد والوعيد، واستعمال القوة، ومصادرة الأراضي، وهدم البيوت والمساكن ، وعدم السماح بعودة الذين غادروا مدنهم وقراهم في أثناء القتال، واعتبارها مناطق عسكرية. وهذا النزوح الجماعي لعرب فلسطين أوجد مشكلة لا تزال قائمة حتى اليوم وهي مشكلة اللاجئين.

استقبل سكان قطاع غزة إخوانهم اللاجئين بالترحاب، وقدموا لهم كل مساعدة ممكنة، واذكر - على سبيل المثال - أن الوالد استضاف إحدى أسر اللاجئين، وقسم المنزل بيننا وبين هذه الأسرة، بوضع ستائر من البطانيات لتفصل بين القسمين. وبزيادة أعداد النزوح المستمر، أصبح عدد اللاجئين أكثر من عدد المقيمين. ففي عام ١٩٥٠ وصل عدد سكان القطاع إلى ٣٠٠ ألف نسمة، منهم نحو ١٠٠ ألف من السكان الأصليين، والباقي أي

٢٠٠ ألف من اللاجئين. ولذلك فإن القطاع بموارده المحدودة جداً، وإمكانياته المتواضعة، أصبح عاجزاً على التعامل مع مشكلة اللاجئين، فأصدرت الأمم المتحدة نداءات إلى الصليب الأحمر الدولي، والهيئات الإنسانية العالمية لإغاثة اللاجئين، فكانت «جمعية الأصدقاء الأميركية» المسماة « كويكرز» أول من لبى النداء، وهي جمعية دينية مسيحية، قامت بتوزيع الخيام والبطانيات والأغذية، وأنشأت عيادات طبية. وهكذا بدأت تقام معسكرات أو مخيمات اللاجئين.

وتولت منظمة الأمم المتحدة للطفولة «اليونسيف» (UNICEF) توزيع الحليب والأغذية للأطفال. ثم شكلت هيئة الأمم المتحدة. جهازاً خاصاً يتولى إغاثة اللاجئين اطلق عليها «منظمة الأمم المتحدة للإغاثة والتشغيل» «أونروا» (UNRWA). وقامت هذه المنظمة بإغاثة اللاجئين بتوزيع الأغذية عليهم، وبناء المساكن الدائمة بدلاً من الخيام، وإنشاء المدارس والمستوصفات وتقديم الكثير من الخدمات للاجئين في المناطق التي يقيمون فيها. وهي لا تزال تقوم بهذه الخدمات حتى الآن.

باستلام الإدارة المصرية شؤون قطاع غزة استؤنفت الدراسة وعُين الصاغ (الرائد) أحمد إسماعيل مديراً لدائرة التربية والتعليم في قطاع غزة. وكان «أحمد إسماعيل» من رجال التربية والتعليم بمصر، ومن الضباط الاحتياط. وقد تميز بالكفاءة والخلق الرفيع، وكان مخلصاً في عمله، ساهم في نهضة القطاع التعليمية حتى وصل التعليم إلى مستويات عالية جداً.

بما أن السنة الرابعة الثانوية كانت نهاية المرحلة الثانوية بموجب نظام التعليم الفلسطيني، حيث يتقدم الطالب في نهايتها لامتحان «المترك»، فقد تقرر أن نقدم التوجيهي بدلاً من المترك، وكنا أول دفعة في فلسطين تتقدم لامتحان التوجيهي (امتحان شهادة الدراسة الثانوية) بحسب النظام المصري، علماً بأن المرحلة الثانوية في مصر كانت خمس سنوات، يتقدم الطالب في السنة الرابعة لامتحان الثقافة، وفي السنة الخامسة يتقدم لامتحان التوجيهي الذي يؤهله لدخول الجامعة. وهذا الامتياز الذي حصلنا عليه، أي ترفيعنا عاماً، لم تحصل عليه الدفعات التي جاءت بعدنا من الطلاب.

تقدمت في أيار / مايو عام ١٩٥٠ لامتحان التوجيهي مع ستة وستين طالباً من زملائي بمدرسة الإمام الشافعي. وقدمت من مصر لهذا الغرض لجنة امتحان مصرية خاصة برئاسة أحد كبار رجال التعليم اسمه «المرشدي بك»، وعُقد الامتحان في السراي القديم لمدينة غزة والتي كانت تسمى «الدبويا»، والتي كانت قصراً ومقراً لآل رضوان، الذين تولوا

حكم غزة منذ عام ١٥١٠م، أي في أواخر عهد المماليك واستمر حكمهم في العهد العثماني.

رحب سكان القطاع بلجنة الامتحان، وشكروا مصر ودورها في النهوض بالتعليم، وأقامت كل من بلدية غزة وبلدية خان يونس احتفالات تكريمية للجنة، دُعي إليها وجوه وشخصيات من المدينتين، كما دُعي الطلبة الذين تقدموا للامتحان احتفاءً بأول كوكبة من الطلبة الفلسطينيين تتقدم لامتحان التوجيهي(٣).

١- من الذين تولوا منصب حاكم عام القطاع نذكر اللواء محمد رشاد دانش الذي جاء بعد مصطفى الصواف، ثم اللواء عبدالله رفعت، ثم اللواء فؤاد الدجوي، وهو الذي اعلن استسلامه في ٢/١١/١٩٥٦م للقوات الإسرائيلية في أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م. وكان اللواء محمد حسن عبداللطيف أول حاكم عام عينته مصر بعد جلاء إسرائيل عن القطاع في آذار ١٩٥٧م. ومن الذين جاؤوا بعده: اللواء احمد سالم، والفريق يوسف العجرودي.

٢- بعد ناجي سلام جاء في عام ١٩٥٠م حسين كامل سليم، عبداللطيف الغزالي، وفي عهده نسف اليهود عمارة بوليس خان يونس، والمقدم محمود التنير، والذي في عهده احتل الإسرائيليون خان يونس في أثناء عدوان ١٩٥٦م.

٣- لا زلت اذكر عدداً من الذين تقدموا معي لامتحان التوجيهي، وارسلتهم الإدارة المصرية لمواصلة تعليمهم العالي في الجامعات المصرية، فكانوااول بعثة في عهد هذه الإدارة، وعددهم ٦٦ طالباً. وإليك هذه الأسماء التي أذكرها: اسحق نسيبة، حيدر الآغا، عبدالرؤوف لولو، غالب الغلاييني، محمد عبدالهادي قوته، فؤاد ظريفة، مازن البندك، سليمان الشرفا، عصام الغصين، محمود دولة، عبدالمحسن أبو ميزر، هشام مخلص عمرو، عصام الناظر، عبدالرحمن العناني، محي الدين الفرا، قاسم صُلح الآغا، سليمان الآغا، حسن صرصور، علي السيد، إسماعيل بصلة، زكريا برزق، إبراهيم إسطمبولي، معاذ عابد، سليمان أبو كرش، خضر حرز الله، جواد السقا، سليمان الجاروشة، مفيد ترزي، عبدالله ترزي، رجاء ترزي، وديع الصايغ، حكمت العلمي، تحسين البورنو، اكرم خيال، سليم العباسي، عدنان علم الدين، عبدالله عثمان، داود عباس، محمد أبو الفتح، محمود الطيب.

مع الجيش البريطاني في قناة السويس

في فترة امتحانات التوجيهي حدثت للأسف مشكلة عائلية، اضطر على إثرها أخي هاشم إلى السفر لمصر والعمل في معسكرات الجيش البريطاني في قناة السويس، وكان من نتيجتها أنني لم أوفق في امتحان اللغة الإنجليزية. ومن فرط يأسي قررت اللحاق بأخي هاشم، وحصلت على تكاليف الرحلة من الوالدة، وركبت القطار من محطة خان يونس إلى مدينة الإسماعيلية، ومنها ركبت القطار المتجه إلى مدينة السويس، ونزلت عند محطة «جنيفة» حيث فوجيء أخي بوصولي، واستهجن ذلك، لأنه لم يسبق لي أن جئت إلى مصر، ولم تطأ قدماي الأراضي المصرية من قبل، فيما عدا رفح المصرية، واستغرب كيف تحملت المشقة حينما قطعت المسافة – التي لا تقل عن خمسة كيلومترات – بين محطة جنيفة والمعسكر البريطاني حاملاً حقيبة ملابسي، والطريق موحشة مقفرة، والأرض مجدبة قاحلة، وليس معي من يدلني على المكان الذي أقصده.

كان رأي أخي أن التحق مثله بالعمل وأنسى الالتحاق بالجامعة، فوافقته، وبعد ثلاثة أيام كنت في العمل حيث كان مدير المكتب شخصاً إنجليزياً اسمه (Sparrow) والذي عاملني بسبب صغر سني معاملة أبوية. وكان معظم العاملين في المكتب من اليونانيين المقيمين بمصر، وجميعهم يكبرونني سناً.

ذهبت مع أخي في أحد أيام نهاية الأسبوع إلى مدينة الإسماعيلية، وجلسنا في مقهى لتناول الشاي، وكان بجانب المقهى مدرسة، فإذا بي أشعر بحنين قوي إلى التعليم ومواصلة الدراسة، فقمت على الفور واشتريت ورقاً ومظروفاً، وسطرت رسالة مؤثرة إلى مدير عام الإمتحانات بوزارة التربية والتعليم (كان اسمها وزارة المعارف)، أشكو إليه وضعي، واطلب منه السماح لي بتقديم امتحان اللغة الإنجليزية في الدور الثاني الذي كان مقرراً بعد شهر ونصف تقريباً، ووضعت على الرسالة عنواني. ولحسن الحظ استجاب المدير لمطلبي وأخبرني أن بإمكاني تقديم الإمتحان في المدرسة الثانوية بمدينة الزقازيق في موعد الدور الثاني الذي حدده في الرسالة، فسررت كثيراً، وتبين لي فيما بعد أن هذه الرسالة غيّرت مجرى حياتي.

لم أكن أملك كتباً في مقرر اللغة الإنجليزية كي استعد للامتحان، فاعتمدت على ما كنت قد درسته من قبل وأنا في قطاع غزة. كان عملي في الجيش الإنجليزي كتابياً،

أسجل على بطاقات خاصة أسماء المعدات وقطع الغيار الموجودة في المخازن. وفي وقت الفراغ كنت أتسلى برسم خريطة فلسطين، وأحدث زملائي في المكتب عن فلسطين وقضيتها فأشعر بتعاطفهم نحوي وحزنهم على ما تعرض له الشعب الفلسطيني من نكبات، كان آخرها نكبة عام ١٩٤٨ والرحيل عن الأوطان. وفي المساء كنا نحضر احياناً تجمعات الفلسطينيين وأشعر بالحنين للوطن وهم يؤدون رقصة الدبكة، وينشدون الأناشيد الحماسية والأغاني الوطنية.

كان راتبي الشهري اثنا عشر جنيهاً مصرياً، وهو راتب جيد آنذاك استطيع الإدخار منه، ومساعدة الأهل بخان يونس . وكان الجنيه المصري أقوى من الجنيه الإسترليني الذي كان يساوي آنذاك ٩٧,٥ قرشاً مصرياً، بينما الجنيه المصري يساوي ١٠٠ قرش والقرش يساوي عشرة مليمات. وكان المليم لا يزال متداولاً.

سافر أخي هاشم لزيارة الأهل بخان يونس، وبقيت وحدي، وكنت أقضي بعض الأمسيات مع شباب من العريش يعملون في المعسكر نفسه وهم فيما اذكر «حلمي البُلك». وقد تعرفت آنذاك على شخص اسمه «رشاد الشريف» كان يتميز بالفصاحة والخطابة ويتمتع بشخصية قيادية ويحترمه الجميع. ويعدونه مرجعهم في كثير من أمورهم، وكنت أعده بمثابة أخي الكبير. وتشاء الأقدار أن التقي بهذا الشخص في عمّان حيث كان يعرف باسمه «محمود الشريف» وكان في سبعينيات القرن الماضي وحتى وفاته في ١٧/٢/٢٠٠٣ من أبرز رواد الصحافة والإعلام في الأردن وأعمدتها. وكانت علاقتي به وثيقة وحميمة إلى أن توفاه الله، ففقدت بوفاته أخاً كبيراً مخلصاً ووفياً.

ذهبت في يوم جمعة في أوائل شهر تشرين أول/ أكتوبر إلى الإسماعيلية، وانتظرت قدوم القطار من غزة لأستنشق من نسمات الوطن الحبيب الذي ازددت حنيناً إليه، واشتياقي له. وكانت مصادفة جميلة، وعلى غير ما توقعت، ذلك أنني رأيت في القطار عدداً من زملائي الطلبة، متوجهين إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة، فسررت بلقائهم غاية السرور، وسألتهم عن وضعي، فقالوا لي بأن والدي أرسل أوراق التحاقي بالجامعة مع إبن العم محيي الدين عبدالمالك الفرا، الذي سبقهم إلى القاهرة.

عدت إلى عملي، بمعسكر جنيفة، تنتابني مشاعر مختلطة من الفرح والحزن والقلق والحيرة. لقد فرحت بأن الوالد وأخي هاشم بذلا جهوداً في إدراج إسمي ضمن الطلبة المبعوثين للدراسة بمصر، ونجحت مساعيهما رغم بعدي عن القطاع، وفي الوقت نفسه، حزنت لأنني لم أكن مع هؤلاء الزملاء الذاهبين للقاهرة للالتحاق بالجامعة، وكنت قلقاً

لأنني شعرت بأن الوقت ليس في صالحي فالدراسة قد بدأت في الجامعة، والتسجيل قد انتهى أو ربما أوشك على الانتهاء. وكنت حائراً لا أدري ماذا أفعل.

صليت العشاء ونمت على وضوء، ودعوت ربي، وتوّسلت إليه أن يحقق أمنيتي بدخول الجامعة. وواظبت على ذلك عدة ليالي، وكنت كلما سمعت عن بداية العام الجامعي، وانتظام الطلاب في كلياتهم واستئناف الدراسة ينتابني القلق والحزن والألم، وأشعر بأن مستقبلي ضاع، وفرصتي وآمالي بدخول الجامعة تبخرت، وكثيراً ما كنت أتقلب في الفراش وقد جافاني النوم وغلبني الأرق، وبدت لي الدنيا مدبرة، والأبواب موصدة، ولكنني لم أفقد الثقة بنفسي ولا الإيمان بربي. وكنت كلما أنتابني الضيق والحزن والقلق أقرأ ما تيسير من القرآن الكريم، فتستريح نفسي ويطمئن قلبي وتزداد ثقتي بنفسي وإيماني بربي، فالله سبحانه وتعالى يقول: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين».

وفي ليلة من ليالي أواخر شهر تشرين أول/ أكتوبر عام ١٩٥٠م، رأيت في المنام والدي يناديني ويسألني لماذا لم استلم أوراقي الجامعية التي أرسلها لي مع ابن العم محيي الدين، وكنت قد علمت بأنه يسكن الجيزة.

صحوت من النوم مذعوراً، وقررت السفر إلى القاهرة، ولم أكن اعرفها، ولم يسبق لي أن سافرت إليها، ووضعت ملابسي في حقيبة، وركبت القطار من محطة جنيفة إلى مدينة الإسماعيلية حيث ركبت القطار المتجه إلى القاهرة التي وصلتها مساء. وهناك سألت عن الجيزة أين هي، وكيف الوصول إليها، فضحكوا عليّ واستهزأوا بي قائلين: إن الجيزة مدينة كبيرة، وأن عليّ أن أعرف الشارع والحي الذي أريده، ودلوني على الترام الذي يبدأ تحركه من باب الحديد حيث محطة قطارات القاهرة وينتهي في الجيزة، وأذكر أن رقمه كان ١٥.

ركبت الترام، وكان بطيء التحرك كثير التوقف، وكنت أسأل «الكمساري» كلما توقف الترام: هل وصلنا حتى ملّ من تكرار السؤال. وقال حينما يتوقف الترام، تماماً وينزل جميع الركاب، نكون قد وصلنا. وفعلاً توقف الترام في نهاية المطاف في ميدان الجيزة، ووقفت مشدوهاً وحائراً لا أدري ماذا أفعل.. وشعرت ولأول مرة في حياتي أنني في موقف صعب وحرج للغاية فالليل قد ألقى ستائره فيما عدا مصابيح الميدان والشوارع، فمشيت على غير هدى، وإذا بي وللمصادفة العجيبة أرى «موسى أبو ستة» فتنفست الصعداء وحمدت الله الذي بعثه في طريق لينقذني مما أنا فيه من ضياع، ويفرج كربي، ويسهل أمرى. وقادني إلى أن أوصلني إلى الشقة التي كان فيها أبناء

عمومتي وبخاصة محيي الدين وصبري حيث قضيت الليلة عندهم لأبدأ النضال من أجل دخول الجامعة التي انتهى موعد التسجيل والقبول فيها وباشر الطلاب الدراسة منذ شهر. وكان الجميع يعتقد أن الأمل ضعيف في قبولي في ذلك العام.

كانت رغبتي أن أدخل كلية الحقوق، ولكن نتيجة خطأ غير مقصود من أخي هاشم الذي قام بتعبئة أوراقي الجامعية، وهو في أثناء زيارته للأهل بقطاع غزة، فبدلاً من أن يكتب أمام خانة الكلية كلمة الحقوق كتب كلمة الآداب، ظاناً أن ذلك تخصصي وهو الآداب وليس العلوم، في شهادة التوجيهي. ونظراً لضيق الوقت، ولأن التغيير أو التصويب يحتاج إلى وقت طويل، وأن الجامعة اقفلت باب التسجيل والقبول، فقد فضلت بذل المساعي لدخول كلية الآداب. وكان يرافقني طالب في قسم الجغرافية اسمه «أحمد الأحرف» مصري، وهو شقيق زوجة العم عبدالرحمن محمد الفرا، رئيس بلدية خان يونس، وعميد عائلتنا.

واعترف أنه لولا جهود الآخ «أحمد الأحرف» رحمه الله لما كنت دخلت الجامعة، فقد أخذني إلى رئيس قسم الجغرافية الدكتور «محمد عبدالمنعم الشرقاوي بك»، الذي كان صاحب قلب كبير ورحيم، فقدر ظروفي وأوضاعي. وكان التعاطف مع الفلسطينيين بسبب نكبتهم آنذاك كبيراً. واعترف بأن جميع المسؤولين في كلية الآداب، وعلى رأسهم الأديب العالم والمؤرخ الدكتور «زكي حسن بك»، عميد كلية الآداب، تعاطفوا معي. ولا أنس أيضاً تعاطف مسجل الكلية، واسمه «عباس»، ولكنهم اشفقوا عليّ لأن الطلبة كانوا قد قطعوا شوطاً لا بأس به في الدراسة، فوعدتهم بأني قادر ببذل المزيد من الجهد على اللحاق بهم، وتعويض ما فاتني من الدروس والمحاضرات، وهذا ما حدث فعلاً.

في القاهرة

كانت القاهرة بالنسبة لي عالماً جديداً لم أعهده من قبل، يختلف كل الاختلاف عن العالم الضيق المحدود والمحافظ الذي ألفته واعتدته وعشته في قطاع غزة. فالحياة في القاهرة تتميز بالحركة والحيوية والنشاط، لا تتوقف في الليل أو النهار. وفي القاهرة تنوعٌ في الحياة، يناسب كل شخص حسب ميوله واتجاهاته وسلوكياته، ففيها اللهو والطرب، وفيها الجد والهزل، وفيها التدين والتعبد، وفيها المرح والترح، وفيها التزهد والتصوف والتقوى، وفيها الخلاعة، والفسق والفجور. وقد صدق من قال «مصر أم الدنيا»، لأنها تجمع جميع الألوان والأشكال، وتضم المتناقضات.

كان عدد سكان مصر آنذاك تسعة عشر مليوناً فقط، ولم تكن القاهرة مزدحمة بسكانها، كما هو حالها اليوم، كنا نسير في الشوارع بسهولة، ونركب الباصات، ونجد المقاعد التي نجلس عليها، ونستقل الترام بدون مشقة، ونستمتع، وهو يقطع بنا الشوارع، فنشاهد المحلات التجارية، والناس يسعون لكسب أرزاقهم، ويتبادلون تحيات الصباح أو المساء، ويتبارون في إطلاق النكات التي تميز بها المصريون عن سواهم، وبها يعبرون عن أحوالهم وأوضاعهم، ومنها يمكننا الحكم على سرعة بديهيتهم، وظرف قفشاتهم. والمصريون بسطاء كرماء، يحبون الغريب ويألفونه، ولا يبخلون في تقديم النصح والمعونة والمساعدة له.

كان انبهاري بالقاهرة عظيماً، فلم يسبق لي أن شاهدت مدينة كبيرة في حجمها وضخامتها وعظمتها واتساعها وامتداد أحيائها، وطول شوارعها. فمن قبل كنت منبهراً بمدينة يافا ومينائها الجميل المطل على البحر. وكنت استمتع وأنا اجلس في مكان بشاطيء الشباب في الجنوب، حيث أمواج البحر تتقدم لتغسل اقدام المدينة، وصوت هدير البحر، وكأنه يروي تاريخها العريق منذ بناها أجدادنا الكنعانيون في الماضي البعيد. وبعد ذلك إنبهرت بمدينة القدس حينما زرتها لأول مرة في عام ١٩٤٦ مع أخي المرحوم هاشم، حيث لفت نظري فخامتها وأناقتها ونظافتها، وجمال عماراتها وبناياتها المشادة من الحجر القدسي الوردي الجميل، وشعرت بهيبة أماكنها الدينية المقدسة وجلالها، كالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة.

لما زرت القاهرة. تضاءلت في نظري يافا والقدس. وبدت لي القاهرة مدينة لا تعادلها، ولا تساويها غيرها من حيث الضخامة والفخامة والعظمة، فالعمارات عالية شاهقة وكأنها

تطاول السماء، وتناطح السحاب. وهذا ما بدا لي عندما شاهدت بناية «الإيموبيليا» في وسط القاهرة، وكانت أعلى عمارة في مصر آنذاك.

شوارع القاهرة نابضة بالحياة، والحركة فيها دائبة وباستمرار، والعمل في المحلات دون انقطاع، والمطاعم والمقاهي عامرة بروادها، والملاهي ودور السينما تعمل بلا توقف، وتعج المسارح في المساء بالنشاط، والكبريهات يقصدها عشاقها في الليل. وعلى ضفاف نهر النيل الذي يفصل القاهرة عن الجيزة ترى الناس من كل شكل ولون، يتسامرون ويتسلون، وفي الساحات والميادين والحدائق يذهب الكثيرون لقضاء بعض أوقات الفراغ.

وفي ميدان العتبة حيث وسط القاهرة وقلبها النابض، ترى الناس من كل الأجناس والأشكال والألوان قادمين من المدن والأرياف. وتشاهد الباعة يعرضون بضائعهم وسلعهم. ومن العتبة تسير في شارع الموسكي حيث المحلات التجارية العريقة والقديمة حتى تصل الأزهر الشريف وحي الحسين، فترتاح النفس حينما تشعر وكأنها تزودت بشحنة روحية دينية. وتشاهد الجموع الغفيرة وهي تصلي في المسجد، وتتمسّح بالمقام الشريف، تبركاً وتحبباً وتقرباً إلى الله تعالى.

بالقرب من الأزهر ومسجد الحسين، كنت أشعر بالسعادة، وأنا أتجول في أحياء مصر الشعبية وأزقتها وأسواقها القديمة، فاشم فيها عبق التاريخ، وعظمة الماضي، وألمس بساطة الناس، وسماحتهم وطيبتهم، وحسن تعاملهم ولطفهم مع الغريب وإكرامهم له.

غير بعيد عن ميدان الإسماعيلية والذي أصبح اسمه بعد الثورة «ميدان التحرير» وعلى يمين شارع القصر العيني، وأنت ذاهب إلى مستشفى قصر العيني الذي كان يتدرب فيه طلبة كلية الطب بجامعة فؤاد الأول، يقع حي «جاردن ستي» الراقي الجميل والأنيق، الذي كان يسكنه آنذاك الأثرياء والموسرون وكبار الشخصيات وذوو النفوذ والسلطان، ومبانيه مستقلة «فلل». ولا يضاهيه في الجمال والأناقة إلا حي الزمالك الواقع بين كوبري «أبو العلا» وكوبري «إمبابة». وللأسف فقد تغيرت معالم هذين الحيين الراقيين، فهُدمت «الفلل» وبنيت بدلاً منها عمارات استثمارية ضخمة، وبدت وكأنها غابة من المباني المتلاصقة.

لم تبهرني القاهرة بضخامتها وفخامتها فقط، وإنما أيضاً بمعالمها التاريخية كالمساجد التي لكل واحد منها تاريخه وماضيه، وبما حوته من متاحف متنوعة، منها ما يختص بتاريخ مصر في العهد الفرعوني، ومنها ما يحكي تاريخ مصر في العهد اليوناني والبطلمي والروماني، ومنها ما يتخصص في التاريخ القبطي، ومنها ما يتضمن معالم الحضارة العربية والإسلامية.

لقد أعجبتني القلعة التي بناها صلاح الدين الأيوبي على حافة جبل المقطم، ولذلك سميت «قلعة الجبل». ولما اتخذها «محمد علي باشا» مقراً لحكمه الذي بدأ في عام ١٨٠٥، سُميت «قلعة محمد علي». وتشرف هذه القلعة على القاهرة وتطل عليها وتراقبها، وكأنها تتولى حراستها. وحينما زرتها تذكرت البريد السلطاني الذي يحمل قرارات حكام مصر وسلاطينها منذ عهد صلاح الدين حتى دمشق وحلب في بلاد الشام، التي كانت تابعة لمصر. وكان هذا البريد السلطاني يُحمل ضمن حراسة عسكرية خوفاً من هجمات اللصوص والأعراب، ويتوقف في محطات وخانات وقلاع حصينة يستريح فيها المسافرون. ومن هذه القلاع أو الخانات قلعة خان يونس مسقط رأسي، والتي سبق ذكرها في بداية الكتاب.

في قلعة الجبل بنى «محمد علي باشا» جد الأسرة العلوية التي حكمت مصر منذ عام ١٨٠٥ – أي منذ عهد محمد علي نفسه – وحتى الملك فاروق آخر هذه السلالة، والذي أطاحت به ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢، مسجداً جميلاً على النمط المعماري التركي.

غير بعيد من القلعة يقع مسجد الرفاعي حيث مدافن أفراد الأسرة العلوية المالكة، التي تتميز بقبورها الفخمة والضخمة وشواهدها التي سجلت عليها تاريخ من يرقد في كل قبر.

لم تكن القاهرة آنذاك – أي حينما قدمت إليها أول مرة في عام ١٩٥٠ – قد عرفت التلوث كما تعرفه الآن، فيما عدا التلوث الطبيعي المتمثل في الرمال والغبار الذي تحمله رياح الخماسين التي تهب من الصحراء المحيطة بالقاهرة في أواخر الربيع وأوائل الصيف، لقد كان هواء القاهرة نقياً إلى حد كبير.

لا استطيع في عجالة كهذه أن أفي القاهرة حقها من الوصف، فذلك يحتاج إلى كتب ومجلدات، ولكنني وددت أن أعبر في هذه الكلمات عن انطباعاتي الأولى حينما جئت إليها طالباً للعلم، مسجلاً ما جال بخاطري بمجرد أن وطئت قدماي أرضها، وسرت في شوارعها واحيائها.

لم يكن انبهاري بالقاهرة وحدها، وإنما انبهرت أيضاً حينما ذهبت إلى جامعة فؤاد الأول لألتحق بها، فوجدت نفسي أقف مبهوراً أمام مباني الجامعة، فشعرت وأنا بداخلها بمهابة ورهبة وخشوع. فهذه المباني تجمع بين الفخامة والبساطة والجمال وروعة التصميم ومهارة البناء. فأول ما يواجه الداخل إلى الجامعة بوابتها الضخمة الحديدية وعليها كتب بحروف بارزة «الجامعة المصرية». وعند هذا الباب مقصورة لحرس الجامعة بزيهم الرسمي

الأنيق. وبجانب المقصورة مكتب للبريد. وتدخل من البوابة فإذا أنت في ساحة واسعة مغروسة بالأزهار والشجيرات، وتبدو لك وكأنها بساط موشى بألوان جذابة جميلة. وعلى يمين الساحة مبنى كلية الآداب الذي تبرعت ببنائه الأميرة «فاطمة» إبنة الخديوي إسماعيل، حفيد محمد علي باشا، كما هو مسجل على مدخل الكلية. وعلى يسار الساحة تجد مبنى كلية الحقوق التي درس فيها، وتعلم كبار رجال القانون في مصر والبلاد العربية. وأمام الساحة تطل قبة الجامعة ومبناها الجميل الذي تصعد إليه بدرج واسع فسيح يوصلك إلى مكتب مدير الجامعة ومكاتب الإدارة العامة.

على يمين القبة ومبنى الإدارة العامة برج مثبت في أعلاه ساعة ضخمة أشبه بساعة «بج بن» الشهيرة بلندن، وكأنها عملت على نمطها، يصدر عنها كلما دقت نغمات موسيقية جميلة. وإلى الخلف من الساعة والقُبة، مباني كليتي العلوم والتجارة.

شعرت وأنا أدخل الجامعة بالبهجة والسرور والانشراح، وشكرت الله الذي يسرّ لي الالتحاق بهذا الصرح العلمي الراقي والعريق والذي لم يكن له مثيل في المنطقة العربية بأسرها.

جامعة فؤاد الأول

كان في مصر قبل عام ١٩٥٠ جامعتان حكوميتان فقط هما: جامعة فؤاد الأول، ومقرها في الجيزة إلى الجنوب الغربي من القاهرة والتي يفصلها عنها نهر النيل. وتعد الجيزة أول مديريات الصعيد من جهة الشمال. ونظراً لاتصال العمران بين القاهرة والجيزة، فإن من لا يعرف جغرافية مصر، يظن بأن الجيزة جزء من القاهرة.

تغير اسم جامعة فؤاد الأول بعد ثورة ٢٣ تموز / يوليو ١٩٥٢ ليصبح «جامعة القاهرة». وهذه ليست المرة الأولى التي تغير فيه أسمها، فقد كان اسمها حين إنشائها جامعة أهلية في عام ١٩٠٨ «الجامعة المصرية». وكان هذا الاسم ظاهراً بشكل نافر على باب مدخل الجامعة حينما دخلتها. وفي عام ١٩٢٥ تحولت إلى جامعة حكومية، وأطلق عليها «جامعة فؤاد الأول» تيمناً باسم فؤاد ملك مصر آنذاك، والذي توفي في عام ١٩٣٦، وخلفه على العرش ولده «فاروق» الذي في عهده قامت الثورة وعزلته.

امّا الجامعة الثانية فكان اسمها «جامعة فاروق»، تيمناً بالملك فاروق الذي أنشئت في عهده. وقد تغير اسمها بعد الثورة مباشرة إلى «جامعة الإسكندرية».

في عام ١٩٥٠، وهو العام الذي التحقت فيه بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، أنشئت جامعة ثالثة اسمها «جامعة إبراهيم باشا»، تيمناً باسم «إبراهيم باشا» الذي حكم مصر في أواخر أيام والده «محمد علي باشا»، الذي توفي عام ١٨٤٨. وقد تكونت هذه الجامعة من معاهد وكليات متفرقة كانت قائمة. وفي الوقت نفسه بدأ التفكير والتخطيط لإنشاء جامعة رابعة في مدينة أسيوط بالصعيد اسمها «جامعة محمد علي الكبير»، تيمناً باسم «محمد علي باشا» جد الأسرة الحاكمة في مصر آنذاك. وقد تأخر إنشاء هذه الجامعة إلى ما بعد قيام الثورة ببضع سنين، وهي التي تسمى حالياً «جامعة أسيوط». وكان أول رئيس لها استاذنا العالم الجغرافي الأستاذ الدكتور «سليمان حُزيِّن».

في عام ١٩٥٠ احتفلت جامعة فؤاد الأول «باليوبيل الفضي»، أي بانقضاء خمس وعشرين عاماً على إنشائها كجامعة حكومية. وقد شهدت هذا الاحتفال، وكان ضخماً ورائعاً، وحضره الملك فاروق. وشاركت في الاحتفال وفود رسمية عالمية ضمت شخصيات جامعية وعلمية رفيعة المستوى. ومما لفت انتباهي آنذاك الترتيب «البروتوكولي»، إذ تقدم أساتذة الجامعة على الباشوات. وكان من بين هؤلاء الأساتذة من يحمل رتبة الباشوية، وهذا يدل على ما كان يتمتع به أستاذ الجامعة في ذلك الوقت

من تقدير واحترام، وما يحظى به من مهابة. وكنت أشعر باحترام الجميع للجامعة: أساتذة وطلاباً، وقد لمست هذا كلما قدمت نفسي بأني طالب بجامعة فؤاد الأول، فكنت أحظى بالتقدير والاحترام. وحينما أتذكر ذلك وأقارن وضع جامعاتنا اليوم وأساتذتها وطلابها أشعر بالألم والحسرة. ويزداد ألمي وتشتد حسرتي بعد قيام جامعات أهلية على أسس تجارية، يتحكم فيها أشخاص بعيدون كل البعد عن العلم والتربية والتعليم، وليس لمعظمهم مؤهلات غير أموال استطاعوا بها إنشاء جامعات ربحية، وينظرون إلى الجامعة كاستثمار مغري فقط. ولولا رقابة وزارات التعليم العالي وإشرافها وما تضعه من معايير وضوابط لتحولت هذه الجامعات إلى ما يشبه «السوبر ماركت».

محمد علي الفرا بالسنة الأولى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول بالقاهرة.

وقد كانت لي تجارب مريرة مع بعض هذه الجامعات، مما زهدني فيها، وجعلني استقيل منها مبكراً، رغم قدرتي على العطاء، وحبي للتدريس، وتعلقي بالعمل الأكاديمي، وحبي للطلبة، وفضلت الاشتغال بالكتابة والتأليف، واتخذت منهما منبراً أخاطب به المجتمع، وأساهم في التعامل معه كبديل عن منبر الجامعة، التي هوت - للأسف - مكانتها، وفقدت الكثير من هيبتها. لقد شعرت حينما استقلت باحترامي لنفسي، وتقديري لذاتي، سائراً على خطى أساتذتي الذين تلقيت على أيديهم العلم والأنفة والترفع والكبرياء واحترام الذات. ولا زلت أذكر هؤلاء الأساتذة الكبار الذين أطلق عليهم «جيل العمالقة» بالخير، أمثال: «طه حسين»، و«أحمد أمين»، و«زكي نجيب محمود»، و«لويس عوض»، و«عثمان أمين»، و«أمين الخولي»، و«محمد عوض محمد».

كان مدير الجامعة يوم التحاقي بها الأستاذ الدكتور «كامل مرسي باشا»، وهو رجل قانون ضليع، معتد بنفسه، واثق بشخصه، حريص على استقلالية الجامعة وكرامتها ونزاهتها. أمّا عميد كلية الآداب، وهي الكلية التي التحقت بها فكان الأستاذ الدكتور «زكي حسن بك»، وهو عالم في التاريخ والآثار، وقد سبق ذكره.

كنت أشعر بالسعادة حينما أحضر محاضرات كبار الأساتذة الذين طالما سمعت عنهم، أو قرأت لهم. وكانت سعادتي لا توصف حينما حضرت محاضرة لعميد الأدب العربي «طه حسين». وكان يحاضر بلغة عربية سليمة وبأسلوب رائع. ولم أسمع في حياتي أجمل من إلقائه، فقد كان يتأنى في كلامه، يعطي كل كلمة حقها، بحيث تخرج من فمه وكأنها نغمة موسيقية تُطرب سامعها. لقد حببني «طه حسين»، إلى اللغة العربية فعشقها، وحاولت تقليد القائه ومحاكاته.

كان «طه حسين» يجلس ويشبك يديه ويضعهما أمامه على المكتب وهو يحاضر، وبجانبه سكرتيره الخاص واسمه فيما أذكر «فريد شحاتة». وحينما أتذكر تلك الأيام، فإني افتقد الآن جمالها.. يا لها من أيام جميلة.

لن أنسى عدداً من الأساتذة الذين سمعت لهم وحضرت محاضراتهم، وكانوا كما سُمّوا فيما بعد «جيل العمالقة» الذين وضعوا أسس الفكر والأدب والعلم والثقافة في وطننا العربي أمثال «أحمد أمين»، وكان عالماً ومحققاً ومدققاً ومؤلفاً، ولعل من أشهر مؤلفاته: «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام»، والتي لا تزال مراجع قيمة في موضوعاتها.

كان من أعلام اللغة العربية الذين التقيت بهم آنذاك الشيخ «أمين الخولي»، والنحوي «مصطفى السقا». ومن أعلام المنطق لا زلت أذكر «زكي نجيب محمود» الذي تشرفت فيما بعد بزمالته حينما عملت أستاذاً بجامعة الكويت في سبعينيات القرن الماضي. وكذلك لن أنس أستاذ الفلسفة الإسلامية «محمد عبدالهادي أبو ريدة» وقد تشرفت أيضاً بزمالته بجامعة الكويت.

في قسم الجغرافيا الذي التحقت به كان أعجابي شديداً بالدكتور «محمد عوض محمد»، الذي كان عالماً جغرافياً وأديباً كبيراً. وقد سار على نهجه أستاذنا الدكتور «محمد محمود الصياد»، الذي كان هو الآخر شاعراً وأديباً.

وفي اللغة الإنجليزية التقيت بالدكتور «لويس عوض» أحد مفكري مصر البارزين، وبالدكتور «رشاد رشدي» الذي درسني اللغة الإنجليزية، وقيل أنه كان من أسرة أرستقراطية، ووالده «حسين رشدي باشا» رئيس وزراء مصر في عام ١٩١٤ و١٩١٩.

وكانت زوجته «لطيفة» الزيات، تعمل معه في القسم، وهي من الشخصيات النسائية الوطنية المعتزة بعروبتها. وما أكثر ما كنت ألقى الدكتور «علي عبدالواحد وافي» وكيل كلية الآداب، ومؤسس قسم علم الاجتماع في كلية الآداب وفي العالم العربي. وفي قسم التاريخ كان «شفيق غربال» شيخ المؤرخين، وتلميذ فيلسوف التاريخ المعروف «آرنولد توينبي» البريطاني الجنسية. وكان من أساتذة التاريخ البارزين آنذاك «عبدالحميد العبادي».

حينما التحقت بالجامعة، سكنت في شقة مع أولاد العم «صبري»، و«محيي الدين»، و«طه» بالجيزة. وكنت أفضل السير إلى الجامعة مشياً على الأقدام ماراً بكلية الزراعة، وحديقة الحيوانات، والمدرسة السعيدية. ولما انتقلنا إلى حي «الدقي» ثم «العجوزة» واصلت الذهاب للجامعة سيراً على الأقدام، كي استمتع بالمرور من حديقة «الأورمان» التي كنت أجلس فيها لاستنشق الهواء المنعش، وأشعر بالسعادة بمشاهدة الأزهار الجميلة.

بصفتي عضو في أول بعثة فلسطينية أرسلتها الإدارة المصرية بفلسطين للدراسة بالجامعات المصرية، فقد كنت أتقاضى إعانة شهرية، مقدارها ستة جنيهات مصرية، يخصم منها الرسوم والطوابع، فتصبح القيمة الصافية نحو خمسة جنيهات وخمسة وثمانون قرشاً، وتُعطى في شهور الدراسة فقط، أي من شهر تشرين أول/ أكتوبر، وحتى حزيران/ يونيو – تسعة شهور – وتقطع في فترة العطلة الصيفية. وهي لا تكفي جميع المتطلبات، من مأكل ومسكن ومواصلات، وكتب وغيره، ولكنها كانت أساسية، إذ لولاها لما تمكن معظم الطلاب من الإلتحاق بالجامعة ومواصلة التعليم. وكنا نُعفى من الرسوم الجامعية رغم قلتها.

لقد كانت تكاليف المعيشة في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي زهيدة، والحياة بسيطة، والسلع والحاجيات رخيصة. فعلى سبيل المثال كان إيجار الشقة التي أستأجرناها مع أولاد العم في حي «الدقي»، الذي كان راقياً آنذاك، نحو ستة جنيهات مصرية في الشهر. ولما انتقلنا إلى حي «العجوزة» الذي كان قد أنشىء حديثاً، أصبحنا ندفع ثمانية جنيهات شهرياً أجرة الشقة. وكنا نشتري الفول (المدمس) من البائع المتجول الذي يدفع عربة الفول بيده، فيملأ لنا وعاءً اسمه «كسرولا» بقرش أو بقرش ونصف. و«الكسرولا» هي طنجرة صغيرة لها يد طويلة تُمسك بها. وكان كل قرش يساوي عشرة مليمات. وكنا نشتري ربطة «الفجل» بمليمين فقط. وكان رطل اللحم «البتلو» أي العجل الرضيع، بعشرة قروش (الجنيه المصري يساوي مائة قرش)، والرطل المصري

يساوي نحو ٤٥٠ غراماً، والكيلو الواحد يساوي ٢,٢٠٤ رطلاً. أمّا الخضار، فكانت رخيصة جداً، فعلى سبيل المثال فإن رطل البندورة (الطماطم) بنصف قرش «تعريفة»، أي خمس مليمات.

أما الملابس فكانت رخيصة أيضاً، إذ يمكن شراء الجاكيت مع البنطلون بستة جنيهات، والحذاء بجنيه واحد أو أقل. ولا أنس يوم أن ذهبت مع العم «عبدالرحمن الفرا» إلى محلات الطرابيشي الشهيرة بشارع «فؤاد» لشراء حذاء ماركة «ساكسن» (Saxon) من صنع بريطانيا، فذهلنا انذاك لأن ثمنه ستة جنيهات،ولكن كان لا بد من شرائه لأن التشريفات في القصر الملكي، حددت للعم الذي دُعي لحضور حفل زفاف الملك فاروق وناريمان في ٦/٥/١٩٥١، نوع الملابس (بدلة سموكنج وحذاء ساكسن أسود).

كنت على علاقة طيبة مع أساتذتي في قسم الجغرافية، وعلى رأسهم رئيس القسم الدكتور «محمد عبدالمنعم الشرقاوي بك» الذي كان يعاملني معاملة أبوية. وكان يتميز بالطيبة وله أسلوبه الخاص في تدريس الجغرافية السياسية. أما الدكتور «محمد متولي موسى» الذي زاملته فيما بعد بجامعة الكويت، فقد درسني مادة الجيمورفولوجيا، في حين درسني الدكتور «أحمد إبراهيم رزقانة» جغرافية الأجناس.

وكان الدكتور «بهي الدين الحفني» يدرسنا الجغرافية الإقليمية، ولكنه لم يمكث طويلاً، فقد عاد مع زوجته الأميركية إلى الولايات المتحدة الأميركية. وفي السنة الرابعة درست جغرافية المدن على يد الدكتور «جمال حمدان» العالم المعروف.

كانت علاقتي بزملائي الطلاب ممتازة وكانوا يبادلونني المودة والمحبة والاحترام ويعجبون بحسن اختياري لملابسي على الرغم من بساطتها، ويشيدون بأناقتي، وبخاصة الطالبات اللاتي كن يتقربن مني، ولكنني، كما يقول المثل، كنت في وادٍ وهن في وادٍ آخر، فلم أبد أي ميل أو تودد إليهن رغم تقربهن مني. لم أكن مهيئاً آنذاك للحب أو الزواج، فقد كنت مسكوناً بنكبة شعبي التي لم يكن قد مضى عليها سنتان. وقد كان الأهل كسائر الناس في قطاع غزة، في ضيق وشدة ويعانون من سوء الأحوال، فالفقر كان منتشراً، والبطالة متفشية، ومع ذلك، كان الأمل بانفراج الحال كبير، والثقة عالية، وأن النصر قادم.

كان همي الأول أن أتخرج سريعاً لأعود، وأعمل في القطاع، وأعول أسرة كبيرة مكونة من أبي وأمي وأخوة وأخوات. وهذا وحده كان كافياً لإبعادي عن الحب والزواج المبكر. وكان – أيضاً – سبب عدم محاولتي السعي اللازم لإكمال دراستي العليا في الولايات المتحدة الأميركية حينما رشحوني لأكون مبعوثاً على نفقة مؤسسة «فلبرايت».

لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر في أثناء الدراسة من أجمل أيام عمري، فقد أحببت مصر والمصريين، وكنت محباً للأسفار، وشاركت في كثير من الرحلات التي قام بها قسم الجغرافية، وأقسام كلية الآداب الأخرى، فزرت مدن الصعيد، وشاهدت آثار مصر ومعالم حضارتها العظيمة في منطقة الأهرامات بالجيزة، وفي مدينة «قنا» حيث معبد «دندرة»، ومدينة «الأقصر» حيث وادي الملوك والكرنك وآثار أخرى. ثم مدينة أسوان ومنطقة السد وجزيرة «فيلة»، وغير ذلك من أماكن سياحية وأثرية. وزرت جميع مدن قناة السويس وقراها، ومدن منطقة الشرقية وقراها، وزرت الإسكندرية وما حولها، كما زرت منطقة الفيوم وقراها. وكذلك محافظات البحيرة والقليوبية والمنوفية، ومدناً مثل بنها وطنطا. وكان كثير من المصريين لا يعرفون عن بلادهم كما أعرف، ولم يزوروا معظم المدن والقرى المصرية التي زرتها. وكنت أتقن اللهجة المصرية، حتى ظنوا بأني مصري. ولا زلت حتى اليوم استخدم – دون أن أشعر – كلمات مصرية، جعلت كثيراً من الناس الذين لا يعرفونني يظنون بأنني مصري أو من أصول مصرية.

كانت مصر في تلك الفترة غنية بعلمائها وأدبائها ومفكريها وسياسييها، فاصبحت قبلة العرب، ومركز الثقل في المنطقة، وشهدت مصر آنذاك تيارات فكرية وحركات سياسية ونشاطات أدبية وفنية ومسرحية، استقطبت الكثيرين وجذبتهم إليها من جميع الأقطار العربية، وصهرت بعضهم في بوتقتها، فساهموا في فعالياتها وانشطتها المختلفة.

لم يكن توجه مصر، في الغالب، عربياً بقدر ما كان قطرياً وإقليمياً، وكانوا يطلقون على الطلبة العرب الذين يدرسون بمصر «الطلبة الشرقيون» : وكانت لهم إدارة خاصة تتولى تنسيق دخولهم المعاهد والجامعات في مصر. وكان اهتمام مصر بالسودان، على اعتبار أن ملك مصر كان يلقب بملك مصر والسودان التي كانت تتبع مصر قبل الثورة المهدية في السودان، ودخول القوات البريطانية من مصر لإخمادها واحتلالها السودان. وكثيراً ما كان المصريون يطالبون بوحدة مصر والسودان أو ما يسمى بوحدة «وادي النيل».

في النصف الأول من القرن الماضي لم تكن هوية مصر قد حُسمت، فالتيار الذي نادى بفرعونية مصر، والتخلي عن اللغة العربيةالفصحى، واستعمال اللهجة المحلية وتطويرها والكتابة بالحروف الأجنبية كان له صداه. ومن أبرز رموزه الكاتب «سلامة موسى». وكان فكر «لطفي السيد» الملقب باستاذ الجيل آنذاك، ومؤسس حزب الأمة الذي تحول فيما بعد إلى حزب الأحرار الدستوريين، لا زال سائداً. وكان يرى بأن مصر تنتمي إلى

حضارة البحر المتوسط، أكثر من انتمائها إلى الحضارة العربية الإسلامية، ولعل من رموز هذا التوجه الدكتور طه حسين الذي كان يعتقد أن «لطفي السيد» أستاذه الروحي، والذي كان وراء بعثته إلى فرنسا لنيل درجة الدكتوراه حينما كان، أي لطفي السيد مديراً للجامعة المصرية الأهلية. أمّا الدكتور «محمد حسين هيكل»، فيلسوف حزب الأحرار الدستوريين وأحد أقطابه، فقد كان ينادي بفكرة الأمة المصرية.

لم يكن في مصر غير «أحمد زكي باشا»[1] الذي يدعو بحماس وإيمان بعروبة مصر ولذلك لُقب بـ«شيخ العروبة». وقد توفي في عام ١٩٣٤، وقيل أن جذوره عربية، وأنه من أصل فلسطيني ومن مدينة عكا.

١- ليس الدكتور «أحمد زكي» عالم الكيمياء المشهور، والوزير السابق، ومدير جامعة القاهرة في خمسينيات القرن الماضي، ومؤسس ورئيس تحرير مجلة العربي الكويتية عام ١٩٥٨م.

مصر على فوهة بركان

شهدت مصر في أربعينيات القرن الماضي - أي قبل دخولي الجامعة - أوضاعاً صعبة، ودخلت في مرحلة من عدم الاستقرار السياسي. وكثيراً ما كان يحدث الصدام بين الملك والسفير البريطاني المتغطرس، السير «مايلز لامبسون»، الذي كان يتدخل في الشؤون الداخلية المصرية مستغلاً ظروف البلاد في أثناء الحرب العالمية الثانية، ومتعللاً بالحفاظ على المصالح البريطانية في منطقة الشرق الأوسط. وبلغ التدخل إلى فرض تشكيل الوزارات واختيار رؤساء الوزارات في مصر. ولذلك، كان يقال، بأن مصر أصبحت تُحكم من «قصر الدوبارة»، مقر السفارة البريطانية، وليس من «قصر عابدين» مقر سلطة الملك «فاروق». وكان السفير «لامبسون» يفضل تشكيل الوزارات من أحزاب الأقلية التي يعتقد أنها موالية للإنجليز وللقصر، ويعارض قيام حكومة وفدية تمثل الأغلبية المصرية الكارهة للاحتلال البريطاني لمصر. ولكن حدث استثناء لهذه القاعدة، ولمرة واحدة، وذلك حينما أجبر هذا السفير الملك في عام ١٩٤٢ على تكليف «مصطفى النحاس باشا» بتشكيل الوزارة.، وقيل يومها أن الأهداف كانت سياسية بحتة، فحاجة بريطانيا آنذاك - وهي تواجه خطر الألمان بقيادة «رومل» الذي وصل إلى العلمين بمصر - إلى استقرار وعدم قيام قلاقل واضطرابات في مصر، وبخاصة أن الشعب المصري كان يتمنى انتصار الألمان على البريطانيين المحتلين. وقد اعتقد السفير أن منع قيام القلاقل والاضطرابات لا يتم إلا إذا تشكلت في البلاد حكومة قوية ذات شعبية كبيرة، وهذا لا يتحقق إلا بتشكيل حكومة وفدية. وفي الوقت نفسه حاولت بريطانيا استمالة المصريين، في أثناء هذه الحرب، ووعدت بالجلاء عن مصر، وحل قضية السودان الذي انفردت بحكمه، مناقضة بذلك اتفاقية ثنائية الحكم، أي اشتراك مصر مع بريطانيا في حكمه وتقرير مصيره، ولم تترك لمصر إلا الشكليات ومسميات بلا معنى مثل تسمية «فاروق» ومن قبله «فؤاد» بملك مصر والسودان.

لم يكن مع المستغرب أن لا تفي بريطانيا بوعودها - فهذه عادتها - فظلت القوات البريطانية، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في آب / اغسطس ١٩٤٥ مرابطة على طول قناة السويس، وفي وسط مدينة القاهرة، حيث اتخذت من مبنى قصر النيل، وكان لونه أحمر، مقراً لقيادتها، ويمتد من كوبري قصر النيل، قرب وزارة الخارجية، وحتى المتحف المصري. وقد شاهدت هذا المبنى قبل أن تهدمه حكومة الثورة في مصر بعد قيامها في

تموز / يوليو ١٩٥٢، وأقيم مكانه مباني، منها فندق «هلتون»، ومبنى جامعة الدول العربية التي كان مقرها، قبل ذلك، في حي البستان ببولاق.

إلا أن بريطانيا اضطرت، بسبب الانتفاضة المصرية في عام ١٩٤٦، وسقوط كثير من الشهداء المصريين، إلى سحب قواتها من وسط القاهرة، لتنضم إلى القوات البريطانية المرابطة على طول قناة السويس.

كان الفساد، بجميع أشكاله وألوانه، من أهم ما عانت منه مصر، واشتكى منه المصريون، وكانت أصابع الاتهام تشير إلى الملك «فاروق»، الذي قيل بانه كان يعيش حياة ترف وبذخ، بينما عانى المصريون، وبخاصة الفلاحون من الفقر والعوز والفاقة وسوء الأحوال. وكانت الإشاعات تنتشر عن تبذير الملك وإسرافه على الملذات، وقضاء الليالي الحمراء مع الصديقات والخليلات والعشيقات، من أمثال الراقصة «كاميليا» التي توفيت في حادثة سقوط طائرة كانت متجهة من القاهرة إلى الاسكندرية. ومن الاشاعات الأخرى عن الملك فاروق أنه كان مولعاً بلعب القمار، وانه يستمد مشورته من بطانة فاسدة مارقة وضالة، كان على راسها «أنطونيو بوللي» و«بيترو» الإيطاليين، و«كريم ثابت باشا» مستشاره الصحفي، وكان لبناني الأصل، والدكتور «يوسف رشاد» طبيبه الخاص وزوجته «ناهد» كبيرة الوصيفات، ومستشاره «أندراوس باشا».

ومما زاد الأحوال سوءاً تصارع الأحزاب السياسية في مصر آنذاك، وتنافسها على السلطة والنفوذ. وكان حزب الوفد بزعامة «مصطفى النحاس باشا» أكبر الأحزاب، ويمثل الأغلبية، ويكتسح الانتخابات إذا كانت حرة ونزيهة، كما حدث في آخر انتخابات جرت قبل الثورة، أي في عام ١٩٥٠.

أمّا الأحزاب الأخرى والتي كان يطلق عليها «أحزاب الأقلية»، فمن أهمها «الهيئة السعدية» التي انفصلت عن حزب الوفد بعد وفاة مؤسسه وزعيمه «سعد زغلول باشا»، وتولى الزعامة من بعده «مصطفى النحاس باشا». وكان «أحمد ماهر باشا» و«محمود فهمي النقراشي باشا»، و«إبراهيم عبدالهادي باشا» يمثلون قيادة الهيئة السعدية. ويُعد حزب «الأحرار الدستوريين» الذي تشكل من قادة حزب الأمة السابق، من أبرز أحزاب الأقلية. وكان «محمد محمود باشا»، والدكتور «محمد حسين هيكل باشا» من قادته الكبار. أمّا الحزب «الوطني الجديد»، فقد أسسه «فتحي رضوان» عام ١٩٤٤ على مبادىء الحزب الوطني الذي انشأه الزعيم «مصطفى كامل». وجاء تأسيس هذا الحزب بعد اختلاف «فتحي رضوان» مع صديقه «أحمد حسين» حينما أسّسا في عام ١٩٣٣ حزب «مصر الفتاة»، والذي كان يطلق عليه «الحزب الاشتراكي»، والمعروف بميوله

اليسارية. وكان يمتلك صحيفتين أسبوعيتين هما : «مصر الفتاة» و«الشعب الجديد». وكثيراً ما كانت هاتان الصحيفتان تنتقدان الملك، وتهاجمان القصر فتتعرضان للمصادرة أو الإغلاق.

وكان حزب «الكتلة الوفدية» الذي شكله «مكرم عبيد باشا» بعد انشقاقه عن حزب الوفد من أحزاب الأقلية في مصر، ولكنه كان قليل الأهمية.

إن هذا الصراع بين الأحزاب والقوى السياسية في مصر، كان في وقت شهدت فيه البلاد أوضاعاً اقتصادية وسياسية صعبة، مما يذكرنا بما قاله أمير الشعراء «أحمد شوقي» من قبل، وهو يسخر من الخلافات والخصومات بين المصريين على سلطة وهمية لا قيمة لها:

إلام الخُلْفُ بينكم إلاما؟ وهذه الضجة الكبرى علاما؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما

منذ عقد الأربعينيات من القرن الماضي دخلت مصر في مرحلة عدم الاستقرار السياسي والذي تمثل في التتابع السريع للوزارات، فقد كان معدل فترة حكم كل وزارة أقل من سنتين. فبعد إقالة وزارة «مصطفى النحاس باشا» في ١٩٤٤/١٠/٨، كلف الملك «أحمد ماهر باشا» بتشكيل الوزارة، والذي اغتيل في ١٩٤٥/٢/٢٤ - أي قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور - لأنه تحدى الشعور الوطني المصري آنذاك، بإعلان الحرب على دول المحور بزعامة ألمانيا، والانضمام إلى الحلفاء بقيادة بريطانيا.

باغتيال «أحمد ماهر باشا»، كلف الملك زميله «محمود فهمي النقراشي باشا» بتشكيل وزارة جديدة، ثم سرعان ما أقاله وكلف «إسماعيل صدقي باشا» بتشكيل وزارة أخرى، ولكنه أقاله، وأعاد تكليف «محمود فهمي النقراشي باشا» بتأليف الوزارة. وفي فترة حكمه، دخل الجيش المصري فلسطين، ومُني بالهزيمة. وفي ١٩٤٨/١٢/٢٨ اغتاله شاب من الإخوان المسلمين، بسبب قيامه بحل جماعة الإخوان المسلمين، فخلفه في رئاسة الوزارة «إبراهيم عبدالهادي باشا» الذي نكل بالإخوان المسلمين، وقيل أنه تعاون مع القصر في اغتيال الشيخ «حسن البنا» المرشد العام للاخوان المسلمين ومؤسس جماعتهم. وقد تم الاغتيال في ١٩٤٩/٥/١٢، كما ذكرنا سابقاً.

استمرت وزارة «إبراهيم عبدالهادي» في الحكم بضعة شهور، ساءت فيها أحوال البلاد، وكثرت الاضطرابات، وازدادت الاحتجاجات، وعمت المظاهرات، فأقالها الملك، وكلف «حسين سرّى باشا»، زوج خالة الملكة «فريدة» بتشكيل الوزارة. وفي عام

١٩٥٠ أجرت هذه الوزارة انتخابات، قيل أنها كانت نزيهة، ففاز فيها حزب الوفد بزعامة «مصطفى النحاس باشا»، وعلى أثرها كُلّف بتشكيل وزارة وفدية، كان من أبرز أعضائها وزير الخارجية الدكتور «محمد صلاح الدين» الذي تميز بوطنيته وإخلاصه لبلاده، وكذلك وزير المعارف الدكتور «طه حسين» الذي أصر على تنفيذ مشروعه بجعل التعليم في مصر بالمجان.

ولعل من طريف ما حدث بعد توليه وزارة المعارف، قيام خصومه بمظاهرة هتفت قائلة: «فليسقط الوزير الأعمى»، فما كان من طه حسين إلا أن خرج عليهم من شرفة مكتبه قائلاً لهم: «الحمد لله الذي جعلني أعمى كي لا أراكم»، وأقفل النافذة، ودخل مكتبه غير مبالٍ بهم.

كان الفوز الذي حققه حزب «الوفد في الانتخابات كاسحاً، وجاء تعبيراً صادقاً عن تذمر الشعب المصري من الفساد وسوء الأحوال، والتتابع السريع للوزارات، وتكليف الملك أحزاب الأقلية بتاليفها، واتهام هذه الأحزاب، بموالاة القصر والإنجليز. وعدم تقبل هزيمة الجيش المصري في فلسطين، وإلصاق تهمة الأسلحة الفاسدة بالقصر والبطانة الفاسدة للملك. وعلق المصريون آمالاً كبيرة على وزارة «مصطفى النحاس باشا»، وطالبوها بإصلاح الأوضاع، والقضاء على الفساد، والضغط على بريطانيا لتفي بوعودها بالجلاء عن البلاد. كما طالبوا بحل البوليس السياسي التابع للقصر، والذي كان سيفاً مسلطاً على الأحرار والوطنيين، يمارس عليهم الإرهاب، وكل صنوف التنكيل والتعذيب، وأكدوا على الاتفاق مع بريطانيا على تقرير مصير السودان الذي انفردت بريطانيا بحكمه، مناقضة بذلك اتفاقية ثنائية الحكم، أي اشتراك مصر مع بريطانيا في حكم السودان وتقرير مصيره، كما ذكرنا سابقاً.

كانت الصحافة المصرية في تلك الفترة طافحة بالأخبار المثيرة، والمقالات الرصينة، والأفكار الجريئة لكتاب ومفكرين ومثقفين وطنيين غيورين على مصر ومستقبلها. وكان من يطلع على صحف مصر ومجلاتها يلمس بأن مصر قد تشهد قريباً مخاض حركة وطنية تقود البلاد إلى ما تصبو إليه من تقدم تستحقه، وتنهض بالمنطقة بحكم ما تتمتع به من موضع إستراتيجي مميز، وموقع جغرافي هام، وبفضل ما لها من تاريخ عريق مجيد. وقيل أنه لو اتيح الوقت الكافي لهذه الحركة لآتت أُكلها، ونجحت في تحقيق ما كانت تسعى إليه. ويرى البعض بأن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، التي سناتي على ذكرها بعد قليل، قد أجهض هذه الحركة في مهدها.

كانت جريدة الأهرام – كما هي اليوم – والتي أنشأها الأخوان «سليم وبشارة تقلا»

اللبنانيان في عام ١٨٧٥م الصحيفة المصرية الأولى آنذاك، وأوسع الجرائد انتشاراً في مصر والمنطقة العربية، تليها في الأهمية جريدة «المصري» الناطقة باسم حزب «الوفد»، ويديرها «محمد أبو الفتح» وأخوه «أحمد». وكان للأخوان المسلمين جريدة اسمها «الإخوان المسلمون»، ولهم صحيفة أسبوعية اسمها «الدعوة»، يشرف على تحريرها «صالح عشماوي». وفي تلك الفترة أصدر الشيخ «علي الغاياتي» صحيفة أسبوعية اسمها «منبر الشرق». وقد تخصصت صحيفة «الجمهور المصري» في متابعة أنشطة البوليس السياسي الذي كان تابعاً للقصر، ويلاحق الوطنيين الأحرار.

كانت الصحف الصادرة عن «دار أخبار اليوم» لصاحبيها الأخوين «علي ومصطفى أمين» من أوسع الصحف انتشاراً. واتسمت هذه الدار بموالاتها للقصر والإنجليز. وقد أطلق عليها الكاتب والصحفي المصري المعروف انذاك «أبو الخير نجيب»، «دار الصحف البريطانية الناطقة بالعربية».

أمّا مجلة «روز اليوسف» لصاحبتها «روز اليوسف»، والدة الصحفي والأديب المعروف «إحسان عبدالقدوس»، فكانت من أهم المجلات السياسية الأسبوعية. وقد زاد انتشارها بعد كشفها لما سمي آنذاك «قضية الأسلحة الفاسدة» التي قيل يومها أنها كانت من أهم أسباب هزيمة الجيش المصري في فلسطين. وقاد هذه الحملة الصحفية «إحسان عبدالقدوس».

وكانت مجلة «آخر ساعة» الأسبوعية، من أوسع المجلات السياسية انتشاراً. وقد أسسها «محمد التابعي» شيخ الصحافيين المصريين في النصف الأول من القرن الماضي، وأستاذ الصحفي المشهور «محمد حسنين هيكل». وقد اشترت هذه المجلة «دار أخبار اليوم» فيما بعد. وفي عام ١٩٥٠ أصدرت هذه الدار جريدة يومية أسمها «الأخبار».

من المجلات التي حظيت بشهرة كبيرة، وبانتشار واسع «مجلة المصور». وكان يرأس تحريرها الكاتب المعروف «فكري أباظة» وقد تميزت المجلة بتنوع موضوعاتها. أمّا مجلة «الهلال» الشهرية التي أنشأها الأديب اللبناني «جورجي زيدان» في عام ١٨٩٢م، فقد كانت مجلة أدبية حظيت بانتشار واسع في مصر والبلاد العربية. وكان يرأس تحريرها الأديب «طاهر الطناحي».

كانت «الرسالة» و«الثقافة» من أهم – إن لم تكونا أهم – مجلتين أدبيتين فكريتين في مصر. وقد أصدر الأولى رئيس تحريرها الأديب «أحمد حسن الزيات»، بينما رئيس تحرير الثانية العلامة الدكتور «أحمد أمين»، وكانت تصدر عن إدارة اعتقد أن اسمها كان دائرة «الثقافة والتأليف والترجمة والنشر»، وتتبع وزارة المعارف.

ومن المجلات الأخرى التي كانت تصدر في مصر آنذاك مجلة «الإثنين والدنيا» ومجلة «الصباح»، كما صدرت مجلة فكاهية ساخرة اسمها «البعكوكة». وكانت مجلة «حواء»، وهي مجلة نسوية، تصدر آنذاك، وترأس رئاسة تحريرها «أمينة السعيد».

لا شك في أن هذه الصحف والمجلات - كلها أو بعضها - قد ساهمت في النهوض بالحركة الفكرية والثقافية في مصر، وكثيراً ما كانت تثار قضايا هامة على صفحاتها لكتاب ومفكرين كبار ناقشوا فيها أموراً سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وأدبية. واذكر أن من بين تلك القضايا مسألة الهوية المصرية، حيث تباينت حولها الآراء آنذاك. وقد ذكرنا ذلك سابقاً.

واجهت حكومة «مصطفى النحاس» الكثير من العقبات التي حالت دون تحقيق مطالب الشعب، الذي كما قلنا قد علّق عليها آمالاً كبيرة، فالصدام مع القصر كان دائماً، لاعتقاد الملك بأن «النحاس باشا» كان يسعى إلى تقييد سلطاته، وتقليص نفوذه. وفي الوقت نفسه، كانت بريطانيا تماطل، ولا تريد تحقيق المطالب المصرية في مسألتي الجلاء والسودان، وأصبحت المفاوضات بين المصريين والبريطانيين عبثية لا جدوى منها، مما أثار غضب المصريين واستيائهم. ولما نفذ صبر الحكومة المصرية القى رئيسها «مصطفى النحاس باشا»، في الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٥١ خطاباً تاريخياً في البرلمان المصري - لا يزال صداه يرن في أذني - قال فيه بالحرف الواحد: «لأجل مصر وقعت مع الإنجليز معاهدة عام ١٩٣٦، ولأجل مصر أُعلن اليوم إلغاءها» فصفق النواب، ودوت القاعة بالهتافات الوطنية.

كان رد بريطانيا على إلغاء المعاهدة الرفض الشديد، واعتبرته غير قانوني، لأنه من طرف واحد. وقد أيدها في موقفها هذا فرنسا والولايات المتحدة الأميركية. وحتى يدعم «النحاس باشا» موقفه شعبياً، دعا إلى القيام بتظاهرة وطنية في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥١، عُدّت آنذاك أكبر تظاهرة شهدتها مصر، سار فيها نحو مليون شخص. وقد اشتركت أنا شخصياً في هذه التظاهرة، وفيها رُفعت العديد من اليافطات التي تحمل الشعارات الوطنية. وقاد التظاهرة «النحاس باشا» شخصياً ومعه كبار قادة مصر وزعماؤها.

انتقل التوتر إلى قناة السويس حينما صارت القوات البريطانية تستفز المصريين في مدن القناة، وبخاصة في الإسماعيلية، حيث كان عدد من الضباط الإنجليز يسكنون دوراً (فللاً) في المدينة. وتطورت الأحداث بعد أن طلبت الحكومة المصرية من العاملين المصريين في معسكرات الإنجليز، وعددهم نحو ٨٠ الف عامل، ترك العمل، وكلفت

جهازاً خاصاً برئاسة وزير الأشغال آنذاك «عبدالفتاح حسن باشا» لإلحاق هؤلاء العمال بأعمال في الوزارات والمرافق الحكومية. ولما كنت قد التحقت بالعمل في تلك المعسكرات في العطلة الصيفية عام ١٩٥١، فقد استفدت من العرض الحكومي، وقدمت طلباً أثبت فيه عملي في القناة، فعينت كاتباً في وزارة المواصلات. وكان رئيس القسم متسامحاً معي ومتعاطفاً إلى أقصى حد، فقد سمح لي بالدوام ساعة أو ساعتين فقط والذهاب لمواصلة المحاضرات في الجامعة. وقد استمر عملي في الوزارة نحو شهرين، ثم استقلت لعدم قدرتي على العمل والدراسة، ولكن المبلغ الذي قبضته آنذاك ساعدني على شراء الكتب المطلوبة وشراء أثاث لغرفتي في الشقة التي كنت أستأجرها مع أولاد عمومتي، وهم صبري ومحيي الدين.

تأزم الوضع في قناة السويس وبدأت الأعمال الفدائية ضد القوات البريطانية، وكان للإخوان المسلمين فيها دور بارز، وكنت أشاهد زعيم طلبة الإخوان المسلمين بجامعة فؤاد الأول «حسن دوح»، الطالب بكلية الحقوق يخطب في حرم الجامعة أمام قبة الجامعة بلهجة حماسية ولغة بليغة ،يدعو فيها إلى التطوع والجهاد لإجبار الإنجليز على الجلاء من مصر.

ولن أنسى ذلك الموكب المهيب والحزين الذي خرجت فيه الجامعة والجماهير الغفيرة، وهي تسير في جنازة الطالب «عمر شاهين»، الذي استشهد من الإخوان في القناة. وكان يقود الإخوان في منطقة القناة الشيخ فرغلي، الذي أعدمته الثورة فيما بعد لاتهامه بالتورط في مؤامرة اغتيال «جمال عبدالناصر»، حينما كان يخطب في مناسبة وطنية بالإسكندرية عام ١٩٥٤.

تتالت الأحداث بعد ذلك وتسارعت، وبدأت السماء تتلبد بالغيوم السوداء منذرة بتدهور الأوضاع وسوء الأحوال، وانتقل التذمر إلى صفوف الجيش الذي كان الملك يعده حصنه الحصين ودرعه المنيع. ففي انتخابات نادي الضباط التي جرت في كانون الثاني / يناير ١٩٥٢م، لم يفز مرشح الملك، وإنما فاز اللواء محمد نجيب برئاسة النادي. وكان هذا مؤشراً على التشكك في ولاء الجيش للملك، وقد حدث هذا لأول مرة.

بتصاعد الأعمال الفدائية ضد الإعتداءات البريطانية على المصريين في القناة أرسلت الحكومة المصرية أعداداً كبيرة من بوليس الطوارئ الذين كان يطلق عليهم «بلوكات النظام» لحماية الناس في القناة ودعم المقاومة. وكانت مهمة بلوكات النظام في الأساس ضد التظاهرات التي يقوم بها الشعب المصري ضد الحكومة.

كانت المصادمات تحدث باستمرار في منطقة القناة بين المصريين والقوات البريطانية،

وكانت الصحف اليومية في مصر لا تخلو من أخبار المقاومة وما يرتكبه البريطانيون من أعمال انتقامية ضد المصريين وسقوط القتلى والجرحى، إلا أن هذه الأعمال تصاعدت وتيرتها حينما هاجم الجيش البريطاني مقرات بلوكات النظام في محافظة الإسماعيلية، حيث قُتل ثمانية من بوليس بلوكات النظام وجُرح ثمانية عشر. وفي اليوم الثالث من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥١، حدث صدام آخر قتل فيه ٢٨ مصرياً بينهم سبعة من البوليس، وجرح سبعون بينهم إثنا عشر بوليساً.

كان الحدث الأكبر الذي أشعل نيران الأزمة وأدى إلى تداعيات خطيرة – كما سنرى – إعتداء الجيش البريطاني على مبنى محافظة الإسماعيلية. ففي فجر يوم الجمعة الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، وجه القائد البريطاني في القناة الجنرال «إكسهام» إنذاراً شديد اللهجة إلى ضابط الاتصال المصري في الإسماعيلية، قال فيه بأنه يعد بوليس بلوكات النظام في المدينة خارجين على القانون، ويطالب بإخراجهم منها خلال ساعتين. واتصل الضابط المصري بوزارة الداخلية التي طلبت منه رفض الانذار، ومقاومة الهجوم البريطاني حفاظاً على كرامة مصر، رغم إدراك الوزارة بعدم قدرة بلوكات النظام ببنادقهم الخفيفة على التصدي للدبابات البريطانية والمدفعية الثقيلة، وكان عددهم نحو سبعمائة شخص.

دافع رجال بلوكات النظام دفاع الأبطال، واستماتوا في القتال ضد القوات البريطانية المحتمية في دباباتها ومدافعها، فسقط خمسون بوليساً وجرح ثمانون، وصدرت الصحف في صباح اليوم التالي تنشر تفاصيل الحادث الذي أطلقت عليه آنذاك «مذبحة الإسماعيلية». وعمت التظاهرات الصاخبة القاهرة، وطافت شوارعها منددة بالمذبحة مهددة البريطانيين بأسوأ العواقب، مطالبة بالثأر والانتقام. وشارك في هذه التظاهرات عساكر بلوكات النظام وتوجهوا إلى مديرية أمن الجيزة قرب قسم الجغرافية بجامعة القاهرة، الذي كنت طالباً به، ثم ساروا إلى مجلس الوزراء حيث انضم إليهم الطلبة والجماهير وطالبوا بقطع العلاقات مع بريطانيا، وبتدخل الجيش لحماية الناس في القناة.

لم تكن تظاهرة بلوكات النظام الوحيدة في القاهرة، بل قامت تظاهرات في مناطق متعددة من القاهرة، كان أهمها وأخطرها تلك التي كانت في وسط القاهرة، ونجم عنها ما سُمي آنذاك «حريق القاهرة». ورغم أنه في يوم الحريق، أي في السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، كنت مع العم المرحوم عبدالرحمن محمد الفرا رئيس بلدية خان يونس آنذاك، في ستوديو للتصوير بحي الدقي (حيث كنت أسكن)، لأخذ

صورة تذكارية معه برفقة أبناء العم صبري ومحيي الدين وطه، فقد سمعت بأنباء هذا الحريق، وشاهدت سحب الدخان تتصاعد في سماء القاهرة، إلا أن أفضل من شاهد الحريق، ورواه بالتفصيل وكتب مقدماته وتداعياته، كان الصديق الدكتور عصام الطاهر الذي كان آنذاك طالباً بجامعة فؤاد الأول. وقد نشر ذلك في مقال مطول على حلقتين، بمناسبة مرور نصف قرن على حريق القاهرة في جريدة القدس العربي اللندنية بتاريخ ١٨، ١٩ / ١ / ٢٠٠٢، وفيه قال:

«أمّا التظاهرة الأخرى التي اتجهت نحو ميدان «الأوبرا»، فقد بدأت بأول حريق لها قرابة الساعة ١٢٫٣٠ وذلك بحرقها سينما «ريفولي»، قرابة الواحدة ظهراً. ثم بعدها وخلال نصف ساعة أُضرمت النار في سينما «مترو» وما جاورها، وهي محلات «إكسليسيور»، وهو مطعم وبار ومقهى، ووكالة فورد للسيارات الأميركية، وسينما «ميامي».. وراح الحريق يمتد من نقطة إلى أخرى، وكلها تقع وسط المدينة، وفي دائرة نصف قطرها لا يزيد عن كيلو متر، وذلك باستثناء أماكن محدودة بعيدة عن وسط المدينة، أُحرقت في ساعات متأخرة من ذلك اليوم كحريق «الأوبيرج» في شارع الهرم».

ومنذ الساعة الثانية عشرة ظهراً، وحتى الحادية عشرة مساءً، كان الحريق قد التهم ٧٠٠ محلاً، جرى احصاؤها على النحو التالي: ٣٠٠ محلاً تجارياً، و٣٠ إدارة ومكتباً لشركات، و١١٧ مكتب أعمال، و١٣ فندقاً، و٤٠ داراً للسينما، و٨ محلات ومعارض كبرى للسيارات، و١٠ متاجر سلاح، و٧٣ مطعماً ومقهى وصالة، و٩٢ حانة للخمور، و١٦ نادياً، وبنك واحد، وهو بنك «باركليز» الإنجليزي».

كثرت الأقوال حول حريق القاهرة، وتعددت الإجتهادات فيما يتعلق بالذين قاموا به، ومن المستفيد منه، فهناك من أتهم القصر والإنجليز بهدف التخلص من حكومة الوفد، ومنهم من الصق تهمة الحريق إلى جماعات يسارية متطرفة هدفها إثارة القلاقل والاضطرابات. وهناك من اعتقد أن الجماهير الغاضبة افلت منها الزمام فنفست عن حنقها وغضبها، وأفقدها الغضب العارم وعيها، فقامت بحرق محلات ومصالح مملوكة لغير المصريين. ونحن هنا لا نكتب تاريخاً لندقق في الأمر، ونمحص الروايات والأقوال المختلفة ونتبنى ما نراه منها منطقياً، وإنما أردنا ايراد الحريق كحادثة عاصرناها وذكرناها ضمن معايشتنا للأحداث الخطيرة وتداعياتها على مصر وأحوالها.

كان لحريق القاهرة تداعيات خطيرة وسريعة فقد نزل الجيش في الشوارع وكلف بحفظ الأمن والنظام، وأُعلنت الأحكام العرفية، وأقال الملك الوزارة، وكلف «علي ماهر باشا» بتأليف الوزارة التي لم تستمر طويلاً، فكلف بعده «أحمد نجيب الهلالي باشا»، ثم

«حسين سري باشا»، ثم أعاد تكليف «أحمد نجيب الهلالي باشا» الذي حدثت ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ إبان توليه الوزارة، وقامت باعتقاله. أي أنه في الفترة ما بين حريق القاهرة في ٢٦ كانون الثاني/ يناير-١٩٥٢ وقيام الثورة في ٢٣ تموز/ يوليو من العام نفسه، ومدتها ستة شهور تغيرت أربع وزارات. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الوضع المتردي والخطير الذي عانت منه مصر في تلك الفترة الحرجة ،والتي أوحت بأن مصر كانت حبلى بالأحداث الجسام، وأنها مقبلة على تحول كبير في مسارها التاريخي.

ربما تكون هذه الأوضاع المتردية بمثابة مقدمات للثورة أو الانقلاب الذي قام به الجيش ضد النظام، فاطاح بالحكومة وأجبرت الملك على التنازل عن الحكم، وغادر مصر على ظهر اليخت الملكي «المحروسة» حيث تم توديعه بما يليق بمكانته كملك، واختار إيطاليا ليعيش فيها حتى وافته المنية ودفن – بناء على طلبه – في مصر عام ١٩٦٥م. وفي ١٨/٦/١٩٥٣ الغيت الملكية وأعلنت الجمهورية لأول مرة في مصر، فطويت صفحة من تاريخ مصر الحديث لتبدأ صفحة أخرى جديدة.

وعُيِّن اللواء «محمد نجيب» أول رئيس للجمهورية في تموز/ يوليو ١٩٥٣، ولكن فترة حكمه لم تدم طويلاً، فقد عزله مجلس قيادة الثورة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤، وفرض عليه الإقامة الجبرية، وعُيِّن «جمال عبدالناصر» رئيساً للوزراء. وفي عام ١٩٥٦م جرى استفتاء، وانتخب «جمال عبدالناصر» رئيساً للجمهورية.

قامت حكومة الثورة بإصدار عدة قوانين منها قانون الاصلاح الزراعي الذي قضى على الإقطاع، وقانون التأميم، وقامت بتنفيذ العديد من الصناعات مثل صناعة الحديد والصلب. وفي المجال السياسي، وقعت مع بريطانيا في ٢٧/٧/١٩٥٤ اتفاقية جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس، وتم التنفيذ في حزيران/ يونيو ١٩٥٥. وفي ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٦ أممت قناة السويس. وكان بناء السد العالي الذي بُدأ العمل فيه عام ١٩٦٠، وأنجز عام ١٩٧٠ أهم إنجازات حكومة الثورة، لأنه أدى إلى نهضة زراعية وصناعية في البلاد.

نحن هنا لسنا بصدد الحديث عن كل ما حققته حكومة الثورة من إنجازات، ولا التكلم عن مصر في عهد عبدالناصر، فذلك يخرج بنا عن هدف هذا الكتاب، علاوة على أنه يحتاج إلى كتاب قائم بذاته. ولكن قد يكون من المناسب أن نقول كلمة موجزة عن مدى صحة الاتهامات التي وُجهت آنذاك لعهد ما قبل الثورة، اي فترة حكم الأسرة العلوية الذي بدأ في عام ١٨٠٥م وذلك حينما تولى السلطة في مصر «محمد علي

باشا»، وحتى قيام الثورة في عام ١٩٥٢. وللأسف فقد قام عدد من الكتاب بتلطيخ تلك الفترة بالسواد، واتهام الحكم آنذاك بالاستبداد والفساد، ولم يذكروا ما حدث في تلك الفترة من إنجازات، والتي كان من أهمها تحديث مصر ونهضتها في عصر محمد علي باشا نفسه.

من يقرأ التاريخ قراءة علمية موضوعية منصفة، يرى أن لكل فترة إيجابياتها وسلبياتها، وإن محاكمة الأحداث وتقييمها لا تنتزع من زمانها ومكانها، ولا تجتزأ من سياقها، فالحدث وثيق الصلة بزمانه ومكانه وبسياقه. وما من حاكم أو مسؤول إلا ما له وما عليه من إيجابيات وسلبيات، وحسنات وسيئات. ولو طبقنا ذلك على الأسرة العلوية لقلنا: صحيح أنه كانت لمحمد علي باشا – مؤسس الأسرة العلوية – التي كان آخرها الملك فاروق – أهدافه وأطماعه ومصالحه الشخصية، كأي حاكم وصل السلطة بالطريقة التي وصل بها محمد علي. إلا أنه لا أحد ينكر أن «محمد علي» كان صاحب مشروع نهضوي، فهو أول من قام بتحديث مصر ووضع أسس نهضتها الحديثة اقتصادياً وحربياً، مما لفت إليه أنظار العالم، وجعل بلداً كاليابان يحاول الاحتذاء به والاستفادة من أعماله وإنجازاته.

لقد أحدث «محمد علي» ثورة زراعية فأدخل زراعة القطن في مصر – ولأول مرة – وشق الترع والقنوات والمصارف وبنى الجسور والقناطر، وبخاصة «القناطر الخيرية» عند عنق الدلتا، واستصلح الأراضي. وفي مجال الصناعة أدخل عدداً من الصناعات، وبخاصة حلج القطن ونسجه وغزله، وبنى داراً لبناء السفن، وأنشأ المصانع الحربية، وكوّن جيشاً حديثاً اعتبر آنذاك أقوى جيوش المنطقة. وفوق هذا وذاك أرسل البعثات من أبناء مصر لتلقي العلوم الحديثة، واستقدم الوفود العلمية. ولا شك في أن مآثر «محمد علي» وأعماله كثيرة لا يتسع المقام هنا لذكرها. وللأسف فإن القوى الغربية تكالبت عليه وحاربته لأنها لا تريد – كما يعلم الجميع – للمنطقة العربية أن تتوحد وتقوى، لاعتقادها بأن ذلك يشكل خطراً عليها، ويهدد مصالحها فيها.

نحن، أيضاً، لا يحق لنا إنكار إيجابيات الحكام الذين جاءوا بعد «محمد علي» وتسليط الأضواء على سلبياتهم فقط، كاتهامهم باحتكار السلطة والتمسك بها، واستيلائهم على مقدرات البلاد، وتعاونهم مع قوى أجنبية – وبخاصة بريطانيا – لإجهاض كل حركة وطنية، كما حدث مع الثورة العرابية في عهد الخديوي توفيق، ولكننا، وللأسف، نجد حالياً بعض الحكام في بلادنا يمارسون الشيء نفسه، ويستقوون على شعوبهم بقوى خارجية. وحتى الفساد الذي يدعون أنه كان من أبرز سمات فترة حكم الأسرة العلوية،

فإنه اليوم أصبح متفشياً في معظم البلاد وبشكل يفوق ما كان عليه في الماضي. وعلى الرغم من زوال طبقة الباشوات، والبطانة الفاسدة حول الملك والمحتمين بالقصر، فقد ظهرت طبقة أخرى جديدة أشد خطراً على الوطن ممثلة في المنافقين والمرائين والمخادعين والوصوليين الذين ابتليت بلدان كثيرة بهم وأشاعوا فيها الفساد.

آمل أن لا يعتقد القارىء أننا من أنصار العهد الملكي، وضد الثورة، والتي كان هدفها - ولا شك - القضاء على الفساد، وإصلاح أوضاع البلاد، والنهوض بمصر، واسترجاع هيبة مصر وكرامتها التي أُطيح بها في هزيمة الجيش المصري في حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وكما كان لمحمد علي مشروع نهضوي، فقد كان للثورة - هي الأخرى - مشروعها النهضوي حققت منه ما استطاعت تحقيقه، وقد سبق أن ذكرنا بعض إنجازات الثورة، وفي الوقت نفسه فإن قائد هذه الثورة «جمال عبدالناصر» رفع راية العروبة، ورفع من شأن العرب، وناصر القضايا العربية ودافع عنها، إلا أن القوى الغربية نفسها، التي حاربت «محمد علي» من قبل، تصدت للرئيس «جمال عبدالناصر» وحاربته.

وبطبيعة الحال فالأسباب واحدة في الحالتين: حالة «محمد علي» وحالة «جمال عبدالناصر».

صحيح أن سقف الحريات في العهد الملكي كان أعلى مما كان في عهد الثورة، ربما، لأن الثورة كانت تريد أن تحمي نفسها في أول قيامها. وسأذكر حالات أبيّن فيها ما كنا نتمتع به من حرية نسبية في العهد الملكي، واختفت في عهد الثورة، منها أن الشعب المصري كان يعبر عن غضبه واستيائه من الأحداث بالتظاهرات التي كثيراً ما كانت تُقمع من الشرطة (البوليس)، وبخاصة «البوليس السياسي»، إلا أن ذلك ما كان يمنع قيامها، حتى أن بعض التظاهرات أدت إلى سقوط وزارات ، ولكن الجيش في عهد الثورة تصدي لأي تظاهرة، حتى اختفت التظاهرات تماماً.

كانت الجامعة تعد حرماً مقدساً، ولا يمكن للشرطة أو الجيش دخوله مهما كانت الأسباب، فعلى سبيل المثال كان الطلبة داخل أسوار جامعة فؤاد الأول يتظاهرون ويتطاولون على الملك بالشتائم والسباب ونعته بأبشع الصفات التي نعف عن مجرد ذكرها، علماً بأن التطاول على الذات الملكية كان من المحرمات آنذاك، ومع ذلك لم أرَ أي قوة شرطية أو عسكرية دخلت حرم الجامعة لفض تظاهرة أو إلقاء القبض على قادتها. وكان حرس الجامعة الذي يراقب ويتولى النظام غير مسلح، وعلى النقيض من ذلك، أذكر أن طلبة الجامعة احتشدوا أمام القبة وهتفوا محتجين على تصرفات قامت بها الثورة، وكان بجواري أحد حراس الجامعة، فهمس في أذني أن انصرف فوراً، واذهب

لمنزلي، ولما سألته السبب – قال – لا تسأل واذهب فوراً. وما إن وصلت المنزل حتى سمعت بأن قوة من الجيش دخلت حرم الجامعة وانتهكته، وفضت التجمهر وألقت القبض على عدد من الطلبة. وفي اليوم التالي ألقت القبض على عدد من الأساتذة أذكر منهم الدكتور «توفيق الشاوي» الأستاذ المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول.

كانت الصحافة في العهد الملكي تتمتع بحرية كبيرة نسبياً، ولا أنس كيف كانت الصحف الموالية للقصر والأحزاب المعارضة لحزب الوفد تهاجم زعيمه «مصطفى النحاس باشا» وتنتقده في كل مناسبة، فعلى سبيل المثال، بينما كان «النحاس» قادماً من أوروبا انتقدت تلك الصحف عدد الحقائب التي كانت معه، وتساءلت فيما إذا خضعت لإجراء جمركي. ولم تتورع هذه الصحف عن «الغمز واللمز» في عفة زوجته «زينب الوكيل»، وكانت سيدة فاضلة، وعلاقتها بوزير الداخلية آنذاك «فؤاد سراج الدين». ففي رسم كاريكتوري صوّرت «فؤاد سراج الدين» يقود عربة «ترام» وعلى مقدمتها، يافطة مكتوب عليها «إلى السيدة زينب». ومن المعلوم أن في مصر حي شعبي اسمه «حي السيدة زينب». وعلى الرغم من أن الصحيفة يمكنها الإدعاء بأنها كانت تقصد الحي المذكور وليس السيدة «زينب الوكيل» زوجة النحاس باشا، إلا أن القصد السيء كان واضحاً جداً، ومع ذلك لم تحاول حكومة «النحاس باشا» اتخاذ إجراءات ضدها، كما تفعل حكومات كثيرة في هذه الأيام.

كان القضاء المصري في العهد الملكي مصاناً وله حرمته واحترامه وتقديره، وكان يتميز بالنزاهة والاستقامة، وأذكر أنه في أول عهد الثورة تعرض «مجلس الدولة» للاعتداء وأُهين رئيسه «عبدالرزاق السنهوري باشا»، وهو أكبر فقيه قانوني في مصر والبلاد العربية، ساهم في صياغة معظم دساتيرها وقوانينها. وربما يتذكر الكثيرون ما تعرض له قضاة مصر وناديهم من جور وتدخل قبل نحو سنتين أو ثلاث، وما حدث لنائب رئيس محكمة النقض والإبرام، وهي أعلى سلطة قضائية في مصر، تعادل «التمييز» في الأردن. لقد كان القضاء في العهد الملكي خطاً أحمر لا يمكن تجاوزه، ولم يكن يُسمح لأي شخص التدخل في القضاء، سواء كان من الحكومة، أو من القصر. وكان الجميع يعلمون بنزاهة القضاء المصري آنذاك.

لم تسلم الصحافة حالياً من سلطة الحكومة وجورها، ولم يتسع صدرها لانتقاداتها، وضاقت ذرعاً بالصحفيين الذين تجرأوا بنقد السلطة، وزجت بهم في السجون، ولم يسلم من هذا بعض رؤساء التحرير. صحيح أن الحكومة في العهد الملكي كانت تقفل بعض الصحف وتصادرها أو تقفلها، وبخاصة اليسارية منها، إلا أنها لم تصل إلى هذا

الحد الذي وصلت إليه اليوم، فالصحافة آنذاك كان يُطلق عليها «السلطة الرابعة»، أي بعد السلطة التشريعية، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، وهي الحكومة.

رغم الفساد الذي أُتهم به الملك «فاروق» إلاّ أنه من الظلم تلطيخ فترة حكمه بالسواد وإنكار ما له من إيجابيات، مهما كانت قليلة. منها قول كثيرين، بأنه كان يحب وطنه مصر، وأنه أوصى بعد نفيه أن يدفن فيه. وأنه كان مدركاً لدور مصر، وأهميتها في العالم، وفي المنطقة العربية، وقيل أنه كان من المتحمسين جداً لفكرة إنشاء جامعة الدول العربية، حينما طرحت في عام ١٩٤٤. وكان هو الذي أصدر أمره بدخول الجيش المصري فلسطين والتعاون مع الجيوش العربية الأخرى التي تقرر دخولها فلسطين، رغم معارضة رئيس وزرائه آنذاك «محمود فهمي النقراشي باشا» الذي أعلن عن عدم استعداد الجيش المصري بدخول الحرب. وكان حريصاً على متابعة سير المعارك على الجبهة المصرية، وسافر إلى الميدان ليطلع على أحوال ضباطه وجنوده ويشجعهم على القتال والاستبسال فيه. وحينما وصل مدينة غزة استقبلته الجماهير الفلسطينية الحاشدة على محطة سكة الحديد. ووجه يومها خطاباً حماسياً للجيش المصري رفعت من معنوياته.

إننا ونحن نتذكر حكامنا في الماضي، وما عانيناه من ظلم على أيديهم، وما شهدت بلادنا من مصائب ومآسي في زمانهم، ونقارن ذلك بحالنا اليوم، فلا نجد من تعليق على ما نحن فيه غير أبيات من الشعر مثل:

رب يوم بكيت فيه فلمّا … صرت في غيره بكيت عليه

وأيضاً:

ما مَرَّ بي زمن قد كنت أكرهه … إلاّ بكيت عليه حين ينصرم

وقال الطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها … ما أضيق العيش لولا فُسحة الأمل

وفي الختام لا نملك إلاّ أن نقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

كان من شروط بعثتي للدراسة في مصر أن أعود للعمل في قطاع غزة، ولذلك بمجرد تخرجي في الجامعة، وحصولي على درجة الليسانس عدت للقطاع، وقدمت نفسي لإدارة التربية والتعليم التي خيرتي في العمل بأي مدرسة ثانوية أرغبها، ففضلت العمل بمدرسة خان يونس الثانوية، حيث مسقط رأسي. ففرح بي ناظرها (مديرها) آنذاك، الأستاذ « سامي سعيد أبو شعبان »، الذي كان في السابق أستاذي. وكانت المدرسة ثانوية وإعدادية أي مشتركة، وكانت مراحل التعليم في عهد الإدارة المصرية قد اختلفت عما كانت عليه في عهد الانتداب، حيث كانت تتألف من مرحلتين : إبتدائية ومدتها سبع سنوات، وثانوية ومدتها أربع سنوات. أمّا في العهد المصري فقد أصبحت المراحل ثلاث : الإبتدائية ومدتها أربع سنوات، والإعدادية ومدتها أربع سنوات، والثانوية ومدتها ثلاث سنوات.

لقد سعدت كثيراً بالمدرسين الذين كانوا يعملون معي في المدرسة، واعتبرتهم أخوة كباراً لي، ولا زلت مديناً للأستاذ الأديب والشاعر المرحوم « أحمد فرح » مدرس اللغة العربية، لأنه أعطاني فكرة عن التدريس. وكان يسكن في منزلنا لذلك كنت كثيراً ما استشيره وأطلب منه النصح والإرشاد. ومن الزملاء أذكر مجموعة طيبة من المشايخ الأزهريين كالشيخ خالد سليمان الفرا، والشيخ محمد أبو سردانة، والشيخ خليل الحوراني. ومن الزملاء أذكر أيضاً الأساتذة : وليد شبلاق مدرس التربية البدنية، وعبد العزيز الصوري مدرس الإجتماعيات، ومحفوظ الخطيب وشقيقه رمضان الذي استشهد في مذبحة خان يونس في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٦م. كما أذكر من الزملاء أيضاً الأستاذ « عبد الحميد طقش »، والأستاذ توفيق الحوراني.

كان راتبي الشهري نحو ثلاثين جنيهاً مصرياً. وهو مبلغ جيد آنذاك بالنسبة لموظفي الحكومة، بينما كان موظفو وكالة غوث وتشغيل اللاجئين « الأونروا » United Nations Releif and Works Agency : UNRWA يتقاضون رواتب أعلى، إلا أن التقدير والاحترام الذي كان يحظى به مدرس الحكومة، كان أكثر من الذي يعمل في مدارس الوكالة، ربما لأن الذين بدأوا العمل، حينما افتتحت مدارس الوكالة، كانوا بدون شهادات علمية وتربوية، وقبلوا العمل كمتطوعين، ثم صارت الوكالة توزع عليهم مساعدات عينية كالتمر والحليب والأجبان والأسماك المدخنة. أما مدرسو الحكومة فكان يشترط أن

يكونوا حاصلين على الشهادة الثانوية على الأقل.

وحتى يتمكن مدرسو الوكالة من رفع مؤهلاتهم الدراسية والحصول على شهادات علمية، وبخاصة الثانوية العامة (التوجيهية) عن طريق الإنتساب، أي من منازلهم – كما كانوا يسمون آنذاك – كان يلتحق بعضهم بمدارس ليلية أو يستعينون بمدرسين خصوصيين. وقد أنشأ لهذا الغرض الأستاذ «سامي أبو شعبان» فصولاً ليلية لعدد من مدرسي ومدرسات الوكالة اللواتي يردن إكمال الدراسة، والحصول على الثانوية العامة، ويقوم بالتدريس لهن مدرسو المدرسة الثانوية الصباحية، وكنت واحداً من هؤلاء المدرسين. وقد كان التعليم المسائي يشكل مصدر دخل آخر ساعدني على إعالة أسرة كبيرة مكونة من والدي ووالدتي وأربعة أخوة وثلاث أخوات.

كنت في المدرسة الثانوية أقوم بتدريس الجغرافية للسنوات النهائية في المرحلة الثانوية، وكنت لا أرفض تدريس مادة يطلب مني تدريسها، فقد درّست علم الاجتماع، ومادة المجتمع الفلسطيني، وقد اعترضت على الكتاب الذي كان يدرسه الأساتذة آنذاك وعنوانه «المجتمع المصري»، وقمت على الفور بتأليف كتاب «المجتمع الفلسطيني» الذي طبع في مصر، وتولى عبد الجواد السقا، صاحب مكتبة النهضة العلمية بخان يونس تكاليف طبعه ونشره في عام ١٩٥٤. وقد أحدث تأليفه وبهذه السرعة ضجة كبيرة، وأصرّ مدير المدرسة «سامي أبو شعبان» أن يأخذني إلى الحاكم العام لقطاع غزة مفتخراً ومباهياً. وقد كان هذا الكتاب لا منافس له في القطاع، وهو أول كتاب ألفته ولا زلت أحتفظ بنسخة منه للذكرى.

في السنة التي عينت فيها بمدرسة خان يونس الثانوية، واجهت الناظر (المدير) مشكلة تدريس مادة الفلسفة، والتي لم تكن تدرس في مدارس فلسطين آنذاك، ولم يكن أحد قد تخصص فيها. وربما لو سألت أحداً عن معنى الفلسفة لما عرف معناها، وظن أنها سفسطة، أو من الكلام الزائد الذي لا معنى له ولا لزوم منه. وقد أبديت الرغبة في تدريسها معتمداً على دروس فلسفية كنت قد حضرتها لأساتذة الفلسفة في الجامعة. وقد ندمت وشعرت بالتورط بعد هذه الموافقة المتسرعة التي رحب بها المدير ترحيباً كبيراً لأنه اعتقد أنه حل المشكلة، وأنقذ المدرسة من مشكلة بدت له مستعصية على الحل، فمادة الفلسفة صعبة ومعقدة بأقسامها الثلاثة : الميتافيزيقا، أو ما وراء الطبيعة، والأنطولوجيا، أوالوجود، والإبستمولوجيا، أو نظرية المعرفة. وتتطلب دراسة الفلسفة التعرف على المذاهب الفلسفية، وبخاصة العقلية والتجريبية، وتأسيس هذه المدارس، بدءاً بالمدرسة «الإيونية» في «ملطية» قرب «إزمير» التركية، ومؤسسها

« طاليس »، ومن جاء بعده من الفلاسفة، أمثال « انكسمندر » و« هيكاتيوس ». وهؤلاء كا نوا قبل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو وفيثاغورس، علاوة على فلاسفة عالميين مثل « رينيه ديكارت »، و« كانط »... الخ. ولذلك كان عليّ البحث في المراجع العلمية والاطلاع عليها. وكانت غير متوفرة، أو نادرة في القطاع، وقد كلفني ذلك الكثير من الجهد والإرهاق والمشقة التي تحملتها في النهاية عن رضا وقناعة لأني وجدت نفسي شغوفاً بالفلسفة ومحباً لها، فهي كما قيل في معناها، أنها حب الحكمة أو طالبها أو عاشقها. وقد وجدت فيها أفضل رياضة عقلية تساعد على سعة الأفق والإدراك وزيادة المعرفة. وبتدريس الفلسفة حققت شهرة كبيرة في القطاع، فاصبح إسمي معروفاً، وأُدعي لإلقاء المحاضرات عن الفلسفة وماهيتها وفائدتها. وطلب مني كثيرون إعطاءهم دروساً فيها، وهذاما كان له أكبر الأثر في حياتي. ففي يوم من الأيام اتصل بي من غزة زميل كان طالباً معي بمدرسة الإمام الشافعي، ثم عضواً في البعثة الدراسية للقاهرة، واسمه « سليمان أبو كرش » وألح عليّ راجياً أن أقبل تدريس الفلسفة لطالبة بقسم الاجتماع بكلية آداب القاهرة، وهي في الوقت نفسه تعمل ناظرة (مديرة) لمدرسة بنات تابعة لوكالة الغوث بمخيم البريج، فوافقت رغم كل ما كنت أعانيه من مشقة الانتقال بين غزة وخان يونس بسبب ضيق الوقت وكثرة انشغالي ومسؤولياتي التدريسية. ولم أكن أعلم أن هذه الطالبة ستصبح زوجتي وشريكة حياتي فيما بعد. لم أكن أدري أن الفلسفة هي التي وضعت شريكة حياتي في طريقي وحدّدت زواجي منها. وجعلتني أغض الطرف عن كثيرات اعترضن طريق حياتي وعلقن الكثير من الآمال عليّ.

كانت الأحوال الاقتصادية والمعيشية في قطاع غزة آنذاك سيئة وصعبة، فالبطالة متفشية والفقر منتشر، والناس يعانون من الضنك والشدة والبؤس، ومتطلبات الحياة لا ترحم، وسكان القطاع ضاق بهم المكان. وكان عدد السكان آنذاك نحو ٣٠٠ ألف نسمة، معظمهم من اللاجئين الذين نزحوا إلى القطاع ومن مدن وقرى اللواء الجنوبي ولواء يافا، الذي كان يسمى لواء اللد، على أثر نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وما بعدها. وبسبب هذا النزوح الكبير أصبح سكان القطاع الأصليين يشكلون الأقلية. وسكن اللاجئون في مخيمات أقامتها لهم وكالة الغوث حول مدن القطاع وقراه. وكانوا يعتقدون أنهم عائدون إلى ديارهم عما قريب. وكانوا يشعرون بالأسى والحسرة وهم يتطلعون، كلما اقتربوا من الحدود، إلى أراضيهم وأملاكهم، ويرون في الليل أنوار المستعمرات التي اغتصب سكانها أرضهم، ودمروا قراهم، وأقاموا عليها تلك المستعمرات أو المغتصبات. وكثيراً ما كان يتسلل الناس – كلما أحسوا بالحاجة – في الليل إلى قراهم المحتلة

ويحضرون معهم ما يمكنهم حمله أو نقله، ومنهم من كان يغافل حراس المستعمرات اليهودية ويحصل على ما يصادفه من غنائم، ويبيعها، فيعيش هو وأسرته من أثمانها. وكانت السلطات المصرية تلقي عليهم القبض، إما قبل دخولهم الأراضي المحتلة، أو بعد عودتهم منها، لاجتيازهم خط الهدنة، وتوجه لهم تهمة التسلل وتهديد الأمن. وكثيراً ما كانت تتهمهم بالخيانة والعمالة لليهود وتزج بهم في السجون.

وقد احتج كثير من الفلسطينيين على ذلك، وعابوا هذه السلطات التي زجت في السجون هؤلاء الذين اجتازوا الحدود وذهبوا إلى قراهم المحتلة لجلب ما تركوه، لإطعام أطفالهم وإعالتهم، في حين كانت إسرائيل تواصل عدوانها المستمر على القطاع دون أن تلقى من يردعها أو يصدها أو حتى يتصدى لها. وقد عبر عن هذه المشاعر الشاعر الفلسطيني «هارون هاشم رشيد» إذ قال :

فإن جُعتُ يوماً وتُقتُ لكرمي وشبَّ الحنينُ بأعماقية
يُقال - تسلّل - واشقوتاهُ وأرجم بالتهم القاسية
وداري هناك وحق السماء أجل دارُ أهلي وأجدادية
وزيتونتي وبيوتُ الدجاج وناعورتي وفمُ الساقية

حينما تولى القائمقام (العقيد) مصطفى حافظ رئاسة مكتب المخابرات بالقطاع لم يقتنع بالتهمة التي وجهت لهؤلاء المتسللين، ولم يشأ أن يسكت عن اعتداءات إسرائيل المتكررة، ضاربة باتفاقية الهدنة عرض الحائط، وذهب إلى السجن، وأخرج كل من وجهت له تهمة التسلل، وقام بتدريبهم، وشكل منهم جماعات فدائية تلقي الذعر والرعب في إسرائيل. وتمكن هؤلاء الفدائيون من تحقيق الأهداف المطلوبة، وأوقعوا الكثير من الخسائر في صفوف الإسرائيليين، الذين دب الهلع والخوف في قلوبهم، فقررت الحكومة الإسرائيلية التحرك بسرعة، ودبرت عملية محكمة بإرسال طرد ملغوم بواسطة عميل مزدوج. وبمجرد محاولة «مصطفى حافظ» فتحه انفجر اللغم الذي أودى بحياته. وكان ذلك في مساء الثاني عشر من تموز/ يوليو ١٩٥٦، فحزن عليه الجميع حزناً شديداً. وللأسف نفذت المخابرات الإسرائيلية العملية نفسها باغتيال الضابط «صلاح مصطفى»، الملحق العسكري في السفارة المصرية بعمان، والذي قيل إنه كان يجتمع بالفدائيين ويعاونهم ويدعمهم.

شهد قطاع غزة في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ إعتداءات إسرائيلية متكررة سقط فيها عدد من الشهداء. وقد ذكرتها بالتفصيل في كتابي «خان يونس : ماضيها وحاضرها».

ولكن لا بأس من الإشارة إليها باختصار لتداعياتها الخطيرة، والتي كان من أهمها تسلل قوة إسرائيلية في شهر آب/ أغسطس ١٩٥٤ وقيامها بنسف محطة المياه التي تزود سكان مدينة غزة بالمياه، وتدمير المبنى والبئر والآلات وقتل الفني المسؤول. وفي الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٥٥ حدثت مذبحة محطة سكة حديد غزة، وأسفرت العملية عن استشهاد ٣٩ قتيلاً و٣٣ جريحاً. وفي الثالث عشر من تموز/ يوليو ١٩٥٥ حدث عدوان إسرائيلي على مركز شرطة خان يونس نجم عنه استشهاد ٤٦ شخصاً وجرح أكثر من ٥٠ شخصاً، وتدمير معظم المبنى الذي بني على شكل قلعة حصينة في عهد الإنتداب، كما سبق ذكره.

أدى تدهور الأوضاع الاقتصادية، وزيادة الإعتداءات الإسرائيلية إلى غضب عارم عم مدن القطاع وقراه ومخيماته. ففي شهر آذار/ مارس ١٩٥٥، خرج طلاب مدرسة خان يونس الثانوية التي كنت أعمل بها، في تظاهرة، وانضم إليهم طلاب المدارس الأخرى وجموع غفيرة من المواطنين واللاجئين، وساروا في الشوارع يرددون هتافات ضد الإدارة المصرية، ووكالة الغوث الدولية، وأمريكا وإسرائيل، وأحرقوا مخازن الوكالة ومكاتبها، وقذفوا سيارات الجيش المصري بالحجارة، وشتموا الجنود الذين قصروا في حماية القطاع، وصد الغارات الإسرائيلية، وطالبوا بالسلاح ليتمكنوا من الدفاع عن وطنهم. وفي مدينة غزة هاجم المتظاهرون سراي الحكومة. وشهدت رفح أعمال عنف مشابهة، وفقدت الإدارة المصرية السيطرة في البداية رغم استعمال السلاح. وحينما هدأت الأحوال ألقت القبض في ليلة الحادي عشر من آذار/ مارس ١٩٥٥ على قادة التظاهرات، وقامت بتسفيرهم إلى مصر حيث أودعوا السجن. وصدرت أوامر بمنع التجول في أوقات معينة، وصدر قرار بحل نقابة معلمي وكالة الغوث، وإلغاء حق الأضراب والتظاهر والتحريض على الإضراب والاعتصام، وتقديم الشكاوي الجماعية.. إلخ.

واستجابة لمطالب سكان القطاع بضرورة تجنيدهم، أمر الرئيس «جمال عبد الناصر» بإنشاء الكتيبة الفلسطينية على أن تكون من ضمن كتائب الجيش المصري. وقد اختيرت مدينة خان يونس لتكون مقراً لهذه الكتيبة، وعُيّن الأميرالاي (العميد) «علي البوريني» وهو أحد كبار ضباط الجيش المصري، ليكون مسؤولاً عنها، يساعده القائمقام (العقيد) «عبد الرحمن الزفتاوي». وكان مكتبهما في فيلا لآل القدرة، مقابل مدرسة ثانوية خان يونس. وقد عسكر جنود هذه الكتيبة في شمال غرب المدينة، وعلى أراضي يملكها آل الأسطل والعقاد وشبير، وعسكر قسم منهم حول مركز بوليس المدينة. وقد طلب مني إلقاء دروس لجنود وضباط هذه الكتيبة تحت عنوان «إعرف وطنك فلسطين».

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الكتيبة – رغم قلة عدد أفرادها – تمكنت من القيام بأعمال بطولية، وصدت الكثير من الهجمات والإعتداءات المتكررة في القطاع، وسقط منهم عدد من الشهداء. وقد أبلى أفراد هذه الكتيبة وضباطها بلاءً حسناً في عدوان عام ١٩٥٦، وقاموا بأعمال استشهادية وبطولية رائعة.

على الرغم من دخلي المريح نسبياً، وأوضاعي الجيدة، وتمتعي بمكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع، بحيث أصبح اسمي معروفاً في القطاع، فانهالت عليّ الدعوات لإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات التي عقدت في مدن القطاع، إلا أنني شعرت بعدم الارتياح من الأوضاع الاقتصادية المتردية، والاضطرابات المتكررة في القطاع، وشعور غالبية الناس بالتذمر والشكوى من سوء الأحوال، فقررت التعاقد مع بعثة سعودية للعمل مدرساً في المملكة العربية السعودية. وحاول ناظر المدرسة وبعض رجال التربية والتعليم إقناعي بالبقاء في القطاع بسبب تمتعي بمزايا كثيرة، قد لا أحصل عليها في السعودية، ولكنني بقيت مصراً على موقفي، وقلت لهم بأنني أحب التغيير والمغامرة، ولا أرغب الثبات والجمود، وأود التطلع إلى آفاق جديدة لأكسب معارف وتجارب تفيدني في حياتي.

ربما كان أهم حدث قبل مغادرتي القطاع عقد قراني على تلميذتي الآنسة عصمت يوسف السراج، التي سبق وقلت بأنني درستها مادة الفلسفة، وكان والدها الرائد يوسف السراج يعمل مساعداً لحاكم غزة، ثم مساعداً لمدير عام شرطة قطاع غزة، ومدير مدرسة الشرطة بمدينة غزة.

وعقد القران بمنزل والدها بحي الرمال يوم الجمعة الثالث من شهر آب/ اغسطس ١٩٥٦، وقام بعقد القران الشيخ «مصطفى الشوا» القاضي بمحكمة غزة الشرعية.

بعد حوالي شهر ونصف من عقد القران غادرت القطاع إلى القاهرة، حيث وقعت عقد العمل في السفارة السعودية، واستلمت سلفة قدرها مائة جنيه مصري لأتدبر بها أمري، وأدفع ثمن تذكرة السفر، واشتري ما يلزم من الاحتياجات.

فضلت السفر بالبحر وركوب الباخرة من ميناء السويس حتى ميناء جدة في المملكة العربية السعودية، وكانت أول رحلة بحرية أقوم بها. وذهبت إلى شركة «البوسطة الخديوية» في شارع قصر النيل بالقاهرة، واشتريت تذكرة ركوب في أول باخرة تبحر من السويس إلى جدة. وكنت تواقاً لركوب البحر، والاستمتاع بمشاهدة الباخرة وهي تمخر عباب البحر، والموج يحيط بها من كل جانب.

في مدينة جدة

ركبت الباص من القاهرة إلى السويس التي عرفتها في أثناء عملي مع الجيش البريطاني بمعسكر جنيفة، وكثيراً ما كنت أزورها وأتردد عليها، وبخاصة في عطلات نهاية الأسبوع، واستمتع بوجبات السمك في مطاعمها، وأقضي بعض الوقت أشاهد ما هو معروض في أسواقها، وأجلس لتناول فنجان من الشاي في أحد مقاهيها، وأذهب إلى مينائها «بور توفيق» الجميل الأنيق، والذي بني في عهد الخديوي توفيق، بينما أسست مدينة بورسعيد عند بداية قناة السويس على البحر المتوسط في عهد سعيد باشا ابن محمد علي باشا، والذي في عهد حكمه بدأ العمل في حفر قناة السويس. تبدأ القناة من البحر المتوسط في الشمال بالقرب من «بور سعيد» وتنتهي عند «بور توفيق» في جنوب مدينة السويس، أي عند مدخل خليج السويس على البحر الأحمر.

تبددت الفرحة حينما ركبت الباخرة التي كانت سيئة وكئيبة وقديمة جداً، بُنيت قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) أو في أثنائها، واسمها «التالودي». وكانت تقل عدداً من المدرسين المصريين وأسرهم الذين كانوا يعملون في المدارس السعودية. والباخرة مملوكة لشركة البوستة الخديوية، وهي شركة أنشأها «عبود باشا» الذي كان من أبرز رجال الأعمال في مصر.

كانت الرحلة هادئة، ولم نُصادف متاعب والحمد لله، فالبحر الأحمر - على ما يبدو - لا يتعرض للزوابع والأعاصير، ولا يشهد أمواجاً عاتية، وقد يكون سبب هدوئه أنه طولي الشكل، محصور بين حافتين صخريتين هما مرتفعات الحجاز وعسير في المملكة العربية السعودية شرقاً، ومرتفعات متقطعة في مصر والسودان غرباً. وتفصل هذه المرتفعات عن البحر سهول طولية مثل سهل تهامة في السعودية. ويقال أن البحر الأحمر تكون من أخدود انكساري حدث في العصور الجيولوجية. ويبدأ من سهل البقاع في لبنان، مروراً بالأغوار الأردنية - الفلسطينية، وانتهاءً بهضبة البحيرات الإفريقية. وقيل أنه سمي بالبحر الأحمر لاحتوائه على كثير من الشعاب المرجانية الحمراء بشكلها الجميل. ولذلك يذهب الغواصون الهواة إلى بعض مناطق البحر الأحمر للتمتع بمناظر الكائنات البحرية فيه.

توقفت الباخرة في ميناء بورسودان، فاغتنمتها فرصة للنزول إلى البر، والتعرف على ميناء السودان البحري الرئيسي على البحر الأحمر، والذي يصدر منه السودان منتجاته

وحاصلاته الزراعية والحيوانية، وعن طريقه يستورد ما يحتاجه من سلع وبضائع.

كان الجو شديد الحرارة، والرطوبة عالية ومع ذلك، تمكنت من التجول في شوارع «بور سودان»، وتحدثت مع عدد من السودانيين، فأُعجبت بطيبتهم وكرمهم، وحسن لقائهم للغريب، وتناولت الغداء المكون من اللحم المشوي في مطعم بالمدينة، واللحوم في السودان متوفرة وبأسعار زهيدة لكونها بلداً مصدراً للثروة الحيوانية.

واصلت الباخرة سيرها إلى جدة، فوصلناها في وسط النهار، وكانت إجراءات الجمارك والجوازات بطيئة للغاية، فشعرت بالضجر والإرهاق، وبخاصة أن الجو كان شديد الحرارة، والرطوبة عالية لا تطاق. وما أن انتهيت من إجراءات الميناء حتى تنفست الصعداء، ونزلت في ضيافة وزارة المعارف السعودية لبضعة أيام، بانتظار تحديد المنطقة التعليمية والمدرسة التي سأتولى التدريس بها.

شعرت بالندم لمغادرتي القطاع بجوه اللطيف وهوائه المنعش إلى بلد لم أطق حرارته ولم أحتمل رطوبته، ولم أعتدها من قبل، وتولاني الحنين والشوق للوطن، ولكن ذلك كان غير ممكن، وصممت على الاستمرار في هذه التجربة الجديدة والعيش في البيئة التي بدت لي غريبة.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى إدارة المعارف السعودية بجدة لأقدم نفسي للمسؤولين فيها، وأحصل على كتاب التعيين الذي يُحدد المدرسة التي سأعمل فيها. وكان مدير التعليم آنذاك الأستاذ «عبد الله بوقس»، وهو سعودي وشخصية تربوية، تحلى بالخلق الكريم، والأدب الرفيع، وقد أحسن استقبالنا ورحب بقدومنا إلى المملكة، وأخبرني أنه اختارني لأعمل في مدرسة بمدينة الملك سعود العلمية بجدة. وتقع في أرقى أحياء المدينة، ويدرس فيها أبناء الأمراء من الأسرة السعودية والتجار والوجهاء وكبار الشخصيات. وكنت أشاهد السيارات الفارهة التي تحضر التلاميذ في الصباح، وتعيدهم إلى منازلهم بعد انتهاء الدوام الرسمي. ومن حسن حظي أن خصصت إدارة المدرسة سيارة ماركة «شيفروليه» وسائق لإحضاري مع بعض الزملاء إلى المدرسة وإعادتي إلى سكني. وقد اعتبرت ذلك ميزة، أراحتني من شراء سيارة، لم أكن مستعداً لها ولا قادراً على شرائها آنذاك.

نشأت علاقة مودة ومحبة واحترام بيني وبين تلاميذي الذين كنت أدرسهم التاريخ والجغرافية. وتوطدت صلاتي بعدد من أولياء أمورهم الذين دعوني إلى منازلهم، وكانوا معي كرماء، ويستشيرونني في أمورهم، ويطلبون مني النصح والمشورة في كثير من قضاياهم، لأنهم كانوا يعدونني واحداً منهم، فوثقوا بي، وائتمنوني على أبنائهم

وبناتهم، ومنهم من طلب مني إعطاء دروس خصوصية لبناتهم، رغم أن المجتمع السعودي آنذاك كان شديد المحافظة، لا يسمح للمدرسين بتدريس البنات.

توطدت علاقتي ببعض الأسر في السعودية، وعرضوا عليّ فكرة ترشيحي للعمل وزيراً - أي مدير أعمال - لأحد الأمراء السعوديين المعروفين، ونصحوني بالبقاء والاستقرار في جدة، ورحبوا بي، لو تقدمت لخطبة إحدى كريماتهم. فشكرتهم على كرمهم وثقتهم التي أولوني إياها، وقلت لهم بأن لي خطيبة، تعمل الآن في مدارس الكويت، وإني أفضل الذهاب إلى الكويت. فقالوا : إبق معنا هنا، ونحن نعتقد أن مستقبلك هنا أفضل، والمجال هنا أكثر، وأن التقدير والاحترام الذي تحظى به هنا قد لا تلقاه في الكويت.

لا أدري إن كنت قد أصبت أم أخطأت في ترك السعودية بعد انتهاء العام الدراسي، مفضلاً الذهاب إلى الكويت، ولكن بعض أصدقائي ومعارفي الذين بقوا في السعودية، وكانوا لا يحظون بما حظيت به من مودة واحترام وتقدير، حصلوا على الجنسية السعودية، وأصبحوا من أصحاب النفوذ والثروة والحظوة. ولما التقيتهم فيما بعد، لاموني لتركي السعودية.

من التلاميذ الذين علمتهم ولا زلت أذكرهم الأمير سعود وأخاه الأمير محمد أبناء الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود، الذي كان آنذاك وزيراً للمعارف، ثم أصبح ملكاً بعد وفاة أخيه الملك خالد. وكان هذان الأميران وسيمان، ويتحليان بالأدب، ويتميزان بسمو الأخلاق. وكان لكل واحد منهما خادم يرافقه، وكثيراً ما وجها لي الدعوة لزيارتهما في القصر. وكانا يبادلاني المحبة والاحترام. وقد علمت أنهما كان يسألان عني فيما بعد، كلما التقيا بنفر من أبناء بلدي أو أحد من أقاربي.

ومن تلاميذي الذين لا زلت أذكرهم الطالب النجيب «فهد البواردي» وقد سألت عنه حينما تغيب عن الدراسة لأطمئن على صحته، وسبب تغيبه، فلما عاد، طلب مني أن ألبي طلبه، فقلت : طلبك مجاب إن كنت أقدر عليه. فقال : تقدر يا أستاذ. فقلت له هات ما عندك، فقال : أرجوك أن تقبل هذا مني هدية لك. فقلت : وما المناسبة؟ قال : إن سؤالك عني دليل مودة ومحبة، وأنا أشعر بالامتنان، وآمل أن تكون هديتي المتواضعة تعبيراً عن شعوري نحوك. فشكرته، وفتحت العلبة فإذا بداخلها قلم حبر «باركر» ذهبي، من النوع الثمين.

كان من تلاميذي عدد من أبناء «بترجي» يتسمون بخلق رفيع، وكانت لهم صيدليات معروفة في جدة، وكانوا وكلاء لأدوية كثيرة. ومن الأسر الأخرى التي درّست أبناءها،

كانوا من «آل جمجوم»، وأصلهم البعيد من مدينة الخليل بفلسطين، وهم أصهار شيخ الحجاز وعالمها آنذاك الشيخ «عبد الله نصيف»، والذي زرته في منزله واستقبلني أحسن استقبال، وسمح لي باستخدام مكتبته التي استفدت منها كثيراً في أثناء كتابة بحثي عن مدينة جدة. وقد روى لي جانباً من تاريخ الحجاز كما عاشه وشهد أحداثه في عهد الشريف حسين بن علي، واستيلاء الملك عبد العزيز آل سعود على الحجاز بعد ذلك، وقيام المملكة العربية السعودية.

لم يكن نشاطي في جدة مقصوراً على التعليم، بل تعداه إلى أنشطة وفعاليات أخرى، فقد توطدت علاقتي – رغم المدة القصيرة التي قضيتها بجدة، التي لم تتجاوز بضعة أشهر، مع الصحافة السعودية، وكتبت مقالات في بعض الصحف آنذاك. ونشأت علاقة قوية بيني وبين الأستاذ «عبد القدوس الأنصاري»، سكرتير مجلس الوزراء، وصاحب مجلة «المنهل»، وهي مجلة أدبية ثقافية شهرية تشبه مجلة الهلال المصرية المعروفة. وكان «عبد القدوس» أديباً واسع الثقافة والمعرفة، وقد دعاني للكتابة في مجلته ولبيت طلبه.

كان الأستاذ «شكيب الأموي» من الشخصيات الفلسطينية التي تجنست بالجنسية السعودية، ورافق الجيش السعودي حينما شارك الجيش المصري في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وأصله من مدينة صفد. ولما جئت إلى جدة كان يعمل رئيساً لتحرير مجلة «قافلة الزيت» التي كانت تصدرها شركة «أرامكو» النفطية، وقد دعاني إلى الكتابة فيها فوافقت. وكانت مقالاتي في معظمها فلسفية وبعضها عن علم النفس، مما مهد لي افتتاح ركن يعالج قضايا نفسية في الإذاعة السعودية. وكثيراً ما كنت أتلقى رسائل من القراء يعرضون عليّ مشاكلهم النفسية، فاقدم لهم النصح والارشاد. وقد استفدت كثيراً من هذا العمل الذي تطلب مني الاطلاع على مراجع علمية في علم النفس، وأمدني بخبرة أفادتني كثيراً في حياتي وساعدتني في حل المشاكل التي واجهتني أو التي اشتكى منها غيري من الذين كانوا يطلبون مشورتي.

كان مقر الإذاعة السعودية آنذاك في حي «الكنْدَرة» الراقي، وكان مديرها الأستاذ «عبد الله بالخير»، وهو شخصية سعودية محترمة حظي باحترام وتقدير الملك سعود بن عبد العزيز، ومن قبله والده الملك عبد العزيز. وقد تميز بالمرونة والانفتاح، وله الفضل في وضع أسس الإذاعة وتطويرها والنهوض بها وتعزيزها بالكفاءات العربية، ورحب بالإذاعيين العرب الذين استقالوا من محطة إذاعة الشرق الأدنى البريطانية بقبرص على اثر العدوان الثلاثي (بريطاني وفرنسا وإسرائيل) على مصر في شهر تشرين الأول/

اكتوبر ١٩٥٦. وأذكر من الإذاعيين الكبار في الإذاعة السعودية آنذاك، «سعدي بصبوص» الذي كان مدير القسم العربي بإذاعة برلين في عهد هتلر في أربعينيات القرن الماضي، والإذاعي المعروف «غانم الدجاني» و«محمود غنيم» صاحب برنامج «فرسان في الميدان» الذي سار على نهجه فيما بعد «شريف العلمي» في برنامجه «سين جيم»، الذي بدأه حينما انضم إلى إذاعة الكويت في أوائل الستينيات من القرن الماضي. وكان يعمل في الإذاعة السعودية حينما كنت بجدة المذيع الفلسطيني «خميس سويدان» وهو من غزة.

ومن الذين عملوا بالإذاعة السعودية آنذاك المذيع اللبناني المعروف «أحمد سالم» الذي انتقل فيما بعد إلى إذاعة الكويت. وأثناء عملي في جدة سجلت عدة أحاديث أدبية أذيعت من البرنامج الأدبي.

ينطق السعوديون جدة بكسر حرف الجيم، وتشديد الدال لاعتقادهم أنها نسبة إلى جدتنا «حواء» زوجة جدنا الأول آدم، معتقدين أن قبرها في موقع قشلاق العسكر القريب من وزارة الخارجية التي كان مقرها بجدة، وليس الرياض لأن السفارات الأجنبية كانت لا تزال في جدة. وبالرجوع إلى «معجم ما استعجم» للبكري ومعجم البلدان «لياقوت الحموي»، تبين لي أن اللفظ الصحيح هو «جُدّة»، بضم الجيم وتشديد الدال، وتعني الخطة على ظهر الحمار، أي اللون المخالف لبقية جسمه. وبما أن مدينة جدة تقع على البحر الأحمر وبسهل تهامة، فإن لون أرضها يخالف لون الأراضي المرتفعة الواقعة إلى الشرق منها، والتي تشكل بداية مرتفعات الحجاز، فهي أشبه بالخطة على ظهر الحمار. ومما يدعم ذلك ما جاء في القرآن الكريم، بسورة «فاطر»، قوله سبحانه وتعالى: «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها». ومفرد جدد، جدّة.

وليس صحيحاً أن جدتنا «حواء» مدفونة في هذه المدينة، إذ لا أحد يعرف أين عاش آدم وحواء، وأين نشأ واستقر الإنسان الأول، والدراسات حول هذا الموضوع لم تصل إلى رأي قاطع.

كانت جدة حينما قدمت إليها في عام ١٩٥٦ صغيرة الحجم بالمقارنة إلى حجمها الحالي، وكانت لا تزال تحتفظ ببعض أسوارها، ولا زلت أذكر أسماء أحيائها آنذاك مثل حي الصحيفة الشعبي، ومعظم سكانه من العرب الوافدين وبخاصة الفلسطينيين. وكان من أكبر - إن لم يكن أكبر - أحياء مدينة جدة. وفي طرف من أطراف هذا الحي استأجرت منزلاً شبه مستقل، وسكن معي زملاء أفاضل أذكر منهم الأساتذة: «حسين أبوعمارة» من يافا الذي هاجر مع أسرته إلى خان يونس بعد النكبة، و«إدريس أبوشرخ»

من المجدل الذي استقر بعد النكبة في غزة، و«سامي محمد شراب» من خان يونس. وقد سكن معنا شابان من قرى قضاء غزة أذكر أن الاسم الأول لأحدهما «حسني» بينما الآخر من عائلة «أبوشمالة» وكانا على خلق كريم. وكان جميع الزملاء، يحترمونني ويقدرونني ويعدونني بمثابة الأستاذ والأخ الأكبر لهم، لأني كنت أكبرهم سناً، وأحمل درجة الليسانس بينما كانوا من حملة الثانوية العامة «الشهادة التوجيهية».

فضلت السكنى بحي «الصحيفة» لأنه الأقرب إلى أسواق جدة، وتتوفر فيه كل ما يلزمنا من حاجيات يومية، كالمخابز والمطاعم، ومحلات بيع الخضار والفواكه، والمكتبات، فهو حي مكتفي بنفسه، وكأنه مدينة قائمة بذاتها، وربما كان من أقدم أحياء جدة إن لم يكن أقدمها. وكثيراً ما كنت أفضل الذهاب مشياً على الأقدام إلى منطقة الأسواق بوسط المدينة أو أذهب لزيارة السيد «مصطفى حنو» الذي تدربت على يديه الخياطة في محله بخان يونس حينما كنت في المرحلة الابتدائية. وكان لقائي به مصادفة بينما كنت أمشي بشارع «بن زقر» فإذا بي التقيه في محله لبيع مواد البناء، وقد حصل على الجنسية السعودية، وقد رحب بي، وعرض علي خدماته، ودعاني إلى منزله لتناول الطعام فلبيت دعوته شاكراً.

من أحياء جدة «حي الكندرة» الذي سبقت الإشارة إليه، وفيه – كما قلت – الإذاعة، وفندق الكندرة الشهير أفخم وأضخم فندق في جدة آنذاك، ينزل فيه كبار الشخصيات والأثرياء، وبالقرب منه حديقة ومقهى، كنا نقضي فيه وقت الفراغ أيام العطل.

وكان حي البغدادية الأبعد عن وسط المدينة، والأحدث، وكان لا يزال غير مكتظ بالسكان، والبناء فيه قائم ويتميز بهدوئه وبمبانيه الحديثة.

كثيراً ما كنا نذهب في العطلات الرسمية إلى القرى المجاورة لجدة مثل قرية «دهبان» حيث صيادي الأسماك، ويسمي أهل جدة السمك «حوت». والأسماك كانت متوفرة ورخيصة وطعمها لذيذ. وكنا نسافر أحياناً إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، وزيارة البيت الحرام، وقضاء أوقات طيبة في جو روحاني تعبدي يقربنا من الله.

لقد أعجبت بجدة، وأجريت بحثاً ميدانياً عنها، وقدمته أطروحة في السنة الأولى من الماجستير فنال إعجاب الأساتذة بقسم الجغرافية بجامعة القاهرة آنذاك. وفي هذا البحث تناولت نشأة المدينة والميناء، وموقعها وموضعها، وتخطيط شوارعها وأحيائها وسكانها، وأعمالهم.. إلخ.

كان العدوان الثلاثي على مصر أكبر حدث آنذاك. وقد زاد من آلامي وآلام زملائي الساكنين معي احتلال إسرائيل لقطاع غزة. ولكن ربما كان مما خفف عنا وقع هذه المصيبة

تفاعل الجماهير في السعودية وجميع البلاد العربية وقامت التظاهرات، ودمرت أنابيب النفط التابعة للدول المعتدية، وتطوع كثيرون للذهاب إلى مصر ومشاركة المصريين في صد العدوان. وتبرع الناس للسفارات المصرية لدعم المجهود الحربي. وكان شغلنا الشاغل متابعة نشرات الأخبار من عدة محطات إذاعية، ولم يكن التلفزيون معروفاً آنذاك. وكان فرحنا عظيماً وسرورنا كبيراً حينما انسحبت القوات الإسرائيلية من قطاع غزة في شهر آذار/ مارس ١٩٥٧، فزاد شوقنا إلى السفر للقاء الأهل ورؤية أرض الوطن. وما أن انتهى العام الدراسي في شهر حزيران/ يونيو حتى أسرعت بالعودة، وفضلت ركوب الطائرة إلى القاهرة، وبقيت فيها منتظراً عودة خطيبتي من الكويت، وسافرنا معاً إلى غزة حيث استقبلنا الأهل بالترحاب.

عادت الإدارة المصرية إلى قطاع غزة بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي، وعين اللواء «محمد حسن عبد اللطيف» حاكماً عاماً للقطاع، وبدأت الحياة إلى ما كانت عليه في السابق قبل الاحتلال الإسرائيلي، ودخلت لأول مرة وحدات عسكرية من قوات الطوارىء الدولية وعسكرت في مناطق معينة في القطاع، وعلى الحدود بين القطاع وإسرائيل. وعسكرت وحدة يوغوسلافية في سيناء، وأخرى هندية عند محطة سكة حديد دير البلح، وثالثة عند مضايق تيران على خليج العقبة، وسمح لأول مرة، للسفن الإسرائيلية بالمرور من خليج العقبة إلى البحر الأحمر. مما مكن إسرائيل من الاتصال بالأقطار الإفريقية، الواقعة شرقي السويس.

بقدوم قوات الطوارىء الدولية ساد الهدوء والاستقرار في قطاع غزة، وعم الأمن مدنه وقراه، وتمكن عدد كبير من سكان القطاع من العمل مع هذه القوات. كما أن مصر جعلت من غزة منطقة حرة، مما شجع المصريين على السفر والسياحة إلى القطاع وشراء ما يلزمهم من سلع وبضائع أجنبية غير متوفرة في مصر آنذاك. وفي الوقت نفسه أمر الرئيس جمال عبد الناصر بفتح المعاهد والجامعات المصرية للطلبة الفلسطينيين، مما رفع من مستوى التعليم حتى أصبح قطاع غزة يحظى بنسبة عالية تكاد تقترب من نسب البلاد المتقدمة. وحاولت مصر امتصاص القوى العاملة الفائضة عن حاجة القطاع وتوظيفها بمصر، وبخاصة المدرسين، وهذه الإجراءات أدت إلى انتعاش القطاع وازدهاره اقتصادياً ومعيشياً. وفي هذه الفترة بلغ القطاع الأوج في النمو والانتعاش، والفضل في هذا كله لمصر في عهد جمال عبد الناصر.

في الكويت

في عصر يوم الثاني من شهر أيلول / سبتمبر عام ١٩٥٧ حطت بنا أحدى طائرات شركة مصر للطيران من نوع « داكوتا » من فئة الأربع محركات القادمة من القاهرة، على مدرج مطار الكويت خارج السور الذي كان يحيط بمدينة الكويت من جميع الجهات فيما عدا البحر. وقد تحولت منطقة المطار فيما بعد إلى ضاحية النزهة الجميلة، والتي اصبحت فيما بعد من أجمل ضواحي العاصمة.

ما إن فتح باب الطائرة حتى اندفع هواء شديد الحرارة، لفح وجوهنا وكأنه شواظ من نار. وعلى الفور أحضر عمال المطار السلم المتحرك إلى باب الطائرة، وطلب منا النزول إلى الأرض، حيث وجدنا في استقبالنا موظفي الإسكان والجوازات بإدارة المعارف الكويتية، وعلى رأسهم « عبد الله الجاسم » بدشداشته الناصعة البياض، وجسمه البدين، وقامته المتوسطة الطول، وبشرته السمراء.

كان « عبد الله الجاسم » بشوشاً سمحاً ولطيفاً، وقد رحب بقدومنا وهنأنا بسلامة الوصول، وقادنا إلى خيام كبيرة نصبت على شكل سرادق، تقام عادة سنوياً في موعد قدوم المدرسين، الجدد والقدامى، من الخارج بعد قضاء عطلة الصيف التي لا تقل عن ثلاثة أشهر.

دخلنا الخيمة الكبيرة المفروشة بالسجاد والبسط، ووضعت بداخلها كراسي ومقاعد ومناضد، وسُمح لنا بالجلوس، وقدم لنا السعاة المرطبات والماء البارد والشاي المخلوط بحب الهال، في أكواب زجاجية صغيرة تستعمل في منطقة الخليج، يسمونها « استكانات » ومفردها « استكانة ».

أقبلنا على شرب الماء البارد والمرطبات لنخفف عن أنفسنا شدة الحرارة وسخونة الهواء، وشعرنا ونحن نشرب الماء وكأننا نتذوقه تذوقاً مختلفاً عن كل مرة.

لقد كان للمعاملة الطيبة، والاستقبال الحسن، والبشاشة التي بدت على مُحيا المستقبلين وترحيبهم بنا الأثر الكبير في تحملنا قسوة الجو وسخونة الهواء.

طلب منا الموظف المختص بالجوازات بالمعارف « فؤاد جاب الله » وهو مصري، أن نسلمه جوازات سفرنا لأخذها إلى مسؤول جوازات المطار، لوضع ختم الدخول عليها، وأخذها بعد ذلك لحفظها لدى القسم المختص بدائرة المعارف، فالإجراءات المتبعة الاحتفاظ بجوازات سفر العاملين من غير الكويتيين، ولا تسلم لهم إلا عند التصريح لهم بالسفر إلى الخارج.

حمل العمال حقائبنا وأمتعتنا الشخصية ووضعوها في باصات دائرة المعارف التي كانت تنتظر قدومنا لتنقلنا إلى مكان الضيافة، بينما تنقل المدرسين القدامى وعائلاتهم إلى مساكنهم.

أعطى «عبد الله الجاسم» كل قادم جديد سلفة على الحساب مقدارها ثلاثون روبية لندبر أمورنا حتي نتسلم رواتبنا في آخر الشهر. وكانت الكويت تتعامل آنذاك بالروبية، وهي عملة هندية تعادل ٧٥ فلساً، وتساوي ١٢ آنة. ولا شك في أن استعمال العملة الهندية، وتولي الهند شؤون البريد آنذاك، كان من بقايا نفوذ الهند حينما كانت مستعمرة بريطانية. وكانت منطقة الخليج العربي في تلك الفترة تتبع الهند التي كان حاكمها البريطاني يلقب بنائب الملك، في حين كانت البلاد العربية الأخرى مثل فلسطين والأردن تتبع وزارة المستعمرات البريطانية بلندن.

كانت الطائرة التي أقلتنا من القاهرة إلى الكويت تحمل ستة وخمسين مدرساً معظمهم من قطاع غزة، أذكر منهم أستاذيّ السابقين بمدرسة خان يونس الإبتدائية «كامل اللحام» و«جرير القدوة» والزملاء: زكريا برزق وسعيد خاص وعبد الهادي زيدان.

كان مطار الكويت بسيطاً ومتواضعاً يتالف من مدرج بسيط يسمح بهبوط الطائرات من الحجم الصغير، ولم تكن الطائرات الكبيرة قد عرفت بعد. ولم تزد حمولة الطائرة الواحدة آنذاك عن ثمانين راكباً. وفي بداية الستينيات بدأت طائرات من نوع «كارافيل» تهبط في مطار الكويت، وكان ذلك حدثاً عظيماً، حيث توجهنا إلى المطار لمشاهدة هذا النوع الحديث المتطور من هذه الطائرات. وكانت الطائرة DC10 أول طائرة كبيرة، وضخمة تحط في مطار الكويت الجديد عام ١٩٦٦ حيث كنت على متنها قادماً من لندن، ويومها خرج كثيرون لمشاهدتها.

كان المطار – حينما هبطنا فيه – يحتوي على برج صغير للمراقبة يتولى إرشاد الطائرات القادمة والمغادرة، وقرب هذا البرج أقيمت مباني بسيطة لمكاتب الجوازات والجمارك والخدمات الأخرى، ولم تكن مساحة المطار تزيد على أربعين دونماً، وتحيط بالمطار أسلاك شائكة لمنع الرعاة وقطعانهم من الدخول إلى المطار وتعطيل الحركة فيه.

بدت لنا أرض المطار والمنطقة من حوله قاحلة خالية من النباتات والأشجار، وليس فيها أي مظهر من مظاهر العمران. وكان موقع المطار بين مدينة الكويت وقرية حولي. وكانت المدينة محاطة بسور مبني من الطين لحماية سكانها من الأخطار، وبخاصة الغزوات التي كانت تتعرض لها، وكان آخرها هجوم «فيصل الدويش» وجماعة «الإخوان» حيث دارت معركة الجهرة غرب مدينة الكويت في عام ١٩٢٠. وكان لسور الكويت

بوابات تتحكم في الدخول والخروج من وإلى الكويت، وتقفل في الليل. ومن البوابات التي أذكرها : بوابة المقصب قرب الخليج، وبوابة الجهرة التي تؤدي إلى قرية الجهرة، وبوابة الشامية، وبوابة البريعصي في الجهة الجنوبية. وقد ظل هذا السور قائماً حتى عام ١٩٥٦، حيث بديء في إزالته، بعد اتساع العمران. وامتداده خارج السور. وكان حي «الشامية» أول ما بني خارج السور[١].

تحركت الباصات التي أقلتنا من المطار إلى مباني القسم الداخلي بمدرسة ثانوية الشويخ، والتي كانت المدرسة الثانوية الوحيدة في الكويت. وقد بنيت هذه المدرسة في عام ١٩٥٤، وهي التي تحتلها اليوم بعض كليات جامعة الكويت، وكانت تبعد عن مركز مدينة الكويت – ساحة الصفاة – بنحو خمسة كيلومترات، وتبلغ مساحة الأرض التي خصصت للمدرسة نحو خمسين دونماً. تضم مباني من أهمها، مبنى الإدارة العامة، وبرجاً للساعة، وغرفاً صفية – أي قاعات دراسية – ومدرجات، منها مدرج كبير مخصص للاحتفالات والمحاضرات العامة، وملاعب رياضية، ونادي بحري، و«ستاد» رياضي كبير، وعنابر واسعة لسكنى طلبة القسم الداخلي بالمدرسة. وكانوا، في الغالب من الكويتيين الذين يسكن ذووهم بعيداً عن مدينة الكويت، علاوة على عدد من الطِلبة المبعوثين من أقطار عربية.

وفي المدرسة مسجد تؤدى فيه الصلوات الخمس يومياً، وصلاة الجمعة حيث كان كثير من الناس يقصدون هذا المسجد للاستماع إلى الخطيب «الشيخ علي عبد المنعم» الذي كان من الإخوان المسلمين المصريين، غادر مصر بعد معاناة الإخوان من النظام في مصر، وفضل الاستقرار في الكويت.

وتضم مباني المدرسة، مساكن مستقلة «فيلات» لسكنى مدرسي المدرسة، وبخاصة من أعضاء البعثة المصرية. وكانت المساكن فخمة وجميلة ومساحة أرض كل «فيلا» نحو دونم، مزروعة بالأزهار والأشجار. وكان ناظر المدرسة مصري الجنسية واسمه «عبد المجيد مصطفى» ومن رجال التربية والتعليم البارزين، وقد تميز بشخصيته القوية، ويرأس، في الوقت نفسه البعثة التعليمية المصرية في الكويت، ويرجع إليه كثير من المصريين في الكويت في حل مشاكلهم، فكان بمثابة سفير بلا سفارة، أو قنصل بلا قنصلية، فالكويت لم تكن آنذاك قد حصلت على استقلالها، ولم تكن فيها سفارات أو قنصليات، فيما عدا سفارتي بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية.

كان لناظر مدرسة الشويخ الثانوية وكيلان يساعدانه في إدارة المدرسة، وقد تعرفت، فيما بعد على أحدهما وهو الأستاذ «جميل الصالح»، وهو فلسطيني الأصل، ومن

أبرز المتخصصين في الرياضيات، وقد أصبح فيما بعد رئيس توجيه الرياضيات بوزارة التربية. وتوفي في حادث سير مروري، وكان رحمه الله يتميز بأخلاقه السامية واستقامته ونزاهته.

خصصت دائرة معارف الكويت بعض عنابر القسم الداخلي بمدرسة الشويخ الثانوية، لاستضافة المدرسين الجدد الذين تتعاقد معهم من الخارج كل عام. وكانت مدة الضيافة ثلاثة أيام فقط، وفي هذه الأثناء يكون الطلبة لا يزالون يقضون ما تبقى من الإجازة الصيفية.

حينما نزلنا من الباص إلى عنبر الضيافة كان الجو شديد الحرارة والرطوبة شديدة، فاتجهنا نحو مبرد الماء لنروي ظمأنا، وتعمدنا أن نسكب بعض الماء على وجوهنا، ونجلس قرب المراوح، فالمكيفات لم يكن قد شاع استعمالها آنذاك.

يبدو أنه بسبب إسرافنا في شرب الماء ولشدة الحر والرطوبة الشديدة شعرنا بالارتخاء والخمول مع صداع شديد فارتمينا على الأسرة دون وعي وبملابس السفر التي تكاسلنا عن خلعها، ولكننا لم نستطع النوم في هذا الجو الذي لم نألفه، وصرنا نتقلب على السرير والعرق يتصبب من أجسامنا.

أخذت الشمس تميل نحو الأفق تدريجياً، وانكسرت حدة الحرارة، وبدأ الكرى يداعب الجفون. وما أن غفونا ساعة أو أقل، حتى صحونا على جلبة وضوضاء، وأصوات أشخاص يحملون أطباقاً وملاعق وسكاكين، وقدور تفوح منها رائحة طعام مؤلف من أرز ولحم مطبوخ مشبع بالتوابل والبهارات، وتقدم شخص وقال: تفضلوا... إن الطعام جاهز ولما سألته عن نوع الطعام، قال: إنه برياني، وهو من الأطعمة الهندية المنتشرة في الخليج، وطعمه لذيذ. ثم قدموا لنا الفاكهة - التفاح والموز.

بعد هذه الوجبة الدسمة المشبعة بالبهارات كان لا بد من شرب الماء، فشعرنا بمزيد من الارتخاء والخمول وظهرت بوادر تعب في المعدة، واستلقيت على السرير دون أغطية والمراوح في السقف تعمل بكامل طاقتها، وغلبني النعاس، وصحوت على أشعة الشمس في الصباح تتسلل من النوافذ، وانتابني مغص شديد أعقبه إسهال مستمر مما استدعى تناولي حبوب ضد الإسهال، اسمها التجاري «انترافورم»، وامتنعت عن تناول الطعام إلا اللبن الزبادي (الرايب) والليمون والشاي بدون سكر.

في المساء قمت مع بعض الزملاء بجولة على الأقدام للتعرف على معالم مدرسة الشويخ الثانوية التي كانت آنذاك من أهم معالم الكويت العمرانية. ولعل من أهم مزايا المدرسة كثرة حدائقها التي تحتوي على كثير من الأشجار والأزهار، ولذلك كان الناس يقصدونها، وبخاصة في أيام العطل والأعياد، للتنزه والاستجمام.

لفتت انتباهي ظاهرة المد والجزر، وهي غير مألوفة في بلادنا الواقعة على البحر المتوسط، ولكننا درسناها في الجغرافيا. وقد حرصت على مشاهدة المياه وهي تتقدم نحو البر حين المد، وتقهقر المياه عائدة نحو الخليج حين الجزر. ويعرف كثير من الكويتيين، وبخاصة الذين لهم علاقة بالحرف البحرية، أوقات المد والجزر، فيذهبون للسباحة في فترة المد، كما يستفيد صيادو الأسماك من حركة المد والجزر، فينصبون مصائد لصيد السمك ويسمونها «قراقير»، وهي أشبه بأقفاص مصنوعة من الأسلاك المعدنية لها فتحات يدخل منها السمك في أثناء المد، ولا يستطيع الخروج في الجزر. كما كانوا ينصبون «الحظيرة» وهي أشبه بحائط من البوص أو الأسلاك وشكلها شبه دائري تقام في مياه المد، فيمنع السمك من العودة إلى البحر حينما ترتد مياهه في الجزر.

ما أن علم الفلسطينيون الذين كانوا يعملون في الكويت بقدومنا حتى جاءوا إلينا، وقد تعرف بعضهم على أقاربه أو أصدقائه أو معارفه أو أبناء بلده من القادمين، وعرضوا تقديم خدماتهم لهم، ودعوهم إلى منازلهم وقدموا لهم الطعام. وكانوا يشعرون بالسعادة وهم يلتقون بالقادمين، فيسألونهم عن أقاربهم وأحوال مدنهم وقراهم، وبخاصة أن التلفونات لم تكن آنذاك معممة في المنازل. ولم يكن الاتصال التلفوني بالخارج ميسراً وسهلاً كما هو اليوم، وتستغرق الرسائل مدة طويلة حتى تصل إلى أصحابها، وفي الوقت نفسه كان المقيمون في الكويت يرغبون في الذهاب إلى مدرسة الشويخ للتمتع بحدائقها وساحاتها الخضراء، ويقضون فيها بعض الوقت. فالكويت في الصيف تبدو شبه خالية من السكان، لأن معظم العاملين فيها يغادرونها هرباً من الحر الشديد ويقضون عطلاتهم بين الأهل. وكثير من الكويتيين كانوا يقضون الصيف خارج الكويت. وكان معظم الموظفين يحسدون المدرسين على العطلة الصيفية الطويلة التي تزيد على ثلاثة أشهر.

ذهبنا في اليوم الثاني من وصولنا إلى مقر دائرة المعارف، والتي كانت تقع في منتصف شارع «الجهرة» الذي يبدأ من ساحة «الصفاة» وينتهي عند بوابة «الجهرة» وقد سميت بهذا الاسم لأنها تؤدي إلى قرية «الجهرة» غرب مدينة الكويت.

كان مبنى دائرة المعارف، مكوناً من ثلاثة طوابق، ومن المعالم البارزة في الشارع آنذاك، حيث كانت أبنية المحلات والحوانيت بسيطة متواضعة. وفي الستينيات بدأت عملية هدم هذه الأبنية وأقيمت مكانها عمارات فخمة تحتوي على محلات تجارية ومكاتب شركات ومطاعم.. إلخ، وتغير اسم الشارع ليصبح شارع «فهد السالم»، تيمناً بالشيخ فهد الذي كان رئيس دائرة الأشغال العامة آنذاك. والشيخ فهد هو أخ لشيخ الكويت في ذلك الوقت «عبد الله السالم الصباح».

كان على رأس دائرة المعارف الشيخ «عبد الله الجابر الصباح»، وهو شخصية كريمة، سمحة ويحظى بمحبة الجميع واحترامهم، ويتسم بالتواضع والنبل وسمو الأخلاق، يعامل الجميع كأبنائه، ويعتز بعروبته. وكان رغم كبر سنه قوي الذاكرة، قلما ينسى من يراه أو يتعرف عليه.

كان لدائرة المعارف مديران : أحدهما مسؤول عن الأمور التعليمية والتربوية والفنية، واسمه الأستاذ «عبد العزيز حسين». وهو من الرعيل الأول من متعلمي الكويت، واصل تعليمه الجامعي في مصر، وقيل أنه تخرج في الأزهر الشريف. وقد حاز على ثقة رئيسه الشيخ «عبد الله الجابر»، لكفاءته الإدارية والتربوية، وإخلاصه في عمله، وكان يساعد الأستاذ «عبد العزيز حسين» مربٍ فاضل اسمه الأستاذ «درويش المقدادي»، من أصل فلسطيني ومن قضاء طولكرم. وكان من رجال التربية والتعليم بفلسطين منذ بداية عهد الانتداب البريطاني. وقد كان من رموز النضال الوطني في فلسطين، فطاردته سلطة الانتداب، فاضطر للرحيل إلى العراق، وأحسن العراقيون وفادته وعينوه في منصب تربوي رفيع. وفي الخمسينيات من القرن الماضي اتصل شيخ الكويت «عبد الله السالم الصباح» بالحكومة العراقية طالباً استعارته للاستفادة من خبراته التربوية، في تنظيم دائرة المعارف على أسس حديثة.

كان الأستاذ «درويش المقدادي» مغرماً بالآثار، ولذلك أكثر من السفر بالطائرة العمودية «هليوكبتر» إلى جزيرة «فيلكة» حيث كانت تقوم بعثة دانمركية بالتنقيب عن الآثار فيها. وفي إحدى سفراته أصيب بحادث – قيل أن رأسه ارتطم بالطائرة حينما تعرضت لمطب شديد – فمرض ومات، وحزن عليه كثيرون، وفقدت الكويت بوفاته شخصية تربوية مرموقة ساهم في بناء نهضتها العلمية والتربوية.

أما المدير الآخر في دائرة المعارف فكان الأستاذ «خالد المسلم» وهو المسؤول عن الشؤون المالية والهندسية والإدارية وكان يحظى باحترام وتقدير من يعملون تحت إمرته.

كان يطلق على موجهي المواد مفتشون، كما هو الحال آنذاك في معظم البلاد العربية. وحينما قدمت الكويت – في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧ – لا زلت أذكر أسماء هؤلاء المفتشين وهم الأساتذة : أحمد أبو بكر (مصري) مفتش اللغة العربية، وحسن علي الدباغ (فلسطيني) مفتش اللغة الإنجليزية، وزهير محمود الكرمي (فلسطيني) مفتش العلوم، ومصطفى أبو عيانة (مصري) مفتش الرياضيات، وعثمان فيظ الله (مصري) مفتش المواد الاجتماعية، وكامل بنقسلي (سوري) مفتش إداري ومناشط حرة.

في مساء اليوم الثالث انتهت مدة الضيافة، ولا بد من الخروج، وكنت في هذه الفترة

قد تعرفت على شخص من قطاع غزة اسمه «مصطفى عايش»، وكان قد اتفق على السكنى مع صديق له اسمه «فوزي العمري» من يافا، ويعمل موظفاً في دائرة الأشغال العامة. وهو كريم الخلق، مرهف الحس، ومحب للفن وبخاصة الموسيقى. كان «مصطفى عايش»، واسع الأطلاع، موسوعي الثقافة، أجاد اللغتين العربية والانجليزية، كثير القراءة والاطلاع، وهو مناقش ومجادل صلب، يتسم بالعناد واعتداد بالنفس. وقد ظل طيلة الأيام القليلة التي مكثتها معه في السكن يحاورني ويناقشني ويجادلني في مواضيع شتى، وبخاصة في الأدب والفلسفة والتاريخ، والعقائد والأيديولوجيات والسياسة والاقتصاد، وبدا لي أن ميوله يسارية، وقد تميز بعصاميته ومثابرته حتى حصل على درجة الدكتوراه فيما بعد وعمل بالمالية.

كان من الصعب عليّ البقاء في السكن مع «مصطفى عايش» و«فوزي العمري» لوقوعه في حي الشرق، قرب المستشفى الأميري، في حين أن عملي في مدرسة حولي المتوسطة التي تبعد ١٢ كيلومتراً عن مدينة الكويت، فاستأذنت منهما بالخروج. وأذنا لي مشكورين، ومن كرمهما لم يأخذا مني أجرة الأيام التي مكثتها معهما في السكن.

كان ناظر المدرسة آنذاك الأستاذ «محمد محمود نجم» وهو فلسطيني من قرية اسدود بلواء غزة، تخرج في كلية دار العلوم. وكان الأستاذ «محمد نجم» ضليعاً في اللغة العربية، وقد اتسم بطيبته وسماحته، وحسن تعامله مع المدرسين. وفي عام ١٩٥٨ عُين مفتشاً في دائرة المعارف، ثم رقي فيما بعد إلى رئيس تفتيش (توجيه) اللغة العربية، وخلفه في نظارة المدرسة الأستاذ «حسن بيومي قنديل» مصري الجنسية، ومتخصص في اللغة العربية أيضاً.

كان وكيل المدرسة الأستاذ «عبد الوهاب القرطاس»، كويتي ومن أصل عراقي، بينما عمل الأستاذ «كامل علي الدباغ» سكرتيراً للمدرسة. وقد نشأت بيني وبينه صداقة حميمة وعلاقة وثيقة. وكان ذا خلق كريم وأدب جم وحس مرهف. ومن الذين توطدت علاقتي بهم في المدرسة الأستاذ «عبد الرحيم القيشاوي» وهو من غزة، وكان أميناً للمكتبة، وقد تميز بالهدوء والسماحة وطيب الخلق والقدرة على التحمل، فلم أره يوماً غاضباً أو حانقاً، وكنت أزوه في المكتبة، وأسميه «زينون» اليوناني الذي عمل أميناً لمكتبة الإسكندرية في عهد البطالمة[٢]. ومن زملاء السكن أذكر الأستاذ «سليمان سلطان»، وكان زميلي بالمدرسة وهو رجل فاضل.

جاءني الأستاذ «سليمان سلطان» يوماً وأخبرني أنه اتفق مع عدد من الأصدقاء على

استئجار شقة ممتازة في شارع العثمان بحي «النقرة»، وأنه يود أن أكون معهم، وقال إنهم من الذين يكرمون أنفسهم، ويرغبون في أن يعيشوا في مستوى يليق بمكانة الأستاذ، وليس من الذين يسكنون في مساكن متواضعة ورخيصة، ويحيون حياة البساطة والتقشف، وكانت العمارات ذات الشقق الفخمة نادرة في حولي، ربما لكونها قرية، بيوتها على النمط الشرقي، أي غرف ومطبخ وحمام، وأمامها ساحة غير مسقوفة، وتسمى «حوش»، وجمعها «أحواش». ونظراً لندرة الشقق الفخمة فإن إيجارها كان عالياً. وقد استأجرنا طباخاً ليطهو لنا الطعام، وينظف الشقة، ويشتري اللوازم من مأكل وخلافه، وكان صاحب العمارة فيما أذكر «دخيل الرهيّف».

وافقت على الفور، وشكرت الأستاذ سليمان على اختياره لي، وحسن ظنه بي، ولا زلت أذكر زملائي في الشقة إلى جانب سليمان سلطان، وهم الأساتذة: «صخر حمدي الحسيني» من غزة، وكان يعمل محاسباً في دائرة المعارف، و«خالد هاشم» من دمشق، ويعمل معي مدرساً في مدرسة حولي وصديقه «عرفان» من دمشق أيضاً، و«عثمان سعدي»، و«جموعي مشري»، و«شرحبيل» وهم من الجزائر، ويدرسون اللغة العربية معي في المدرسة. وقد درسوا اللغة العربية بمصر إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، وتعاقد معهم الأستاذ عبد العزيز حسين للعمل في معارف الكويت دعماً للثورة الجزائرية التي بلغت آنذاك ذروتها. وكان «عثمان سعدي» الذي عمل لفترة من الوقت سكرتيراً لأحمد بن بيلا قائد ثورة الجزائر، على اتصال برموز الثورة، وبخاصة رئيسه السابق «أحمد بن بيلا» الذي أصبح أول رئيس للجزائر بعد استقلالها في عام ١٩٦٢. وقد عمل «عثمان سعدي» إلى جانب كونه مدرساً للغة العربية بمدرسة حولي، على تحرير ركن الجزائر بإذاعة الكويت، وكنت كثيراً ما ألتقيه في الإذاعة، إذ كنت قد سبقته إليها، حينما قمت بكتابة أحاديث أدبية وبرامج إذاعية، وتحرير ركن فلسطين. وحينما استقلت الجزائر عُيّن «عثمان سعدي» سفيراً للجزائر في أكثر من بلد عربي. ورغم أنه من أصول بربرية، إلا أنه كان مؤمناً بعروبته وبعروبة البربر، وقد ألف كتاباً عنوانه «عروبة الجزائر»، وأهداني نسخة منه. أما «جموعي مشري» و«شرحبيل» فقد عادا إلى الجزائر بعد الاستقلال وعينا في مراكز قيادية في وزارة التربية الجزائرية. وحينما زرت الجزائر مرتين في ثمانينيات القرن الماضي اتصلت بكل من «جموع مشري» و«عثمان سعدي»، فرحبا بي، وأبديا رغبة صادقة في تقديم أية خدمة أحتاج لها، فشكرتهما.

كان «صخر حمدي الحسيني» من أكثر المقربين إليّ، فقد جذبتني إليه خصاله الحميدة، وطبعه الهادىء ورزانته، وسداد رأيه، وعميق تفكيره. ولا غرابة في هذا فقد ورث هذه

الخصال عن والده الذي كان من أعيان مدينة غزة، وقد رشح نفسه في أواخر عهد الانتداب، أي عام ١٩٤٦، لرئاسة بلدية غزة، فحقق فوزاً على رئيسها السابق الأستاذ «رشدي سعيد الشوا»، ولكن بفارق بسيط» إلا أن المندوب السامي البريطاني السير «ألن كننجهام» فضل إبقاء السيد رشدي الشوا في منصبه، وقيل يومها أن السبب كان لميول السيد/ حمدي الحسيني اليسارية.

لم يكن أحد منا في السكن يملك سيارة خاصة، فلم نكن بحاجة إليها، وليس لنا أسر تتطلب وجود سيارة تلبي متطلباتنا، فقد كان باص المدرسة مكلف بنقلنا من وإلى السكن والمدرسة، وكان التدريس على فترتين: فترة صباحية تبدأ من الساعة السابعة صباحاً، وحتى الثانية عشرة ظهراً، وتتألف من خمسة دروس أو حصص، بينهما استراحة. أما الفترة المسائية والمؤلفة من درسين فقط، فتبدأ من الثالثة عصراً وتنتهي في الخامسة مساءً.

كانت دائرة المعارف تقدم وجبات خفيفة في موعد الغداء للطلبة والمدرسين، تحتوي على بيض مسلوق وشرائح (سندويتشات) محشوة بالجبن واللحم. وفي بعض الأيام تقدم وجبة «البرياني» الدسمة والشهية حيث يقبل على تناولها الجميع.

كان التعليم آنذاك متاحاً للجميع، وبالمجان، ومن حق كل من كان يقيم على أرض الكويت – سواء كان كويتياً أو وافداً – أن يدخل ابنه أو ابنته في المدارس الحكومية، ولم تكن المدارس الخاصة موجودة في الكويت آنذاك، إذ لا حاجة لها، وبدأت المدارس الخاصة بالظهور في ستينيات القرن الماضي، وذلك حينما وضعت الحكومة قيوداً وشروطاً على قبول التلاميذ غير الكويتيين، ثم جعلت التعليم في مدارسها الرسمية مقصوراً على الكويتيين فقط، فيما عدا أبناء المدرسين، وبعض الاستثناءات الخاصة، وكان جميع الطلبة، قبل تلك القيود، يتمتعون بما كانت تقدمه دائرة المعارف من خدمات، كالمواصلات بالباصات من المنازل إلى المدارس وبالعكس، ووجبات الطعام، وقماشاً لتفصيل الزي المدرسي.

لم تكن خدمات التربية والتعليم كل ما كان يقدم لجميع المقيمين على أرض الكويت فقط، وإنما كانوا يتمتعون أيضاً بالخدمات الطبية في المستوصفات والمستشفيات والأدوية، وكلها بالمجان.

كان معي في المدرسة زملاء أفاضل أذكر منهم الأساتذة: داود سنقرط من الخليل، وتيسير النابلسي من نابلس، وتوفيق أبو سمرة من غزة، وقد درّسني في مدرسة خان يونس الإبتدائية، ثم في مدرسة الإمام الشافعي الثانوية بغزة، ورأفت النحاس من الرملة.

ومن المدرسين الكويتيين أذكر الأستاذ «شوقي الأيوبي» وكان شاعراً ورحالة، جاب البلاد العربية، والشرق الأقصى حتى أندونيسيا، وكنت أشعر بالسعادة والمتعة وهو يسرد لي وللزملاء قصص رحلاته ونوادره ومغامراته، وأخبار البلاد التي زارها وأحوالها، وكنا نسميه «ابن بطوطة الكويتي».

ومن المدرسين الكويتيين أذكر الأساتذة : علي البداح، وفؤاد المشري الذي ترك التدريس والتحق بوزارة الخارجية بعد استقلال الكويت في عام ١٩٦١، وكان معنا مدرساً آخر من الكويت أو من عُمان اسمه «غازي العماني».

ربما كان أهم حدث شخصي لي في الكويت زواجي في مساء الثامن عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٧ بمنزل الصديق الأستاذ «موسى حسين أبو ستة» الذي كان يعمل آنذاك مدرساً للعلوم بمدرسة الشامية المتوسطة. وكانت حفلات الزواج آنذاك تقام في المنازل، إذ لم يكن في الكويت فنادق فخمة أو مريحة بها قاعات مناسبة لحفلات الزواج. وكان من الذين حضروا حفل الزواج الأساتذة : درويش المقدادي، نائب مدير المعارف وزوجته المربية الفاضلة السيدة ربيحة الدجاني وعبد المجيد مصطفى ناظر ثانوية الشويخ ورئيس البعثة التعليمية المصرية وزوجته، ومصطفى أبو عيانه، مفتش الرياضيات وزوجته، وأحمد أبو بكر، مفتش اللغة العربية وزوجته، والمربية الفاضلة «علياء محمد عمارة» ناظرة مدرسة القبلية المشتركة للبنات حيث كانت زوجتي «عصمت يوسف السراج» تعمل فيها، كما كانت مدرسة سابقة لها درّستها في مدينة يافا قبل النكبة، وهي مصرية الجنسية. وحضر حفل الزواج أيضاً الصيدلي خالد أبو خضرا وزوجته.

كان من التلاميذ المتفوقين الذين درستهم ولا زلت أذكرهم : سفيان عبد المجيد وشقيقه سعيد الذي تخصص فيما بعد في طب العظام، وعبد الرحيم الخواجا الذي أصبح مهندساً معروفاً، وكان الطالب «يرموك العش» - وهو سوري - الأول على زملائه.

١- كلمة «الشامية» مشتق من الشمال، وقد سميت بلاد الشام بهذا الاسم لوقوعها شمال الكعبة. وكان الناس في الماضي يقولون : أنا رايح شامة»، اي متجه صوب الشمال. ونجد في بعض المدن العربية القديمة، مثل مدينة جدة في المملكة العربية السعودية - على سبيل المثال - حياً من أحيائها يسمى «حي الشامية» ويقع في شمال المدينة.

٢- نسبة إلى بطليموس احد قادة الاسكندر المقدوني، وقد حكم مصر بعد وفاة الاسكندر، وتوارثت سلالته الحكم في مصر، وكانت «كليوبترا» آخر هذه السلالة البطلمية، حيث خضعت مصر بعد ذلك للحكم الروماني.

وصف عام للكويت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي والأحداث الهامة

كانت الكويت حينما قدمت إليها في عام ١٩٥٧ لا تزال تحتفظ بمعظم معالمها القديمة من مساكن وأحياء وشوارع وأسواق، علماً بأن البلاد بدأت منذ بداية الخمسينيات تشهد نهضة شملت جميع المجالات من عمرانية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعلمية، وذلك حينما تم تطبيق اتفاقية مناصفة الأرباح بين الحكومة والشركات النفطية. وقد طبقت هذه الاتفاقية في كانون أول/ ديسمبر ١٩٥١، بحيث تتقاضى حكومة الكويت ٥٠٪ من الأرباح الحقيقية للنفط المنتج والمصدر للخارج. ومن المعلوم أن شركة نفط الكويت - التي كانت مملوكة مناصفة بين شركة البترول البريطانية، وشركة جلف الأميركية - حصلت على امتياز بترول الكويت عام ١٩٣٤. وكانت تدفع للحكومة أربع شلنات وست بنسات عن كل طن مستخرج ويصدر للخارج. وكان يطلق على هذا النوع من العائدات النفطية نظام «عائد الطن»، وفيه ظلم كبير للبلاد المنتجة للنفط، ونهب لمواردها بثمن بخس.

إن الذي جعل شركة نفط الكويت تقبل بتطبيق اتفاقية مناصفة الأرباح مطالبة الحكومة، وإحساسها بتذمر الأقطار المنتجة بالظلم والغبن مما جعل الدكتور «محمد مصدق» رئيس وزراء إيران إلى تأميم النفط (١٩٥١ - ١٩٥٣)، ونشوب أزمة كبيرة بعد ذلك. كما أن شركة «أرامكو» في المملكة العربية السعودية قامت بتطبيق مبدأ مناصفة الأرباح.

لقد نجم عن تطبيق اتفاقية مناصفة الأرباح زيادة الايرادات ففي عام ١٩٥٣ قفزت هذه الايرادات إلى ما يعادل ١٦٩ مليون دينار كويتي، في حين لم تزد هذه الإيرادات في السنة التي قبلها عن ٥٧ مليون دينار. وفي عام ١٩٥٧ قفزت الإيرادات لتصل إلى ٣٠٨ مليون دينار. وكان هذا رقماً كبيراً آنذاك لبلد كالكويت لا يزيد عدد سكانه على ٢٠٦ ألف نسمة، ومتطلبات حياتهم لم تزل بسيطة[١].

لقد دفعت هذه الزيادة الكبيرة في الإيرادات المسؤولين إلى ضرورة بناء البنية التحتية اللازمة لبناء الكويت الحديثة. وقد كان من أهم ما اشتملت عليه هذه البنية التحتية إنشاء الأحياء والطرق والمرافق والخدمات وإقامة المشاريع العمرانية والاقتصادية، والنهوض بالشؤون التعليمية والصحية، كبناء المدارس والمستوصفات والمستشفيات، وتزويدها

بالأجهزة والمعدات اللازمة وتهيئة الكوادر المطلوبة.

في عام ١٩٥٧ كانت جميع أحياء مدينة الكويت داخل السور الذي هدم آنذاك، فيما عدا حي الشامية وحي الشويخ اللذان بنيا خارج السور. وكانت أحياء الكويت آنذاك: القبلة[٢] والشرق[٣] والصالحية والمرقاب والصوابر.

كانت غالبية البيوت آنذاك من طابق واحد، وعلى النمط العربي أو الشرقي، الذي يتميز بوجود ساحة أمام الغرف. وكان البناء يعتمد على الطين وتسقف المباني بالشنادل والبواري. ويُؤخذ الشندل من أغصان الأشجار، والبواري من سعف النخيل.

كانت ساحة «الصفاة» التي تتوسط مدينة الكويت من أهم معالمها البارزة، وهي عبارة عن ساحة دائرية مكشوفة، تلتقي فيها جميع الشوارع. وكانت منذ إنشائها مكاناً لتجمع القوافل البرية القادمة إلى الكويت أو المارة بها، ثم تطورت وتعددت وظائفها بعد انتشار المساكن حولها، وأصبحت مركزاً اجتماعياً يلتقي فيه السكان في لقاءاتهم اليومية سواء في المقاهي المنتشرة فيها، أو في اجتماعاتهم الموسمية كالإحتفالات في المواسم والأعياد والمناسبات المختلفة.

تتصل ساحة الصفاة بمنطقة السوق الواقعة إلى الشمال منها، والممتدة حتى ساحل الخليج الذي كان يسمى «بالسيف». وتقسم منطقة السوق إلى أسواق فرعية مسقوفة بالصفيح أو القماش السميك ليحمي الناس من الظروف المناخية القاسية، وبخاصة أشعة الشمس الحارقة في الصيف. وبما أن كل سوق كان يتخصص في عرض سلعة متخصصة، فكان يسمى باسم تلك السلعة مثل: سوق السمك، وسوق البشوت[٤]، وسوق السلاح، وسوق الصاغة... إلخ.

كان شارع «الأمير» أو «السوق الداخلي» والشارع الجديد أهم وأكبر تلك الأسواق، حيث تتفرع منهما بقية الأسواق المتخصصة. وقد افتتح الشارع الجديد في عام ١٩٤٩، ولهذا سمي بهذا الاسم. وكانت المحلات التجارية المتنوعة على جانبيه، والمقاهي والبقالات الكبيرة. وكان هذا الشارع يربط ساحة الصفاة بالواجهة البحرية التي أقيم عليها قصر الحاكم ومقر الحكم. وإلى الغرب منه كان يقع سوق الخضار والفواكه المركزي.

كانت «حولي» أقرب القرى إلى مدينة الكويت، وتقع إلى الجنوب الشرقي منها بنحو اثني عشر كيلومتراً، وهي آنذاك، قرية صغيرة معظم شوارعها غير معبدة، وكنا حينما نذهب إلى مدينة الكويت نمشي إلى شارع «التيل» لنستقل سيارة الأجرة «السرفيس». وفي عام ١٩٥٧ بدأ العمل برصف هذا الشارع وأصبح فيما بعد الشارع الرئيسي في حولي، وأقيمت على جانبيه المكاتب والوكالات والمحال التجارية.

إلى الشرق من حولي، كانت قرية «السالمية» التي سميت على اسم شيخ الكويت «سالم بن مبارك الصباح». وكان اسمها قبل ذلك «دمنة». وكانت السالمية عام قدومنا صغيرة محدودة المساحة، ومساكنها بسيطة مؤلفة من طابق واحد ومعظم سكانها الأصليين من قبيلة العوازم. وتنتهي القرية عند «رأس الأرض» حيث أقيمت في الستينيات مقاهي وأماكن للتسلية، وكنا نذهب في المساء، حينما تخف درجة حرارة الصيف، إلى هذه المنطقة لنستمتع باستنشاق الهواء النقي المنعش والهدوء المريح.

إلى الجنوب من السالمية يمتد ساحل الخليج حتى المنطقة المحايدة والحدود السعودية، وتنتشر على هذا الساحل قرى صغيرة يزاول معظم سكانها صيد السمك. وكانت الفحيحيل أكبر هذه القرى. وكان معظم الوافدين – أي السكان غير الكويتيين – يذهبون في عطلات نهاية الأسبوع والمناسبات إلى هذا الساحل ويقضون وقتاً طيباً ويجلسون تحت الأشجار المتناثرة، ويقومون بشواء اللحم وتناول الغداء، ويستمتعون بالمناظر الطبيعية من تلال وأشجار وشجيرات ومياه الخليج.

إلى الغرب من «الفحيحيل» بنحو عشرة كيلومترات تقع «الأحمدي»، وهي مدينة اقامتها شركة نفط الكويت K.O.C لتكون مقراً لإدارتها، وقد احتوت على مساكن للعاملين في الصناعة النفطية، وقد بنيت على النمط البريطاني. وقد سميت هذه المدينة على اسم شيخ الكويت آنذاك «أحمد الجابر الصباح» والذي في عهده اكتشف نفط الكويت. وكثيراً ما كنا نذهب إلى «الأحمدي» لقضاء بعض الوقت في الأعياد والمناسبات.

وتعد «الجهرة» أكبر قرى الكويت آنذاك، وتقع إلى الغرب من مدينة الكويت، وعلى أرضها وقعت معركة الجهرة الشهيرة عام ١٩٢٠، حيث قامت جماعات يقودها «فيصل الدويش» قادمة من السعودية وهاجمت القرية، ولكنها لم تحقق أهدافها لتدخل الإنجليز الذين أنذروا المهاجمين بالانسحاب، وقد صمد الكويتيون في هذه المعركة وأبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن وطنهم.

ربما كانت البساطة من ابرز ما تميّزت به الحياة في الكويت آنذاك، فالتعامل بين الناس كان سهلاً، وبلا تعقيدات، والسلوك يخلو من المجاملات، ولا يعرف الناس النفاق والمراءاة والمباهاة والرياء. وكانوا ينادون بعضهم البعض من دون ألقاب، وبلا تفخيم وتعظيم، وإنما يكتفون بذكر أسمائهم المجردة أو بالكنية أي أبوة الرجل لأبنائه مثل «أبو محمد». أما البدو أو المتطبعون بطباعهم فكانوا ينادون الشخص بكلمة «ولد». وهي عندهم ليست إهانة أو تحقيراً كما هي عندنا، لإيمانهم بأن كل مولود ولد.

كان الجميع في الكويت يشعرون بالأمن والأمان والاستقرار، فالسرقة وجرائمها غير شائعة، والفساد غير متفش، ويحرص معظم الناس على احترام الكلمة والالتزام بها، فإن وعد، قلما أخلف، وإن تحدث يفضل الصدق فيما يقول، وإن أؤتمن لا يخون.

كنا نشاهد الباعة والتجار والصاغة والصيارفة يغادرون محلاتهم لأداء صلاة الظهر في مسجد مجاور دون اقفالها، بل يتركون أبوابها مفتوحة، ويكتفون بوضع كرسي أمام الباب أو وضع ستارة من قماش عليه لتدل على أن صاحب المحل غير موجود. وكانوا يطمئنون على محلاتهم إذ لا يجرؤ أحد على دخول أي محل في أثناء غياب صاحبه، فالسرقات أو السطو على المساكن والمحلات التجارية لم يكن مألوفاً، ربما لأن الناس يعرفون بعضهم بعضاً، وعدد الأجانب كان قليلاً، ومعظمهم من ذوي السلوك القويم والأخلاق السامية.

كثيراً ما كنا نذهب لشراء سلعة من تاجر، وربما لم يكن معنا ما يكفي من النقود لدفع ثمنها، أو قد نكون نسينا محفظة النقود في المنزل، ومع ذلك كان البائع أو التاجر يصر علينا بأخذ ما اشتريناه، وندفع الثمن أو ما تبقى منه فيما بعد، دون أن يعرف من نحن، أو أن يتأكد من هويتنا وجنسيتنا. وقد حدث هذا معي أكثر من مرة، فقد ذهبت إلى محل لبيع الأقمشة الصوفية، لشراء قطعة تصلح لعمل بدلة، يملكه شخص من آل «البغلي». ولما اخترت القماش وقام البائع بقصه ولفه، بحثت في جيوبي عن محفظة النقود فلم أجدها، وتبين لي أني نسيتها في المنزل، وشعرت بالارتباك، ولاحظ البائع ذلك، وقال: يا أستاذ خذ قطعة الصوف التي اشتريتها، واذهب إلى منزلك، وحينما تجد الوقت المناسب تدفع الثمن. ولما حاولت أن أعرّفه بنفسي، وأذكر له اسمي ومكان عملي، وأريه بطاقتي، رفض بشدة، وقال: لا أريد أن أعرف من أنت، ومن تكون، فإنني واثق منك ومتأكد من صدق ما تقول، وهذا يكفيني ويطمئنني.. اذهب يا أستاذ، وفي أمان الله.

وحدث الشيء نفسه مع بائع في سوق اللحوم، حينما اشتريت كمية من اللحم لوليمة دعونا إليها عدداً من الأصدقاء في منزلنا، ولما، وضع القصاب اللحم في اللفافة، تبين لي أني لا أحمل المبلغ المطلوب، فقد اشتريت يومها من السوق أشياء لم أكن أريد شراءها، فاعطيت القصاب النقود التي معي، وطلبت منه أن ينقص كمية اللحم لتصبح مساوية للنقود التي معي، فرفض، وأصر على إعطائي اللحم الذي نويت شراءه، وأعاد لي النقود التي دفعتها خشية أن أكون بحاجة لها لشراء أغراض أخرى، وقال لي: توكل على الله يا أستاذ، وخذ اللحم، واذهب إلى بيتك، وأحضر لي الثمن حينما تستطيع، وأصّر على

موقفه، فشكرته على ثقته بي، ومن موقفه النبيل مني، ولأنه رفض أن يعرف حتى مجرد اسمي، ومن أكون.

للأسف بدأت هذه الأخلاق والسلوكيات وكيفية التعامل مع الناس تتغير في الستينيات، فقد كثر عدد الوافدين إلى الكويت من شتى أنحاء العالم، وقفز عدد السكان من ٢٠٦ ألف نسمة في عام ١٩٥٧ إلى نحو ٣٢١ ألف في عام ١٩٦١، أي بزيادة بلغت ١٥٠٪. وبعبارة أخرى تضاعف عدد سكان الكويت مرة ونصف في مدى أربع سنوات فقط. وفي عام ١٩٦٥، وصل عدد سكان الكويت حوالي ٤٦٧ ألف نسمة، أي تضاعفوا مرتين وربع في مدى ثماني سنوات، وفي عام ١٩٧٠ قفز عدد السكان إلى ٧٣٣ ألف نسمة، أي تضاعفوا أكثر من ثلاث مرات ونصف في مدة لا تزيد عن ثلاثة عشر عاماً. وهذه القفزات السكانية الهائلة في عدد سكان الكويت كانت نتيجة قدوم أعداد كثيرة إلى البلاد من أقطار عربية وأجنبية، مما جعل الكويتيين أقلية في بلدهم. ففي عام ١٩٥٧ كانت نسبة غير الكويتيين نحو ٤٥٪ من جملة سكان الكويت، وفي عام ١٩٦٥ ارتفعت هذه النسبة إلى نحو ٥٣٪، في مقابل ٤٧٪ فقط للكويتيين.(٥)

لا شك في أن هناك الكثير من العوامل التي ساهمت في زيارة أعداد الوافدين — وبخاصة العرب — إلى الكويت آنذاك، لعل من أهمها، حاجة البلاد إلى قوى وطاقات بشرية لازمة لبناء أسس نهضتها العمرانية والاقتصادية واستكمالها، وتطوير الخدمات وتوسيعها، وبخاصة في الميادين التعليمية والصحية، والذي يطلق عليها بالاستثمار في النهوض بالإنسان ورفع شأنه.

وعلاوة على ذلك، فإن ما تمتعت به الكويت من استقرار وأمن، وما شهدته من انتعاش اقتصادي، كان من العوامل التي جذبت الكثيرين إليها، وبخاصة من البلاد التي عانت من أوضاع اقتصادية سيئة وأحوال سياسية متردية في المنطقة. وقد اتضح هذا بعد حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ونزوح أعداد كبيرة من الفلسطينيين بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، واستيلائها على الجولان السورية، وسيناء المصرية. فقبل هذه الحرب — أي في عام ١٩٦٥ — كان عدد غير الكويتيين نحو ٢٤٧٫٣ ألف نسمة، ووصل عددهم بموجب عام ١٩٧٠ نحو ٣٨٧٫٣ ألف نسمة، أي بزيادة مقدارها حوالي ٥٧٪ في خمس سنوات(٦).

كان من الطبيعي أن يكون من بين الوافدين الجدد إلى الكويت في عقد الستينيات نوعيات من الناس منحرفي السلوك، سيئي الأخلاق، وربما من ذوي السوابق في بلدانهم

الأصلية، أو من الذين لا يحفظون حق الأمانة، ولا يعرفونها، ولا يلتزمون الصدق في القول والعمل، ولا يضعون وزناً للاستقامة، ولا يقدرون عاقبة الكذب والخيانة.

ومما يؤسف له أن هذه النوعيات المنحرفة السلوك من الوافدين استغلت طيبة الكويتيين وبساطتهم وطريقة تعاملهم مع بعضهم بالصدق والأمانة والاستقامة، فصار بعضهم يتعمد الذهاب إلى المحلات التجارية ويشترون سلعاً معينة، ولا يدفعون أثمانها، متعللين بنسيان محافظ نقودهم أو يطلبون إمهالهم إلى آخر الشهر حينما يستلمون رواتبهم. وكان هذا يحدث مع بعض الذين قرروا السفر وعدم العودة إلى الكويت، إمّا لانتهاء عملهم فيها، أو لذهابهم للعمل في بلد آخر. وقد ترتب على ذلك اهتزاز الثقة بين الناس، والشك في الوافدين، وتغير التعامل معهم، واختلاف النظرة إليهم.

ربما كان للعامل السيكولوجي (النفسي) أثره – أيضاً – في تغير نظرة الكويتيين للوافدين. ففي الخمسينيات وحتى منتصف الستينيات، كان الكويتيون يشكلون الأغلبية السكانية، ولم يكن يبدو عليهم أي هاجس، أوخوف وريبة من الوافدين – وبخاصة العرب – من حيث المزاحمة والمنافسة في الأنشطة والفعاليات المختلفة أو ما يتعلق بالأمور الأمنية والسياسية. إلا أنه بعد زيادة أعداد الوافدين، وتفوقهم عددياً على السكان الكويتيين، فقد بدأت تظهر حساسيات ومشاعر لم تكن موجودة من قبل، أو ربما كانت غير ظاهرة بشكل سافر، وهي ذات جوانب وأبعاد مختلفة، وتشمل أموراً أمنية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

يبدو أن مجرد شعور الكويتيين بأنهم أصبحوا أقلية في بلدهم، كان وحده، هاجساً مقلقاً في حد ذاته، واعتقد أن ذلك كان نتيجة لسياسة الكويت السكانية الرسمية. فقد كان بالإمكان تجنب هذا الهاجس لو قامت الحكومة الكويتية بتجنيس الكفاءات العربية التي أفادت البلاد أو التي بإمكانها المساهمة في الإنتاج والعمل، والنهوض بالبلاد، وبخاصة أن كثيراً من الذين وفدوا إلى الكويت كانوا من ذوي الكفاءات الذين لم يكلفوها شيئاً. وحبذا لو استفادت الكويت من تجارب الدول الأجنبية – وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية وكندا واستراليا – التي منحت جنسيتها إلى الذين وفدوا إليها واستكملوا متطلبات التجنس.

لقد أثرت البيئة بمكوناتها الرئيسية، من موقع يتميز بواجهة بحرية وظهير صحراوي، ومظاهر سطح شبه منبسطة، وأحوال جوية وظروف مناخية قارية، وأعشاب موسمية، على السكان، وطبعت بصماتها واضحة عليهم، وكما يُقال عن التأثير البيئي بأن «الإنسان إبن بيئته»، ويظهر هذا في سلوك الناس وطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم

وأعمالهم وحرفهم، وحتى في أسلوب تعاملهم مع بعضهم البعض ومع غيرهم، كما يظهر أيضاً فيما يتسمون به من جمود أو مرونة اجتماعية، ومدى تقبلهم لكل جديد وقدرتهم على الانفتاح على الخارج أو الإصرار على المحافظة والتمسك بالموروث من العادات والتقاليد والأعراف.

استفادت الكويت من موقعها الجغرافي على الخليج العربي، وهو خليج تميز من قديم الزمان بالحركة والنشاط، وكان همزة الوصل بين ما كان يسمى بالشرق الأدنى الذي تتوسطه بلاد الشام، والشرق الاقصى، بدءاً بالهند وانتهاءً بأندونيسيا والفلبين واليابان. وقد اشتغل الكويتيون في الماضي بالأسفار البحرية وما يترتب عليها من صناعات مثل صناعة السفن ومستلزماتها، ومما ساعد على ذلك ندرة الموارد البرية وعدم وجود قاعدة زراعية بسبب ظروف البلاد الصحراوية وفقر البيئة.

أدى هذا النشاط البحري المتمثل في الأسفار والغوص على اللؤلؤ وصيد السمك، إلى نمو الكويت من بلد صغيرة إلى ميناء هام وكبير على الخليج العربي، مما لفت إليها الأنظار آنذاك، فنقلت شركة الهند الشرقية البريطانية، ذات النفوذ الكبير والواسع في شبه القارة الهندية، مكاتبها في عام ١٧٧٥ من ميناء «بوشهر» الفارسي، وميناء البصرة العراقي إلى الكويت بسبب ما حظيت به آنذاك من استقرار وهدوء نسبي ونشاط تجاري، وبخاصة بعد هجرة الكثيرين إليها من البصرة، وبعض المدن الأخرى في الخليج العربي، التي شهدت اضطرابات وقلاقل سياسية، وهذا جعل الكويت تصبح في القرن الثامن عشر محطة هامة في نقل التجارة الشرقية الآتية من الهند عبر الخليج العربي، ومن ثم ترسو في الكويت، ومنها تحمل براً بالجمال إلى حلب في سوريا، قاطعة الصحراء. وقد اطلعت على وصف لرحلة برية من الكويت إلي حلب قام بها شخص بريطاني اسمه السير «إيري كوت» Eyre Coote، اشترك في إحدى هذه الرحلات في عام ١٧٨٠م، ونشرتها مجلة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، في مجلدها الثلاثين، وعنوانها : «مذكرات رحلة السير إيري كوت من البصرة إلي حلب عام ١٧٨٠».

لم يقتصر النشاط البحري الكويتي على الهند والبلاد الآسيوية، بل شمل القارة الإفريقية أيضاً، حيث كانت سفن الكويت تحمل تمور البصرة إلى إفريقية والهند، وتعود محملة بخشب (التيكة) من الهند، وأعمدة المانجروف من جزيرة زنجبار في المحيط الهندي قبالة الساحل الإفريقي.

إذا كان الموقع البحري للكويت قد دفع الكويتيين إلى هذا النشاط البحري، فإنه في الوقت نفسه ساعد على انفتاح السكان على العالم، وأكسبهم مرونة اجتماعية، تمثلت

في تقبل الناس للأفكار الجديدة وانفتاحهم على الغير والتعرف على كيفية التعامل مع الخارج. ومما ساعد على ذلك أيضاً موقع الكويت الجغرافي على الطرف الشمالي الغربي من الخليج العربي ومجاورتها لكل من العراق وإيران وهما بلدان شهدا حضارات ومدنيات عظيمة فكان من الطبيعي أن تتأثر – سلباً أو إيجاباً – بما يحدث في هذين البلدين، ورغبتهما في السيطرة عليها أحياناً.

في الوقت نفسه، كان للظهير الصحراوي تأثيره على الكويت وسكانها، فقد كان منذ نشأة الكويت المستودع البشري الذي زود البلاد بسكانها الأوائل، وظل يمدها على الدوام بالعنصر البشري. مما أدى إلي المحافظة على عروبة الكويت. والمتتبع لتاريخ الكويت يرى هذا التأثير بوضوح، ويلمس نوعاً من الصراع – الذي يبدو خفياً أحياناً – بين العنصر العربي القادم من شبه الجزيرة العربية والعنصر الآخر القادم من فارس أو من جنوب العراق. وقد أطلق الكويتيون على العنصر الأول مصطلح «نيادة» أي «نجادة»[٧]، نسبة إلى نجد في شبه الجزيرة العربية، وأطلقوا على العنصر الثاني مصطلح «بياسر»، أي الذين هم من أصل غير عربي، أو مشكوك في عروبتهم.

يعتز الكويتيون «النيادة» بأصولهم العربية النجدية، ويؤكدون على أن «خالد بن عريعر» شيخ قبيلة «بني خالد» العربية، الذي كان نفوذهم يمتد من جنوب البصرة شمالاً حتى البحرين وقطر جنوباً، هو الذي بنى الكويت على «الجون»[٨]. والكويت تصغير لكلمة «كوت» وتعني حصن أو قلعة أو البيت المحصن المبني على هيئة قلعة. وفي العقد الثاني من القرن الثامن عشر، وفدت قبائل وعشائر من نجد وكان على رأسها «آل الصباح» حكام الكويت الحاليون واستقروا في الكويت، وهم من عشائر قبيلة «عنزة» الشهيرة التي ينتسب إليهاه معظم حكام شبه الجزيرة العربية، بمن فيهم «آل سعود» الذين أسسوا المملكة العربية السعودية.

لا يزال للظهير الصحراوي تأثيره على حياة الكويتيين، وبخاصة الذين من أصول نجدية أو من شبه الجزيرة العربية، فالحنين إلى الصحراء كامن في نفوسهم، وعشقهم وحبهم للصحراء والحياة فيها يلازمهم، ويدفعهم كل عام – وبخاصة في فصل الربيع، وحينما يميل الجو إلى الدفء وتكتسي الأرض ببساط أخضر من الأعشاب – للانتقال إلى البر، ونصب الخيام، وبيوت الشعر المصنوعة من وبر الجمال، في المناطق الصحراوية القريبة من مدينة الكويت، ومنهم من يبتعد عن العاصمة، ويفضل الإقامة قرب الحدود السعودية. ويجدون السعادة والمتعة في استرجاع حياة البداوة، ولو إلى حين، ويشعرون بالحنين إلى الماضي، ويستحضرون التاريخ، ويتلذذون في التحرر من كل ما تفرضه

عليهم حياة المدينة والتحضر من قيود، ويجدون الحرية في الصحراء بلا حدود، فالفضاء أمامهم واسع، والأرض فسيحة ومنبسطة ورحبة، والسماء صافية، والنجوم تبدو في السماء كالدر المنثور، لا تحجبها العمارات والبنايات الشاهقة، والبدر يزهو بنوره مبدداً ظلام الليل سائراً في فلكه حول أمه الأرض، وكأنه لا يريد الانفكاك عنها.

على الرغم من استخدام المولدات الكهربائية وإنارة بيوت الشعر والخيام في الصحراء حالياً، إلا أن لليالي القمرية بهجتها، ففيها يقيم رواد الصحراء من الكويتيين حلقات السمر، ومنهم من يحرص على أداء رقصاتهم - وبخاصة رقصة العرضة - شاهرين سيوفهم في الهواء، وعلى دقات الطبول يهزجون أهازيج الحرب، أو أهازيج الغوص مستذكرين عودة الغواصين سالمين إلى ديارهم، حيث يستقبلهم ذووهم وأقاربهم وأصدقاؤهم على الشاطىء بالطبول والأهازيج والزغاريد.

وفي الصباح يتلذذون بشرب حليب النوق[١] التي يحرص البدوي على شربه، ويعتمد عليه مع التمر كغذاء كامل. وفي فترة الضحى يذهب البعض في الصحراء للبحث عن «الفقع» وهو نوع من أنواع الفطر يشبه البطاطا، ونسميه في بلادنا «كمى». يظهر بشكل طبيعي وبري في الصحراء، إذا هطلت الأمطار في موعدها، ولم تتأخر عن موسمها، أي في شهر تشرين أول/ أكتوبر من كل عام. ويمكن التعرف على «الفقع» من شقوق أرضية ناجمة عن نمو درنات الفقع. ويقبل الكويتيون على طهي الفقع، ويتناولونه بشهية، ويقدمونه للأعزاء من ضيوفهم، ويعدونه من هبات الصحراء ومكارمها.

يمارس الكويتيون في الصحراء هواية «القَنْص»، أي اصطياد الطيور والحيوانات البرية مصطحبين معهم صقورهم المدربة، والتي يصل ثمن الصقر الواحد إلى آلاف الدنانير. والصقور ضرورية جداً للقنص وبدونها قد لا يحقق الشخص ما يريد من الصيد. ويستخدمون في «القنص» سيارات ذات دفع رباعي تستطيع السير في الصحراء، وفي الطرق والأراضي الوعرة، ولا تجد صعوبة في اجتياز التلال والكثبان الرملية.

كان من نتائج الإفراط في عمليات القنص اختفاء كثير من الطيور والحيوانات البرية التي كانت تعيش في بيئة الكويت الصحراوية، وتشكل عنصراً هاماً من عناصرها الطبيعية، كما أن كثرة استخدام السيارات في البر أدى إلى تدمير الأعشاب البرية والقضاء على أنواع نادرة. ومما زاد الأمر سوءاً ممارسة الرعي الجائر وكثرة الحيوانات التي ترعى على الأعشاب في الصحراء، مما نجم عن ذلك تعرية التربة وزوال غطائها العشبي، وانتشار ظاهرة التصحر التي باتت تهدد مساحات واسعة من الأراضي التي كانت تستغل في الماضي لأغراض الرعي أو الزراعة. وقد حذرت جمعيات البيئة من أخطار تدمير البيئة

الطبيعية، ونصحت الحكومة بسّن القوانين التي تحفظ الطبيعة من تعدي الإنسان عليها، وضرورة إنشاء محميات طبيعية يُمنع فيها الرعي والقنص، وتحمي الكائنات النباتية والحيوانية من الانقراض. وقد استجابت الحكومة لكثير من توصيات هذه الجمعيات.

ليس في الكويت مواسم ومناسبات كثيرة، يُحتفل بها شعبياً أو رسمياً، كما هو الحال في معظم البلاد العربية، وليس لشهر رمضان طقوس مميزة في الكويت، إلا أن لهذا الشهر حرمته وكرامته عند الكويتيين، فساعات دوام العمل تخفض، والمقاهي تقفل في النهار وكذلك المخابز والمطاعم وأماكن اللهو والتسلية على قلتها وبساطتها آنذاك. ويحرص الكويتيون على أكل وجبة «الهريس» في رمضان، وتستمتع النسوة بعملية «دق الهريس» في «أجران» كبيرة. ويتكون الهريس من لحم «مهروس» أي مدقوق ناعم وممزوج بالحبوب المدقوقة أيضاً. وكان جيراننا في حي «النقرة» بحولي، وهم من آل العنجري يزودوننا كل يوم بطبق من الهريس.

حينما ينتصف شهر رمضان يخرج صبية كل حي (يسمون الحي فريق وينطقونها فريج) ويطوفون بالأزقة مرددين أهازيج وداع رمضان قائلين: «قرقعان.. قرقعان.. كل سنة وكل عام». ويخرج بعض سكان الحي مرحبين بالصبية ويوزعون عليهم «القرقعان»، وهو خلطة من المكسرات مكونة من: الفول السوداني، (الفستق)، جوز، لوز، بندق، زبيب وموضوعة في أكياس، فيسر الصبية ويدعون لمن يكرمهم بخالص الدعوات وأعز الأمنيات.

كانت البساطة - كما قلنا سابقاً - من سمات الكويتيين البارزة: لا يحبون التكلف، ولا يرغبون في المباهاة وحب الظهور والتفاخر، ويكرهون ا لنفاق والمراءاة والمداهنة، ويميلون إلى التواضع، ولا يستخدمون ألقاب التفخيم والتعظيم، وهم واقعيون، فلا مبالغة في الحياة، ولا ترهيب في الموت.

كان مما لفت نظري وأثار اهتمامي، حينما قدمت الكويت في عام ١٩٥٧، ما اتسمت به الأفراح والأتراح من بساطة متناهية، على عكس الحال في بلادنا العربية المطلة على البحر المتوسط كمصر وبلاد الشام، حيث يبالغ الناس فيها في إبراز مظاهر الأفراح والأتراح، فكانت حفلات الأفراح في الكويت بسيطة، وتقاوم في البيوت وتكون في الغالب للنساء، بينما يتقبل الرجال التهاني بمراسم تخلو من البهرجة. ولم تكن إقامة السرادقات في حالات الوفاة، وتلاوة المقرئين للقرآن فيها كما هو الحال في بلادنا، شائعة، وربما غير معروفة، فقد كنت أراهم يكتفون بتقبل التعازي في الميت في المقبرة، وبعد الدفن مباشرة، ثم ينتهي كل شيء، وتعود الحياة إلى طبيعتها. وعلمت منهم أن زيارة

القبور غير شائعة، ربما لأسباب منها تأثر الكويتيين آنذاك بالفكر الوهابي الذي انتشر في شبه الجزيرة العربية. وكثير من الكويتيين - كما سبق القول - من أصول نجدية، حيث مركز الدعوة الوهابية، رغم أن الكويتيين بصفة عامة لم يكونوا وهابيين، بل تعرضوا لهجوم وهابي حينما هاجم الاخوان بقيادة «فيصل الدويش» الجهرة، كما سبق القول.

ربما كانت نظرة الكويتيين إلى الحياة والموت مستمدة من طبيعة البيئة الصحراوية للبلاد، والتي ينطبق عليها مبدأ البقاء للأنسب أو الأصلح، والحياة للحي. وهو مبدأ تفرضه بيئة الصحراء المتسمة بالقساوة والخشونة. وفي الوقت نفسه فإن للبيئة البحرية مؤثراتها على طبيعة الحياة في الكويت، فحرفة الغوص شاقة وخطرة، ويعاني منها الغواصون الكثير من الأهوال والصعاب والتعرض للموت، حيث يلقى الأموات في البحر دون مراسم للوفاة. ويواصل الغواصون والعاملون في السفينة، أعمالهم دون توقف أو إنقطاع، وكأن شيئاً لم يحدث.

لعل من مظاهر بساطة الحياة التي لاحظتها - حينما قدمت الكويت - عدم تنوع الأطعمة وعدم التفنن في الطبخ، كما هو الحالي في بلادنا، فالطعام كان غالباً ما تجود به البيئة المحلية. ففي البادية يأكلون التمر وحليب النوق، وفي المدن أو الحواضر يقبلون على أكل السمك والأرز المستورد من العراق أو الهند، ويسمونه «العيش» وبعضهم يسمونه «التمّن». ويصنعون «المرق». وبسبب علاقتهم الوثيقة بالهند وبإيران تعرفوا على بعض الأطعمة مثل «البرياني» وهو طعام هندي. وبزيادة عدد الوافدين من مصر وبلاد الشام تعرف الكويتيون على أطعمة هذه البلاد، فصاروا يقبلون على «المحاشي» وعلى أطعمة أخرى لم يكن قد اعتادوا تناولها من قبل مثل، أكباد الأغنام والمواشي، والكرشات وغيرها. ولم تكن الفواكه عندهم شائعة، فالتمور عند غالبيتهم كافية. وبدأ الإقبال على تناول الفواكه بشكل واسع مع قدوم الوافدين، وبعد استخراج النفط، واستقدام شركة النفط .K.O.C عمالاً وموظفين من الخارج، وبنت لهم مدينة الأحمدي، وزودتها بسوق مركزي، واستوردت الفواكه والأطعمة والسلع بالطائرات من الخارج، وبخاصة من لبنان الذي تكثر فيه الفواكه. ومن بريطانيا كانت تستورد الكثير من السلع وبعض الأطعمة وكثيراً ما كنا نذهب لمدينة الأحمد لنشتري من الأطعمة ما نريد.

الكويتيون غير متزمتين، كما هو الحال في بعض جهات شبه الجزيرة العربية، بسبب انفتاحهم على العالم بحكم موقع بلادهم البحري، كما سبق القول، وهم محبون للغناء والطرب، وبخاصة الذي يذكرهم بأيام الغوص على اللؤلؤ، فقد كان على ظهر كل سفينة غوص «نهّام» أي مطرب ليطرب الغواصين ومساعديهم الذين يسمون «التبابين»

ومفردها «تبّان»، وكذلك الذين يقومون بسحبهم من المياه الذين يسمون «السيّاب» ومفردها «سيب» والطواويش، وهم تجار اللؤلؤ ومفردها «طواش»، و«النوخذا» وهو ربان السفينة. ففي المساء، وحينما تتوقف عملية الغوص، وينتهي العمل من انتزاع اللؤلؤ من المحار، يلتقي الجميع على ظهر السفينة ويتسامرون، ويطربون على أغاني «النهام». ولا تزال كثير من الأغاني الكويتية القديمة تحمل ذكريات الغوص والأسفار، ومنها ما يذكر أسماء سفن كل حرفة مثل «البوم» للأسفار البحرية، والشوعي والسنبوك، وهي سفن يستخدم بعضها في حرفة الغوص وأخرى لصيد السمك، وكان من يعمل في صناعة السفن يسمى «القلاّف».

كان شيخ المغنين، حينما قدمنا للكويت، المطرب «عبد الله فضالة» وكان يتمتع بشعبية كبيرة ومن أغانيه التي كنت أسمعها «لقيت اللي يسلي في حولي» حيث كان سكان الكويت يتخذون من «حولي» مصيفاً لهم لارتفاعها النسبي عن مستوى سطح البحر، وقربها من العاصمة. ومن المغنين أذكر «محمود الكويتي» والذي كانت أغانيه أقرب إلى الإنشاد منها إلى الغناء، وكان مشلولاً، ومن أغانيه «إن بعض الظن إثم». أمّا «عوض الدوخي» ذو البشرة السمراء الداكنة فكان أصغر المطربين سناً تميز بعذوبة صوته، ودفء كلماته، وطلاوة عباراته. ومن المغنيات أذكر المغنية البحرينية «موزة سعيد»، والمطربة الكويتية «عائشة المرطة» وكانت ضريرة، تمتعت بشهرة كبيرة.

إذا كانت الأغاني والموسيقى العربية الواقعة على البحر المتوسط متأثرة بالأغاني والموسيقى التركية لخضوع تلك البلاد لحكم تركي استمر نحو أربعمائة عام، فإن الأغاني والموسيقى الخليجية تأثرت بالمؤثرات الهندية والإفريقية، فرقصة «العرضة» الكويتية – على سبيل المثال – قد تكون لها أصول إفريقية، وهذا ما قاله لي شخص أجنبي مختص بالفنون الإفريقية حينما شاهد عرضاً لرقص قام بأدائه طلبة جامعة الكويت على المسرح البلدي بمدينة «دكار» عاصمة السنغال، حيث كنت مع الطلبة والأساتذة الذين قاموا برحلة عام ١٩٨٣ إلى السنغال.

ومع زيادة عدد الوافدين من البلاد العربية كمصر وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان بدأت الأغاني والموسيقى الكويتية تتأثر بموسيقى تلك البلاد وبأغانيها، وكان «شادي الخليج» أول مطرب كويتي تلمس في أغانيه وأناشيده طابع التجديد، ومنها أغنيته التي نظمها حمد الرجيب ويقول فيها :

هولو هولو زين المعاني   إيه والله الأسمر سباني

والأغنية التي يقول فيها: «جودي لا تهجريني» وهي من نظم «حمد الرجيب» أيضاً.

كان لا بد من استكمال النهضة العمرانية والعلمية والتربوية التي سبقت الإشارة إليها بإنشاء أسس مسرحية وثقافية. ففيما يتعلق بالثقافة، فقد حرصت الكويت في أواخر الخمسينيات على إقامة مواسم ثقافية بدعوة كبار المفكرين والأدباء والعلماء والمربين من البلاد العربية، لإلقاء محاضرات تقام على مسرح ثانوية الشويخ، وكنا كغيرنا من المقيمين على أرض الكويت نحرص على حضورها.

وقد حرصت الكويت، في الوقت نفسه، على عقد مؤتمرات علمية وأدبية فيها، كان من بينها مؤتمر الأدباء الرابع. وقد اغتنم جاري في السكن «ميخائيل بشارة»، وكان لبنانياً، على دعوة الأستاذ رئيف خوري، رئيس الوفد اللبناني في هذا المؤتمر، وحضر مع الوفد عدد من أعضاء الوفد العراقي وعلى رأسهم الشاعر المشهور «محمد مهدي الجواهري». وكانت أمسية جميلة جداً حيث أطربنا الجواهري بروائع شعره، وبدا لي الجواهري آنذاك مغتراً بنفسه، وكان حاد الطبع، سريع الانفعال، لا يتحمل النقد، فقد لوح لي بقبضة يده غاضباً، وكأنه يريد ضربي، لأنه ظن أنني انتقدته حينما علقت على أشعاره وبعض أقواله.

بدأ النشاط المسرحي في الكويت في ستينيات القرن الماضي، وكانت لجهود الأستاذ «حمد عيسى الرجيب» الفضل الأكبر في إنشاء المسرح الكويتي. وقد استقدم من مصر عميد المسرح العربي آنذاك الأستاذ «زكي طليمات»، الذي أرسى قواعد العمل المسرحي في الكويت على أسس علمية، وأنشأ معهداً خرج عدداً من المسرحيين الكويتيين الذين بفضلهم ازدهرت الحركة المسرحية في الكويت.

ربما كان من أبرز معالم النهضة الثقافية في الكويت إنشاء مجلة «العربي» التي تعد أهم وأشهر المجلات العربية الشهرية في المجالات الثقافية والأدبية والعلمية. ويعود الفضل في إنشائها إلى الأستاذ «أحمد محمد السقاف». ففي عام ١٩٥٧ كلفه الشيخ «صباح الأحمد الجابر الصباح» رئيس دائرة المطبوعات والنشر آنذاك[١٠] –أمير الكويت حالياً– بمهمة القيام بإصدار مجلة ثقافية شهرية، فقام بجولة في البلاد العربية، ومن بينها مصر واتفق مع العلامة الدكتور «أحمد زكي» على تأسيس هذه المجلة ورئاسة تحريرها.
واستعان الدكتور أحمد زكي بعدد من الصحفيين الذين أذكر منهم: عبد الوارث كبير، وسليم زبال، ومنير نصيف، والمصور الصحفي المشهور أوسكار متري، وفي وقت لاحق ساعده في التحرير الدكتور «محمود السمرا»، ثم الأستاذ «يوسف زعبلاوي».

وكان يدير مكتبه الأستاذ «عبد الحفيظ يونس». وقد صدر الأول من العربي في شهر كانون الأول / ديسمبر عام ١٩٥٨، ونفد من الأسواق العربية بسرعة غير متوقعة. وقد كان لي شرف المساهمة بالكتابة فيها، والتعرف على الدكتور «أحمد زكي» وأسرة التحرير، وذلك حينما عدت إلى الكويت، بعد حصولي على درجة الدكتوراه من بريطانيا عام ١٩٧٠، وسأذكر ذلك في أثناء الكتابة عن الكويت في تلك الفترة.

كان من أبرز معالم النهضة الثقافية في الكويت، إنشاء «الإذاعة» التي بدأت البث من غرفة أو أكثر في مبنى الأمن العام الذي كان يرأسه الشيخ «عبد الله المبارك الصباح». وكان المذيع الكويتي «حمد المؤمن» من أوائل الذين عملوا فيها. وكان ذلك في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي. وفي عام ١٩٥٩ رغب الشيخ «عبد الله المبارك» في تطوير الإذاعة والنهوض بها، فأشار عليه أمين سره ومدير مكتبه الأستاذ «هاني القدومي» الذي كان من أبرز الفلسطينيين الذين ساهموا في نهضة الكويت، بتكليف الأستاذ «محمد توفيق الغصين» بهذه المهمة. وكان «الغصين» شخصية إذاعية وإعلامية معروفة، عمل في محطة الشرق الأدنى البريطانية حينما كان مقرها في مدينة يافا بفلسطين، وانتقل معها إلى قبرص بعد النكبة الفلسطينية في عام ١٩٤٨. وكان أكبر موظف عربي من حيث الرتبة فيها. وبسبب موقف المحطة المنحاز لبريطانيا في أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ - كما سبق القول - قدم «الغصين» ومعه المذيعون والموظفون العرب استقالاتهم، فرحبت بهم الإذاعات والمؤسسات العربية، وبخاصة في العراق.

استقدم «محمد الغصين» عدداً من زملائه السابقين في محطة الشرق الأدنى لمساعدته في المهمة التي كلفه بها الشيخ «عبد الله المبارك». وكان من أبرز الذين استقدمهم «شريف العلمي» و«محمد صوان» وزوجته «تغريد الحسيني» و«أبو ذر الغفاري» و«مصطفى أبو غربية» الذي عينه مراقباً عاماً للإذاعة. وكنت في هذه الفترة على صلة وثيقة بالإذاعة من خلال الصديق الوفي الأستاذ «يوسف زعبلاوي» الذي كان يشغل آنذاك مدير القسم الأدبي بالإذاعة. وقد قمت بإعداد أحاديث أدبية لخبرتي السابقة في الإذاعة السعودية. وكانت أحاديثي الأدبية فاتحة العمل الأدبي بإذاعة الكويت. وأذكر أن أول حديث أدبي أذعته بصوتي في إذاعة الكويت كان عن «محمد بن القاسم» فاتح السند. وقد خلف الأستاذ «يوسف زعبلاوي» في رئاسة القسم الأدبي، الشاعر والأديب المعروف الأستاذ «محمود الحوت». وهو من يافا، ولكنه من أصول بيروتية، وقد نشأت بيني وبين الأستاذ «محمود الحوت» علاقات وثيقة من خلال تعاوني مع الإذاعة، حينما أصبح المراقب العام لبرامجها. لقد كان «محمود الحوت» شاعراً مبدعاً،

وقد رثا مدينة يافا بعد سقوطها في ١٤/٥/١٩٤٨ قائلاً :

يافا، لقد جف دمعي فانتحبت دماً | متى أراك؟ وهل في العمر من أمدِ؟
أمسي وأصبح والذكرى محددةٌ | محمولةٌ في طوايا النفس للأبد
ما بال قلبي إذا ما سرت في بلدٍ | يصيح من وجْده في الصدر وابلدي
مهما استقام له من عيشةٍ رغدٍ | وجدته هازئاً بالعيشة الرغدِ
تعبت لكنني ما زلت في تعبي | أشكو إلى الله لا أشكو إلى أحدِ

في وقت لاحق انضم إلى إذاعة الكويت الأستاذ «موسى الدجاني» قادماً من الأردن، وكان يعرف بشيخ المذيعين. وانضم للإذاعة أيضاً الشيخ «حامد صوان» كمسؤول عن القسم الأدبي. وفي التحرير والأخبار انضم للإذاعة السادة «عباس حماد» و«جويد جودة» و«أنطون شبيطة»، و«ضياء الفاهوم» والذي عمل فيما بعد مسؤولاً في البرامج الموجهة الذي كان يرأسه الأستاذ «عبد العزيز جعفر». وكان يعاون «الفاهوم» الأستاذ «علي ياسين» الذي أصبح فيما بعد رئيساً لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت.

انضم إلى الإذاعة في وقت لاحق - أي في عام ١٩٦٠ - الدكتور عادل سقف الحيط، وعيّن رئيساً لقسم الأخبار، وهو شخصية تربوية، وعالم متمكن في اللغة العربية. وفي عام ١٩٦٦، انتقل إلى وزارة التربية، وعمل وكيلاً لدار المعلمين، ثم أصبح، فيما بعد، موجهاً عاماً للغة العربية بوزارة التربية.

ازداد نشاطي الإذاعي منذ بداية عام ١٩٦٠، فكنت أقدم أحاديث أدبية، ثم أصبحت أقوم بإعداد برامج ثقافية وأدبية منها «سامر من الماضي»، يتناول مجالس الأدب والطرب في عهد خلفاء بني العباس. وكان يقوم بالإخراج الأستاذ «سليم إسماعيل» الذي التحق بالإذاعة قادماً من إذاعة الأردن، وأصبح فيما بعد مراقباً عاماً للبرامج. وفي الوقت نفسه، قدمت أحاديث لركن المرأة الذي كانت تشرف عليه الآنسة «نزهة عبد المجيد» بعنوان «نساء خالدات».

في مطلع عام ١٩٦٠ طلب مني مراقب عام البرامج آنذاك الأستاذ «مصطفى أبو غربية» إعداد مادة «ركن فلسطين» الذي تقرر فتحه في إذاعة الكويت، فأعددت مخطط البرنامج ومادته، وأوكل للأستاذ «محمد يونس» بالإخراج، وظللت أعد مادة هذا البرنامج إلى قبيل مغادرتي الكويت للدراسة العليا في بريطانيا، وتولى إعداد المادة بعدي الأستاذ «شفيق الحوت» الذي أصبح فيما بعد عضواً بمنظمة التحرير الفلسطينية برئاسة أحمد الشقيري.

ومن الأنشطة الإذاعية الأخرى التي قمت بها إعداد مسلسلات تمثيلية تاريخية لشخصيات من التاريخ العربي الإسلامي، وأحياناً تعالج قضايا اجتماعية وسياسية معاصرة.

وحينما هدد «عبد الكريم قاسم» باحتلال الكويت في عام ١٩٦١، طلب مني البقاء في الصيف لأساهم في إعداد البرامج الموجهة وكتابة التعليقات السياسية التي فرضتها حالة التهديد بالاحتلال. وكان من الذين ساهموا في كتابة التعليق السياسي آنذاك الأستاذ «راضي صدوق» الذي كان يرأس تحرير مجلة «حماة الوطن» التي يصدرها الجيش الكويتي، والأستاذ «محمد نجم» الموجه العام للغة العربية بوزارة التربية.

كانت علاقتي بالأستاذ «محمد الغصين» حميمة، وكان يطلب مني أحياناً حضور اجتماعات الإذاعة الذي يضم المراقبين والمدراء ورؤساء الأقسام، رغم أنني لم أكن موظفاً بالإذاعة، ويطلب مني إبداء الرأي والمشورة في بعض الأمور التي لها علاقة بالأدب والثقافة. وكان الأستاذ «موسى الدجاني» المسؤول عن «ركن فلسطين» من أكثر الإذاعيين قرباً مني، وكان رحمه الله على خلق كبير وأدب رفيع، تميز بتساميه وترفعه واحترامه لنفسه.

من الإذاعيين الذين كانت لي بهم صلة قوية الأستاذ «أحمد سالم» الذي عرفته حينما كنت في جدة، وكان يعمل في الإذاعة السعودية، والأستاذ «أحمد عبد العال» وكان يومها في شرخ شبابه، وقد أثبت جدارة وكفاءة في عمله، وقد حصل على الجنسية الكويتية فيما بعد. وكانت زوجته «منتهى عبد العال» تعمل أيضاً في الإذاعة.

في عام ١٩٦٢ / ١٩٦٣ بدأ البث في تلفزيون الكويت، وكنت يومها أعمل مدرساً بثانوية كيفان، وكان من بين البرامج التلفزيونية الناجحة برنامج «الإسلام والحياة» الذي يعده ويقدمه الشيخ «علي عبد المنعم» الذي ذكرته سابقاً حينما كان إماماً لمسجد ثانوية الشويخ. ولما تعرفت عليه قال إنه يفكر في إعداد حلقات تُعرِّف الناس حقيقة مفاهيم غير واضحة عن : العبرانيين، والإسرائيليين، واليهود، والصهيونيين، ولما عرف اهتماماتي بهذه الأمور طلب مني أن أتعاون معه، وزارني في منزلي، ووضعنا مخططاً على شكل حلقات، تستغرق كل واحدة ساعة كاملة، ويشارك الجمهور في الحلقات، ويكون البث حياً على الهواء، وكان يحاول في برنامجه، كما لاحظت، محاكاة برنامج «نور على نور» الذي كان يقدمه «أحمد فراج» من التلفزيون المصري، حيث كان المشاهدون يواظبون على مشاهدته.

كنت المتحدث الرئيسي والدائم في جميع حلقات برنامج «الإسلام والحياة» حينما

عرض المفاهيم السابقة. وكان الشيخ «علي عبد المنعم» يتفق معي على اختيار الشخص الذي ينضم إلينا في كل حلقة، وقد شاركني في إحدى الحلقات الأستاذ «خالد الحسن» الذي كان آنذاك أميناً لبلدية الكويت، وهو عضو مؤسس في منظمة فتح، وأصبح فيما بعد من أبرز أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية.

ربما استكملت النهضة الثقافة مقوماتها حينما ظهرت صحف ومجلات بمستوى رفيع مستعينة بكفاءات وخبرات صحفية عربية وبخاصة من فلسطين ولبنان ثم مصر فيما بعد، وكانت صحيفة «السياسة» التي أصدرها «عبد الرحمن الولايتي» من أوائل الصحف التي صدرت في الكويت في ستينيات القرن الماضي، ثم بيعت بعد ذلك وأصبح رئيس تحريرها فيما بعد الأستاذ «أحمد الجار الله». وأصدر «الولايتي» بعد ذلك جريدة «البلاغ». أما الأستاذ «سامي المنيس» فقد أصدر مجلة «الطليعة الأسبوعية»، وكان يساري النزعة. وفي الفترة نفسها أنشأ «عبد العزيز المساعيد» جريدة «الرأي العام». وفيما بعد صدرت صحف عدة كان من أبرزها «الوطن» التي أنشأها المحامي «محمد مساعد الصالح» و«القبس» التي بديء التفكير في إنشائها في «غرفة تجارة وصناعة الكويت»، وطلب من اللبناني «ذو الفقار قبيسي» الإعداد لإصدارها، ثم رأس تحريرها اللبناني الأستاذ «رؤوف شحروري» وخلفه الأستاذ «محمد جاسم الصقر». وقد كانت لي مساهمات بارزة فيها بعد عودتي من بريطانيا عام ١٩٧٠، وسأتناولها فيما بعد.

وبعد ذلك صدرت جريدة الأنباء، لقد استقطبت الصحافة الكويتية آنذاك، وبخاصة في السبعينيات، خبرة الكفاءات الصحفية في الوطن العربي، مما أدى إلى نهضة الصحف الكويتية وارتقائها، لتتصدر صحف البلاد العربية. ومما ساعدها على ذلك، ما تمتعت به الكويت من حرية في التعبير، لم تتوفر في كثير من البلاد العربية.

من أهم الأحداث التي شهدتها الكويت في ستينيات القرن الماضي، وكانت لها تداعياتها فيما بعد، استقلال الكويت. ففي ١٩/٦/١٩٦١ ألغيت الحماية البريطانية على الكويت، وفي ٧/٩/١٩٦١ أعلن الاستقلال، وفي ١١/١١/١٩٦١ رفع العلم الكويتي الجديد[١١]. ونظراً لصعوبة الاحتفال في هذا الموعد لقساوة الجو وشدة الحرارة، فقد تم تعديل موعد الاحتفال بالاستقلال إلى الخامس والعشرين من شهر شباط/ فبراير من كل عام، وتحولت الدوائر إلى وزارات وتوقف التعامل بالروبية الهندية، وصدر الدينار الكويتي، وتقدمت الكويت للانضمام لجامعة الدول العربية، وهيئة الأمم المتحدة. وكانت المفاجأة المذهلة حينما اعترضت حكومة «عبد الكريم قاسم» العراقية على

الاستقلال، وعدت الكويت أرضاً عراقية، وأن حاكمها كان في العهد العثماني قائمقاماً تابعاً لمتصرفية البصرة، وأعلن أنه سيصدر أوامره للجيش العراقي لاحتلال الكويت إن لم يذعن شيخ الكويت آنذاك «عبد الله السالم الصباح» لذلك.

توترت الأجواء، وتلبدت السماء بالغيوم السوداء، وأعلنت حالة الطوارىء في الكويت، وصار الشيخ «سعد عبد الله السالم» رئيس الأمن العام آنذاك يكثر من زياراته للإذاعة، ويطلع على البرامج الموجهة، والأحاديث السياسية التي كنا نعدها قبل إذاعتها.

أقامت الحكومة الكويتية مراكز للتطوع وتدريب المتطوعين على استخدام الأسلحة الخفيفة للدفاع عن الوطن، .واستنفر الجيش الكويتي. واستجابة لنداء التطوع، تقدم عدد كبير من المقيمين وبخاصة الفلسطينيين في الكويت للتطوع ومشاركة إخوانهم الكويتيين في الدفاع عن الكويت الذي عدوه وطنهم، وساهموا في بناء نهضته العمرانية والعلمية والثقافية والتربوية. ولكنهم صدموا حينما رفضوا تسليمهم الأسلحة إلا بحضور كفيل كويتي. ولم ينس العراقيون هذا الموقف الفلسطيني، فقد تعرض كثير منهم للإهانة والمضايقات بعد ذلك، حينما كانوا يحاولون اجتياز الحدود العراقية، في أثناء ذهابهم إلى فلسطين والأردن.

ربما كان من حسن حظ الأمة العربية وجود قادة وزعماء عرب أقوياء وحكماء، استطاعوا احتواء مشكلة تهديد «عبد الكريم قاسم» باحتلال الكويت، وتفويت الفرصة على القوى الكبرى، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا، التي سارعت بتحريك قواتها ودخول الأراضي الكويتية لصد أي غزو عراقي محتمل. فقد أرسلت مصر والأردن آنذاك قوات من جيوشهما لتحمي الكويت، وبذلك زال خطر الغزو، واتفق على قبول الكويت عضواً في الجامعة العربية وفي هيئة الأمم المتحدة.

لا شك في أن عصر الشيخ عبد الله السالم الصباح الذي تسلم الحكم بعد وفاة ابن عمه الشيخ «أحمد الجابر الصباح» عام ١٩٥٠، كان من أزهى عصور الكويت، ففي عهده بدأت نهضة الكويت العمرانية والعلمية والتربوية والثقافية. وكان رحمه الله حكيماً وحليماً وبعيد النظر، وعطوفاً محباً لشعبه، ومعتزاً بعروبته. ويوم وفاته في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٥ خرجت الكويت عن بكرة أبيها – كويتيين ووافدين – في جنازته، والجميع حزين على فقدانه، ووري الثرى في مقبرة الصليبخات.

في عهد «عبد الله السالم» طبقت – كما قلنا – اتفاقية مناصفة الأرباح، وزاد إنتاج الكويت من النفط زيادة كبيرة، وقفزت إيرادات الدولة النفطية، وبديء بالتفكير بإنشاء

المصانع وبخاصة التي تعتمد على البترول ومشتقاته مثل مصنع الأسمدة الكيماوية، واستغلال الغاز الطبيعي المصاحب لاستخراج النفط، فقد كان الغاز يحرق آنذاك حتى لا يؤدي إلى تسمم الجو، فحرمت البلاد من استغلال مورد هام. وكنا نشاهد في الليل لهيب النيران المحترقة من فوهات الأنابيب التي يخرج منها الغاز في آبار النفط وحقوله، فتنير ظلمة الليل إلى أنوار ساطعة. وقد تم استغلال الغاز فيما بعد في عدة استخدامات، ثم عولج وتم تسييله بالضغط الشديد والتبريد وتصديره بناقلات خاصة تنقل الغازات البترولية المسيلة (L. P. G) Liquified Petroleum Gases. وفي الوقت نفسه فُكر بإنشاء أسطول لنقل النفط لتستفيد الكويت من أرباح عمليات النقل، وقد تأسست فيما بعد شركة «ناقلات النفط الكويتية» والتي أسندت إدارتها إلى المهندس «علي الخصاونة» من الأردن.

وفي عهد الشيخ «عبد الله السالم» تم التخطيط لإنشاء جامعة الكويت، واستقدم خبراء في التعليم الجامعي من البلاد العربية والأجنبية لوضع أسس إنشائها، ومن بينهم الأستاذ الدكتور «عبد الفتاح اسماعيل» الذي كان وكيلاً لوزارة التعليم العالي بمصر، وقد افتتحت الجامعة في عام ١٩٦٦ في عهد الشيخ «صباح السالم الصباح». وكان الدكتور «عبد الفتاح اسماعيل» أول مدير لها، وعين الأستاذ «أنور النوري» أميناً عاماً لها، بعد انتهاء مدة أمينها العام المصري الجنسية الذي لم يمكث طويلاً.

من الأحداث الأخرى الهامة التي لا ينبغي تجاوزها أو إهمالها في ستينيات القرن الماضي، ولها علاقة بفلسطين والقضايا العربية، نشأة حركة التحرير الفلسطينية (فتح) على أرض الكويت في نهاية الخمسينيات، وبداية الستينيات من القرن الماضي، حيث كان يقيم في الكويت نخبة من الفلسطينيين، وكان المهندس «ياسر عرفات» يعمل آنذاك بوزارة الأشغال الكويتية، واتصل بعدد من الفلسطينيين الذين كان يثق فيهم وفي إخلاصهم للقضية الفلسطينية لعمل تنظيم فلسطيني يعمل لصالح الوطن. وكنت من بين الذين اتصل بهم، فقد زارني في منزلي بحي الشامية، الملحق بمدرسة الشامية المتوسطة، التي كنت أعمل مدرساً بها، ومعه الصديق المشترك الأستاذ «سليمان أبوكرش». وكان يعمل آنذاك محاسباً في السعودية. وأبدى «ياسر عرفات» إعجابه بمساهماتي الإذاعية، وبخاصة إعدادي لركن فلسطين، ولما استأذن بالانصراف قال لي «سليمان» بأن العمل جاد من أجل إنشاء تنظيم فلسطيني، ونحن نحب أن تكون معنا، فشكرته ورحبت بالفكرة، ولكنني اعتذرت لأني كنت أنوي السفر للخارج لاستكمال دراستي العليا والحصول على «الدكتوراه».

وعلى المستوي العربي اشتدت حدة النزاع العربي – الإسرائيلي بعد عزم إسرائيل تحويل مياه نهر الأردن لصالحها، فدعا الرئيس جمال عبد الناصر ملوك ورؤساء العرب إلى عقد مؤتمر القمة الأول بعد نكبة فلسطين عام ١٩٦٤، وتم عقد هذا المؤتمر في القاهرة في الفترة ما بين ١٣–١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤. وقد تفاءل العرب بعقد هذا المؤتمر وعلقوا عليه آمالاً كبيرة، وبخاصة أنه أعاد لم شمل القادة العرب بعد الخصومة بين مصر والسعودية على إثر دعم مصر لثورة اليمن وقائدها اللواء «عبد الله السلال»، وإرسال قوات مصرية إلى اليمن. وقد سألني آنذاك الطالب «عدنان الثاقب» – والذي أصبح من كبار رجال الأمن فيما بعد – بمدرسة كيفان الثانوية بينما كنت ألقي درساً في التاريخ عن رأيي في هذا المؤتمر، فعلقت عليه ببيت شعر هاجم فيه الشاعر «جرير» خصمه الشاعر «الفرزدق» الذي توعد شخصاً اسمه «مربع» بالقتل، فقال هازئاً :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع

ربما كان من أهم قرارات مؤتمر القمة العربية الأول الذي حضره الزعيم الفلسطيني «أحمد الشقيري» إنشاء كيان فلسطيني يجمع إرادة شعب فلسطين ويقيم هيئة تطالب بحقوقه. وقد كلف «أحمد الشقيري» بهذه المهمة.

قام «أحمد الشقيري» – تنفيذاً لهذا القرار – بجولات في البلاد العربية التي يتجمع فيها الفلسطينيون. وزار الكويت، وتم اللقاء في الأستاد الرياضي بمدرسة الشويخ الثانوية، وحضرت اللقاء الجماهير الفلسطينية وأعداد من العرب. وألقى «الشقيري» كلمة بليغة ورصينة، تحدث فيها عن ضرورة قيام كيان فلسطيني يضم شتات الفلسطينيين ويوحدهم، ويجمع طاقاتهم وإمكاناتهم، لخدمة قضيتهم واسترجاع وطنهم. وما أن انتهى الاجتماع حتى شعرنا بأن ذلك اليوم كان حدثاً فلسطينياً عظيماً، وأن الأوان قد حان لاستلام الفلسطينيين زمام قضيتهم، بعد أن أبعدوا عنها يوم دخول الجيوش العربية فلسطين، في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨.

بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية افتتح في عام ١٩٦٥ مكتب للمنظمة في الكويت، وأسندت رئاسة المكتب للأستاذ «خيري أبوالجبين»، وهو من الشخصيات الوطنية، ومن مدينة يافا، وقد عمل بمجرد استلامه المسؤولية بهمة ونشاط وحماس، واستعان بالكفاءات الفلسطينية الكثيرة العاملة على أرض الكويت.

١- محمد علي الفرا. «التنمية الاقتصادية في دولة الكويت»، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٤، ص١٣١.
٢- لوقوعه في جهة القبلة.
٣- لوقوعه في الجهة الشرقية من المدينة.
٤- البشوت جمع بشت وهي عباءة الرجل. والعباءة في الخليج هي رداء المرأة الذي تلبسه فوق فستانها عند خروجها من المنزل. ويسمى الفستان في الكويت تفنوف.
٥- محمد علي الفرا، «التنمية الاقتصادية في دولة الكويت»، مرجع سابق، ص٤١.
٦- المرجع نفسه.
٧- يقلب الكويتيون في لهجتهم حرف «الجيم» إلى «ياء»، فيقولون على الرجل «ريّال» وعلى الدجاجة «دياية». ويقلبون حرف «القاف» إلى «جيم» فيقولون جاسم بدلاً من «قاسم».
٨- الجون هو الخليج الصغير.
٩- مفردها ناقة وهي أنثى الجمل.
١٠- تحولت بعد استقلال الكويت عام ١٩٦١ إلى وزارة الإرشاد والأنباء، وتسمى حالياً وزارة الإعلام.
١١- كان علم الكويت قبل ذلك، مستطيل الشكل، لونه احمر، وفي وسطه كلمة «كويت» مكتوبة باللون الابيض.

في المملكة المتحدة

منذ كنت طالباً بجامعة القاهرة وانا افكر في استكمال دراساتي العليا، والحصول على درجتي «الماجستير» و«الدكتوراه» ولكن – كما ذكرت سابقاً – فإن ظروفي الخاصة ومسؤولياتي العائلية، لم تكن تسمح لي بتحقيق ذلك، إلا أن الفكرة ظلت تراودني باستمرار، لم تغب عن بالي، رغم أني أصبحت رب أسرة، مما فرض عليّ واجبات ومسؤوليات كثيرة، من بينها، الأمور المعيشية التي كانت والحمد لله ميسرة بفضل الوضع المالي المريح، فراتبي الشهري كان كبيراً نسبياً. فقد كنت مصنفاً من كبار الموظفين. وراتب زوجتي كان جيداً. وكنت أتمتع بسكن حكومي مزود بأثاث كامل، وخدمات من ماء وكهرباء، لأن تعاقدي كان من الخارج. هذا بالإضافة إلى تمتعي وأسرتي بجميع الخدمات التعليمية والطبية مجاناً وتذاكر سفر سنوياً إلى غزة مكان تعاقدي.

لقد تمكنت بفضل دخلي الجيد ووضع المعيشي المريح من السفر إلى الخارج في أثناء عطلة الصيف الطويلة، حيث كنت أقضيها مع الأسرة في البلاد العربية أو غير العربية.

في النصف الأول من العام الدراسي ١٩٦٦ أرسلت وزارة التربية الكويتية منشوراً إلى المدارس جاء فيه أن المجلس البريطاني في الكويت اعلن عن نيته إيفاد مدرسين إلى بريطانيا لمدة عام للحصول على دبلوم في التربية. وقد لفتت زوجتي إنتباهي لهذا المنشور الذي وصل المدرسة التي كانت تُعلم فيها. فقدمت طلباً أبدي فيه رغبتي في الدراسة. وفي وقت لاحق تم استدعائي، وقابلت لجنة من المجلس البريطاني كان على رأسها رئيس مكتب المجلس في الكويت المستر «تكلي» Tuckly. وبالطبع قوبل غيري أيضاً، بهدف اختيار الأنسب بحسب معاييرهم. وانقضت بضعة أشهر على المقابلة ولم يتصل بي أحد، فنسيت الأمر، وظننت أن الاختيار وقع على غيري، فلم أشعر بأي أسف، لثقتي بأن الله يفعل ما يريد، وما هو لصالحي بعد أن عملت ما عليّ.

فوجئت ذات يوم برسالة من المجلس البريطاني تطلب مني الاتصال به فوراً. ولما قمت بالاتصال علمت أن الاختيار قد وقع عليّ، وسيكون السفر في مطلع العام الدراسي القادم، وكنا على وشك الانتهاء من العام الدراسي الحالي. وقد أبديت للمجلس ترددي في قبول البعثة، وقلت بأنني نسيت الموضوع، فقيل لي : هل لديك مانع أن نزورك في البيت؟ فقلت : أهلاً وسهلاً، وحددت لهم اليوم والوقت.

جاء في الموعد المحدد إثنان بريطانيان من المجلس البريطاني، وحاولا إقناعي بقبول

المنحة لأن الرئاسة في لندن عملت الترتيبات اللازمة، وليس من المستحسن الرفض حالياً. فقلت لهما بأنه قد تبين لي بأنه لا حاجة لي بدبلوم في التربية، فإن ما حصلت عليه من خبرة عملية في التدريس كافية، وإنما أرغب في مواصلة الدراسة في تخصصي في الجغرافية لأحصل على الماجستير. فقالا بأن ذلك مخالف لشروط المنحة. فقلت بانني أعتذر عن قبولها، وآسف لما حدث. فقالا : كنا نود أن تقبل.. ولكن سنخبر الرئاسة في لندن بالأمر لتقرر المناسب.

مضت مدة بعد مغادرة البريطانيين منزلي ولم أسمع منهما شيئاً، وبدأت أقوم بالحجز للسفر مع الأسرة لقضاء الإجازة خارج الكويت كالعادة، وإذا بالمجلس البريطاني يتصل بي ويخبرني بأن الرئاسة في لندن تعرض عليّ الدراسة في جامعة نيوكاسل للحصول على ماجستير في الجغرافية التطبيقية، والذي يُعد أول برنامج يطرح في الجامعات البريطانية، وأن من يلتحقون به ويحصلون على الماجستير، سيكونون أول دفعة تتخصص في هذا المجال المطلوب والذي يؤهل الخريجين للعمل في مجالات عدة منها تخطيط المدن والالتحاق بوزارات التخطيط. وأن مدة البرنامج عام دراسي، أي نفس مدة المنحة المعروضة لدبلوم التربية. ولكن الجهد المطلوب، في برنامج الجغرافية التطبيقية، كبير جداً لأنه مكثف ومضغوط، وقد يكون من الصعب عليّ ذلك، وبخاصة أنني تخرجت في الجامعة وحصلت على الليسانس في الجغرافيا عام ١٩٥٤، ونحن الآن في منتصف عام ١٩٦٦، اي أن هناك فاصلاً زمنياً مدته ١٢ عاماً، كما أن المستوي العلمي بين البلاد العربية وبريطانيا كبير جداً، فقبلت العرض على الفور، وشكرت المجلس البريطاني أن أتاح لي تحقيق أمنية استكمال دراساتي العليا، ظلت تراودني منذ تخرجت في جامعة القاهرة.

ولما علم أصدقائي ومعارفي جاءوا لزيارتي، ومنهم الصديق الوفي «يوسف إبراهيم زعبلاوي» الذي كنت أعده بمثابة أستاذي، وأقدره وأحترمه وأعتز بنصائحه. وقد هنأني بالمنحة وتمنى لي النجاح في الدراسة. وقد أبدى بعض الأصدقاء والزملاء عدم إرتياحهم لقبول العرض، ونصحوني بعدم المجازفة بالقيام بمغامرة كهذه، غير مأمونة العواقب، وحذروني من تداعياتها ونتائجها السيئة عليّ، وعلى الأسرة. وقالوا بأن علي الحفاظ على ما ادخرته من مال – لم يعد لي وإنما هو للأسرة التي أتولى مسؤولياتها –، وفي الوقت نفسه، يتوجب عليّ عدم التفريط بعملي الذي هو مصدر دخلي الذي أنفق منه على الأسرة. ومنهم من قال لي بأن حصولي على درجة الماجستير، وحتى الدكتوراه لن يغير لمن وضعي، ولن يُحسن من أحوالي، وسأظل أعمل في وزارة التربية، مثل بعض

الذين يحملون شهادات عليا، ولا زالوا يعملون في المدارس الثانوية، وقد حاولوا العمل بجامعة الكويت فلم يستطيعوا لأسباب أنت تعرفها جيداً.

شكرت الأصدقاء على نصائحهم الغالية، وحبهم لي، وحرصهم عليّ وعلى أسرتي، وقلت لهم بأنني قبلت العرض، وإني متوكل على الله، وإن لدي الرغبة والقدرة على تحدي الصعاب، وأن التحدي من طبعي، ومن مكونات شخصيتي. وقد سبق أن واجهت الكثير من الصعاب والتحديات في مسيرة حياتي، وكنت أواجهها معتمداً على الله الذي وهبني الثقة بنفسي، وأمدني بالقدرة للتغلب عليها.

ظلت كلمات أصدقائي، يتردد صداها في نفسي. لقد كانوا على حق، حينما قالوا بأن ما سأقوم به مغامرة، وكنت أعلم أن ما من عمل يقوم به الإنسان لا بد من أن تتوفر مقوماته، وأن المغامرة يجب أن تكون محسوبة ومدروسة بشكل جيد، وإلا عدت مقامرة مدمرة.

أخذت أتأمل في أوضاعي وأحوالي فوجدت بأن ما سأقوم به هو أقرب ما يكون إلى المغامرة، وأن المغامرة بالنسبة لي، وأنا رب أسرة، ليست سهلة، ولكنها – في الوقت نفسه – ليست مستحيلة، وأن عليّ أن أدرس إيجابياتها وسلبياتها، وأبحث في مقوماتها وعوامل نجاحها، حتى لا تصبح مغامرة لا أستطيع تحمل تداعياتها، وتصبح أسرتي من ضحاياها. إنه – لا شك – موقف صعب، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بمستقبل أسرة، ويتخذ شكلاً من أشكال المصير.

كان من أهم متطلبات النجاح ومقوماته، قدرتي على الدراسة في تخصص جديد، يطرح لأول مرة، ليس في بريطانيا وحدها وإنما في العالم، كما علمت فيما بعد. وهل بإمكاني اجتياز الفجوة العلمية بين بلد متقدم كبريطانيا وبلد نام كمصر التي درست فيها؟ وهل بمقدوري التغلب على الفترة الزمنية الممتدة منذ تخرجت في عام ١٩٥٤ وحتى عام ١٩٦٦، وفي أثنائها حدثت تطورات علمية هائلة، لعل من أبرزها «ثورة الكمبيوتر». وسألت نفسي : إن لم أكن امتلك مستلزمات تجاوز هذه الصعوبات، ومتطلبات التغلب عليها، فماذا أملك إذن؟. فأجبت نفسي قائلاً : إني أملك الرغبة والإرادة، وهي مقومات ضرورية وهامة، وتذكرت المثل الإنجليزي When there is a will, there is a way ومعناه «إذا وجدت الإرادة فإن الطريق تصبح ميسرة».

إلا أنه سرعان ما علمت بأن الإرادة إن لم تكن مقرونة بالقدرة، تصبح أمنية، وأن القدرة على تحقيق الشيء أمر في غاية الأهمية، وتذكرت قول الشاعر :

مـا كـل مـا يـتـمـنـى المـرء يـدركـه   تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

ثم قلت إن القدرة تتحقق بالرغبة والثقة بالنفس، وتذكرت بيتاً من الشعر لأمير الشعراء «أحمد شوقي» تغنيه أم كلثوم :

ومـا نـيـل المـطـالـب بـالـتـمـنـي   ولـكـن تـؤخـذ الـدنـيـا غـلابـا

نعم إني أملك الرغبة، وثقتي بنفسي – والحمد لله – كبيرة جداً، وهي في الوقت نفسه، ليست ثقة بلا حدود ولا مقومات، فالثقة إن تعدت حدودها، وتجاوزت قدرات الشخص، تحولت إلى غرور يدفع صاحبه إلى عدم تقدير الموقف بشكل سليم، وهذا شيء مدمر. ولكن فقدان الثقة بالنفس يمحو شخصية الإنسان، ويجعله ضعيفاً ومستسلماً ومتواكلاً للأقدار. وهناك فرق كبير بين التوكل، وهو أمر محمود، والتواكل، وهو أمر مذموم، وأن الثقة بالنفس، بلا غرور ولا مبالغة، هي من عوامل القدرة، وتمثلت بقوله سبحانه وتعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

غادرت الكويت في شهر تشرين أول / أكتوبر ١٩٦٦ إلى لندن، وقام ابن العم الأستاذ «محمود الفرا» الذي كان يعمل آنذاك بالكويت بتوصيلي إلي المطار حيث وجدت بعض طلابي قد جاءوا لوداعي فشكرت لهم صدق محبتهم لي. وقد فضلت السفر وحدي تاركاً الأسرة في الكويت إلى أن ألتحق بالجامعة وتستقر أحوالي، وأتمكن من التكيف مع البيئة الجديدة، وأثبت نفسي في الدراسة، فاصطحاب الأسرة معي سيلقي عليّ أعباءاً فوق الأعباء التي تفرضها الدراسة والتأقلم مع الوضع الذي لم أكن قد ألفته من قبل.

كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى لندن، فلم يسبق لي أن زرت بريطانيا قبل ذلك، وأحمد الله أن وجدت مندوباً من المجلس البريطاني في استقبالي بالمطار، فأخذني بالسيارة إلى الضيافة حيث وجدت عدداً من الطلاب القادمين من شتى أنحاء العالم ليدرسوا أو يتدربوا على نفقة المجلس البريطاني.

كان الجو بارداً وغير مألوف لي، فقد جئت من منطقة حارة اعتدت على جوها ومناخها، فأبقيت المدفاة مشتعلة. وكان الوقت مساء، فطلب مني التوجه للمطعم لتناول العشاء. وبعدها قابلت مسؤولاً من المجلس، وسلمني تذكرة السفر بالقطار السريع إلى مدينة نيوكاسل في أقصى شمال شرق انجلترا، وأخبرني بأن سيارة ستقلني في صباح الغد إلى محطة «كنجز كروس» Kings Cross التي سأركب منها القطار الذي يصل نيوكاسل في مساء اليوم نفسه، وسأجد من يستقبلني على المحطة هناك.

في الصباح غادرت مكان الضيافة وركبت السيارة التي مرت بشوارع لندن المكتظة بسكانها وبسياراتها، فهالني فخامة بناياتها، وارتفاع مبانيها، وأناقة شوارعها، ونظام السير فيها، والتزام السائقين بقانون المرور، وتقيد المشاة به، فهم لا يقطعون الشارع إلا من المكان المحدد، وحينما يرون إشارة السماح لهم العبور، ويواظبون السير على الأرصفة. ومما لفت نظري نظافة الشوارع، فلم أر شخصاً سائراً في الشارع يلقي أي شيء على الأرض. فالشخص يتوجه إلى أقرب صندوق للقمامة، ويلقي فيها ما يود إلقاءه، ولم أر ورقة أو بقايا طعام يلقى من نافذة سيارة، كما يحدث في كثير من البلاد العربية. وقد بدا لي أن الناس يحرصون على نظافة بلدهم، إذ لم أشاهد كناساً يقوم بكنس الشوارع، فليست هناك أشياء تلقى على الأرض ليقوم الكناسون بكنسها أو جمعها والتقاطها، كما يحدث في كثير من بلداننا.

دخلت محطة القطار فوجدتها في غاية النظافة والأناقة والترتيب، وتوجهت إلي رصيف القطار الذي سأركبه، وقد لفت نظري أيضاً نظافة القطار وسلامة مقاعده، وخلوها من الكتابة أو التدمير، كما في كثير من أقطارنا، فالجميع هنا حريص على المال العام، وعلى أملاك الغير، كأنها ماله وأملاكه الخاصة. وكان معظم ركاب القطار يشغلون أنفسهم بقراءة الصحف أو كتب كانت بحوزتهم، فادركت أن الشعب البريطاني يقرأ. أما نحن – الأمة التي نزلت أول آية على رسولها كانت «إقرأ» – فهي أمة، للأسف لا تقرأ، فعرفت أن هذا من أسباب تخلفنا وتأخرنا عن ركب الحضارة العالمية.

تحرك القطار في موعده، وزاد من سرعته بعد أن اجتاز حدود لندن الكبرى وصار ينهب الأرض نهباً منطلقاً كالسهم. وظللت أنظر من خلال النافذة مستمتعاً بمناظر الريف الإنجليزي الجميلة، حيث المزارع المنظمة، والنباتات، والشجيرات والأشجار الباسقة، والمساكن الريفية البسيطة، والأنيقة، وشاهدت الضيع والقرى والتجمعات السكنية القريبة من الخط الحديدي، وكلها نابضة بالحياة والحركة.

بعد نحو ساعتين أو أكثر توقف القطار في محطة «دارلنجتون» Darlingtonفشاهدت، في مكان بارز من المحطة، أول قاطرة بخارية في العالم صنعها المهندس البريطاني «جورج ستيفنسون Stephenson» مستفيداً من اكتشاف «جيمس واط» لقوة البخار. كان اسم هذه القاطرة «بلوخر» Blucher ، وقد سار بها «ستيفنسون» على الخط الحديدي الذي بناه، ويصل بين مدينتي «دارلنجتون» و«ستكتونStockton » على نهر «تيز» Tees .

لم تطل مدة توقف القطار عن ربع ساعة، ثم استأنف سيره نحو مدينة «نيوكاسل» التي وصلناها بعد نحو ساعة ونصف. وقبل الوصول بنحو عشرين دقيقة، مررنا بمدينة

« درم » Durham التاريخية المشهورة بجامعتها العريقة، والتي تعد من أقدم الجامعات البريطانية، ولا يسبقها في القدم إلا جامعتي « اكسفورد » و« كيمبردج » الشهيرتين. وقد أستمدت مدينة « درم » أهميتها وشهرتها من جامعتها، ولولا الجامعة، لما تمتعت المدينة بهذه الشهرة. وفي هذه الجامعة قسم لدراسات الشرق الأوسط، يعد من أبرز الأقسام في الجامعات البريطانية. وقد علمت – فيما بعد – أنه كان لهذه الجامعة ارتباطات بالأنشطة الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط. ومن المعلوم أن جامعة نيوكاسل – قبل أن تصبح جامعة مستقلة – كانت جزءاً من جامعة « درم » وأن كلياتها واقسامها بمدينة نيوكاسل كان يطلق عليها اسم « كنجز كوليج » Kings College، وهي التي أصبحت نواة لجامعة نيوكاسل فيما بعد. وقيل أن هذا حدث في أواخر خمسينيات القرن الماضي.

عند اقترابنا من « نيوكاسل » بدأت تظهر معالم المدينة التي تقع في ولاية « نورثمبرلاند » Northumberland، وهي آخر آخر ولايات انجلترا، ويفصلها عن أسكتلنده التي كانت في الماضي مملكة مستقلة، نهر تويد Tweed. وتشتهر هذه الولاية بمناجم الفحم الحجري، والصناعات الحديدية. وفي بريطانيا نجد تلازماً بين مواقع كل من مناجم الفحم والصناعات الحديدية والصلب التي تعتمد كثيراً على الفحم، إذ أنه كلما زادت المسافة بينهما ارتفعت أكلاف نقل الفحم. ونظراً لشهرة « نيوكاسل » ومنطقتها بمناجم الفحم الحجري، فهناك مثل انجليزي يقول هازئاً : « يا حاملين الفحم إلى نيوكاسل » Carrying coal to Newcastle. وهو أشبه بالمثل العربي الذي يقول ساخراً : « يا بائعين الماء في حارة السقائين ».

وصلت « نيوكاسل »، وكان الوقت عصراً، ووجدت شخصاً من المعهد البريطاني ينتظرني فأخذني بسيارته إلى المكان الذي خُصصَ لأقيم فيه. ولا زلت رغم مضي أكثر من أربعين عاماً، أذكر اسمه Fernwood Interchurch House، ويقع في حي « جسمند » Jesmond، وكان من أرقى أحياء مدينة نيوكاسل السكنية. وقد فوجئت بأن المحلات كانت مقفلة، رغم ان الشمس كانت لا تزال ساطعة، على عكس ما هو في بلادنا. ولما سألت عن ذلك قيل لي بأن الوقت أصبح مساءً، وأن المتبع هنا أن المحلات التجارية تقفل فيما عد البارات وصالات الرقص والسينما والمسارح والحوانيت البسيطة في الأحياء أو ما يسمى « حوانيت الأحياء » .Shop Corners

كانت الغرفة المخصصة لي في السكن واسعة ومريحة ولها نوافذ تطل على الحديقة، والسكن تشرف عليه الكنيسة، وهو مختلط، فيه الرجال والنساء، وكلهم – فيما أعلم طلبة قدموا من جميع القارات، وفيه أيضاً طلاب بريطان، وكان الشخص الواحد

يدفع كل أسبوع ستة جنيهات إنجليزية[1] لقاء أجرة الغرفة، ووجبتي الإفطار والعشاء يومياً، وجميع الوجبات في يومي السبت والأحد. ويمكن للشخص الاستفادة من بعض الخدمات كغسيل الملابس وكيها، على أن يقوم بذلك هو بنفسه. وفي المسكن مكتبة جيدة يستطيع كل شخص الاستفادة منها أو القراءة فيها. ويوجد أيضاً صالة استقبال واسعة، وفيها تلفزيون، وهي مخصصة للجلوس، واستقبال الضيوف، وفي هذه الصالة تقام الاحتفالات في المناسبات، وتلقى فيها المحاضرات والندوات، وكان السكن قريباً من الجامعة بحيث يمكن الذهاب إليها مشياً على الأقدام.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى مكتب المجلس البريطاني، وقابلت المدير، وكان كبير السن، فرحب بي وأخبرني أن أذهب إلى الجامعة للتسجيل فوراً. وكانت منحة المجلس البريطاني نحو ٥٧ جنيهاً (باونداً) إسترلينياً شهرياً علاوة على تذكرة سفر ذهاب وإياب، وثمن الكتب، ورسوم الجامعة التي كانت آنذاك ٧٢ باونداً في السنة فقط، ارتفعت بعد سنتين إلى أكثر من ألف «باوند» للطلبة غير البريطانيين. وظل البريطانيون يدفعون الرسوم القديمة.

حينما ذهبت إلى قسم الجغرافية قابلني رئيس القسم البروفيسور «وليم هاوس W. House» وسألني عن دراساتي في السابق وتخصصي، وإذا ما كنت أشعر بمشكلة يستطيع تذليلها لي. ولما قلت له أنني لست كالإنجليز أجيد الإنجليزية، وأخشى أن يؤثر ذلك على ما أكتبه، فقال لي «أنت تتكلم جيداً بالإنجليزية، فاكتب كما تتكلم ولا شيء أكثر من ذلك، فليست عندك مشكلة في اللغة».

كانت الدراسة لدرجة الماجستير تشمل مواداً في الجغرافية التطبيقية ومسوحات ميدانية، ورسالة تقدم في نهاية البرنامج. وتؤدى المواد على هيئة حلقة بحث «سمنار»، يشترك فيه رئيس القسم البروفيسور «هاوس» والدكتور «وارن» K. Warren. وكان التركيز على التخطيط الإقليمي والتنمية الاقتصادية وتخطيط المدن في بريطانيا، والمشكلات التي عانت منها بريطانيا منذ فترة الكساد العالمي عام ١٩٢٩، وكيف أمكن التغلب عليها، ثم المشاكل التي نجمت عن تضخم المدن واتساعها كمشكلة المرور، ومشكلة الإسكان، ومشاكل الحدود، ونضوب الموارد الطبيعية.. إلخ.

كان جميع الطلبة الذين معي كلهم بريطانيون وعددهم ستة، ولا زلت أذكر أسماءهم وهم: «تيم موسون» Tem Muson و«ديف ثومبسون» Dave Thompson والآنسة «أنجولا براون» Angola Brown والآنسة «ليندا برادفورد» Lynda Bradford و«كيث فاينر» Keith Viner وزوجته، وكانا ينتميان إلى عقيدة «المورمون» Mormon. وهم

مسيحيون لهم كنيسة خاصة، وكتاب خاص، وقد تأسست عقيدة «المورمون» في عام ١٨٣٠ على يد شخص اسمه «جوزيف سميث» وهم يعتقدون أنهم ينتسبون إلى نبي اسمه «مورمون».

جاء هؤلاء الطلبة من ثلاث جامعات بريطانية هي : أكسفورد، وشيفيلد، ومانشستر، وقد كانوا حديثي التخرج، وكنت أكبرهم سناً، وقد نشأت بيني وبينهم علاقة وطيدة. وكثيراً ما كانوا يسألونني عن أمور وقضايا شرق أوسطية. وكنت أشعر بتبنيهم وجهة النظر الصهيونية، ولذلك حاولت إفهامهم الحقيقة، ولكنهم أبدوا عدم الاكتراث بالخوض في السياسة.

لعل من الطرائف التي حدثت بيني وبين زملائي، حينما دعوتهم إلى شرب قهوتنا التي قمت بإعدادها بنفسي. وكانت زوجتي قد أرسلت لي – بناء على طلبي – غلاية (إبريق) قهوة وفناجين وصينية ونصف كيلو بن. ولما انتهيت من إعدادها – ويبدو أنها كانت مركزة أكثر من اللازم – وقدمت لكل واحد فنجاناً، لاحظت أنهم شربوها على مضض، أي أنهم لم يستسيغوها. ومما أكد لي ذلك فيما بعد، أنهم كانوا إذا حاول أحدهم القيام بعمل لا يرضون عنه، يهددونه قائلين : كف عن هذا، وإلا طلبنا من «المسترفرا» ليصنع لك قهوة وتشربها.

تختلف الدراسة في الجامعات البريطانية عنها في جامعتنا العربية، إذ يبدأ الأستاذ بإلقاء محاضرته، ويترك متسعاً من الوقت للمناقشة والتعليق، ويوزع في نهاية المحاضرة قائمة بالمراجع التي ينبغي الرجوع إليها، ومن هذه المراجع يدون الطالب كل ما له علاقة بموضوع المحاضرة، بحيث يحصل الطلاب على جميع مفردات المقرر طيلة العام الدراسي. وبذلك تتجمع حصيلة وفيرة، وكم كبير من المعلومات يعتمد عليها الطلاب في الامتحان. إذ ليس هناك كتاب مقرر يمكن الاعتماد عليه وحده. كما أن محاضرات الأستاذ غير كافية، ولا ينبغي أن تكون المصدرالوحيد للطلاب. إن دور الأستاذ يكون التوجيه وإدارة المناقشة وتعويد الطلاب على الرجوع إلى المراجع. والشخص الذي لا يعتمد على المراجع ينكشف أمره بسهولة، لأنه لا يكون قادراً على المناقشة أو المشاركة فيها. ويكلف الأستاذ الطلبة بإعداد ورقة حول موضوع معين ويلقيها في الحلقة، وكأنه هو الأستاذ، ويناقشه الجميع في محتواها، والتأكد من قدرته على الدفاع عن آرائه ووجهات نظره. ويُكلف الطالب في المقرر الواحد بأكثر من مرة. ولذلك يتشغل الطلبة طيلة الأسبوع في عمل دائم، ومرهق وبلا كلل أو ملل. ونظراً لعدم تعودي على هذا النهج، فقد شعرت بالتعب والإرهاق، وواجهت الكثير من المشقة، وعدم القدرة على

منافسة زملائي الانجليز الحديثي التخرج، والذين تعودوا على هذا النوع من الدراسة. ولكنني صممت على مواجهة التحدي ببذل أقصى ما عندي من جهد حتى لا أعود إلى الكويت خائباً - لا سمح الله - كما حدث مع غيري في جامعات بريطانية.

لقد أثر هذا الجهد وسهر الليالي على صحتي، فنقص وزني بما لا يقل عن ٢١ كيلوغراماً، فقد كان وزني حين وصولي بريطانيا نحو ٨٦ كيلوغراماً، فأصبح بعد أربعة أشهر ٦٥ كيلوغراماً فقط. وكان هذا يناسب جسمي فحافظت عليه حتى الآن.

استدعاني الدكتور «وارن» إلى مكتبه يوماً، وقال لي أنه لاحظ أنني في كتاباتي أركز على ذكر الحقائق، وهي كثيرة عندي، وتدل على سعة اطلاعي وكثرة قراءاتي، إلا أن ذلك ليس كافياً. فالحقائق لا بد من تحليلها ومناقشتها وتقييمها، ومقابلتها بغيرها من الحقائق، وكيفية إثباتها أو نفيها أو تبريرها. إن بعض الحقائق تثبت غيرها في حين أن بعضها يدحضها وينفيها، أو يقلل من شأنها، وأن على الباحث إبراز رأيه والدفاع عنه، وعليه أن يعرف كيف تفحص الحقائق ويتأكد من مدى صدقيتها، فالحقائق ليست كلها مؤكدة وصادقة، وهناك من يخلط بين الحقيقة والبدهية، فالأولى متغيرة وتحتاج إلى البرهنة، بينما الثانية مؤكدة ولا تحتاج إلى الفحص والبرهان، وإنما تستخدم لإثبات غيرها والبرهان عليها.

وكي لا أشعر بالإحباط، استطرد الدكتور «وارن» قائلاً بأنه لاحظ أن جميع الطلاب القادمين من جامعات عربية يركزون على إبراز الحقائق فقط، وهذا راجع إلى طريقة التدريس في الجامعات العربية، حيث لا يترك الأستاذ فرصة للطلاب للمناقشة، ولا حتى الإتيان بآراء مخالفة، ولا يلزمهم بالاطلاع على المراجع، وإنما يعودهم على كتابة المحاضرات، أو الاعتماد على الكتاب المقرر الذي غالباً ما يكون من تأليفه. وفي نهاية الفصل تركز الأسئلة على إبراز الحقائق التي وردت في محاضرات الأستاذ أو في كتابه، والويل لمن يأتي بآراء مخالفة.

وفي هذا الصدد، ربما كان من المفيد، أن أذكر ما حدث، حينما دخل عليّ رئيس القسم البروفيسور «هاوس» في مكتبي وأخبرني بأن طالباً من بلد عربي - ذكر لي اسمه - يريد الدراسة للحصول على الماجستير، وسيعرفني عليه بعد أن يقابله. وطالت المدة ونسيت الموضوع. وبعد مضي نحو ثلاثة أشهر جاء رئيس القسم ومعه الطالب وقدمه لي وعرفني عليه، وطلب مني التحدث معه.

رحبت بالطالب، وأبديت له استعدادي الكامل لتقديم أي مساعدة يحتاج إليها، تكون في حدود طاقتي، فشكرني. ثم سألته عن رأيه في مقابلته للبروفيسور «هاوس»

فقال : لقد كنت أظن أنه سيمتحنني، فقلت : ماذا فعل معك إذن؟. قال بلهجته الخاصة : « سولف معي »، أي تحدث عن التعليم في الجامعة التي تخرجت فيها في وطني، وعن المقررات الدراسية، وطرق التدريس، وعمل البحوث، وكيفية استخدام المكتبة. قلت : وماذا أجبته؟ قال : بأن الأستاذ يملي علينا محاضرته، ونحن نكتبها. وفي آخر الفصل أو العام يمتحننا في ما أملاه علينا من محاضرات. ولا يحاول الأستاذ مناقشتنا في المحاضرات، ولا حتى التعرف على وجهات نظرنا. ومعظم الأساتذة لا يكلفوننا بعمل أبحاث، ولذلك فإننا قد لا نضطر لاستخدام المكتبة، ولا حتى الرجوع إلى المراجع.

أنهى الطالب حديثه بالقول : إن البروفيسور « هاوس » زين، ورجل طيب، وسأكون سعيداً بالدراسة معه. فقلت له : لماذا لم تحاول مقابلتي قبل لقاء البروفيسور « هاوس »؟. قال لم أكن أعرف لأسأل عنك، ولكن سألجأ إليك كلما احتجت لمشورتك بعد أن التحق بالقسم. لو كان هذا الطالب قد جاء إليّ لربما ساعدته في كيفية الحديث مع البروفيسور « هاوس ». وبناء على إجاباته فقد اعتقدت بأنه لن يقبل.

كانت العادة أن يجتمع أعضاء هيئة التدريس في القسم وطلبة الدراسات العليا يومياً في أثناء تناول الشاي مع الحلويات في الرابعة والنصف مساء، وهو موعد High Tea[٢]، وقد جاءني في ذلك اليوم الذي رأيت فيه الطالب، « البروفيسور هاوس »، وسألني عن رأيي في هذا الطالب، فقلت بأني أنصح بقبوله. فرد علي فوراً : كيف أقبل طالباً يعتمد فقط على محاضرات أساتذته ولا يستخدم المكتبة، ويحفظ المحاضرات وكأنها محفوظات، ولذلك اعتذرت له، وقلت له ليبحث عن جامعة أخرى علها تقبله.

لقد أعجبت كثيراً بمنهج التعليم في بريطانيا، وأحببت أن أعرف كيف يعلّمون التلاميذ الصغار، ويساعدونهم على إظهار قدراتهم وملكاتهم النقدية والتحليلية، وينمون فيهم موهبة التخيل والتصور والاستنتاج، وهم لا يسلكون أسلوب التلقين في التدريس، وإنما يفضلون الحوار بطرح أسئلة بسيطة تثير التلاميذ، وتدفعهم إلى التفكير للوصول إلى المعرفة مستعينين بما يعطيهم المدرسون من كلمات أو جمل تعد بمثابة مفاتيح لحلول الأسئلة الصعبة Clues. وهذا الأسلوب يساعد على إيجاد ملكة نقدية علمية وموضوعية تؤهل الشخص في المستقبل ليمحص كل ما يسمعه ويقرأه ويدقق فيه.

كنت حريصاً على زيارة إحدى المدارس في إنجلترا لأطلع على كيفية التعليم عندهم. وقد تحققت لي هذه الرغبة حينما جاءت أسرتي للعيش معي في بريطانيا، وألحقت

بناتي : نداء ونرمين وأمل بأقرب مدرسة لمنزلنا وهي مدرسة :Westgate Hill School .
ولما طلبت من مديرة المدرسة حضور بعض الدروس في أحد الصفوف، اعتذرت لأن ذلك غير مألوف عندهم، وخاصة من قبل أولياء أمور التلاميذ، ولكنها سمحت لي بالذهاب مع أحد فصول المدرسة إلى رحلة دراسية ميدانية في مادة التاريخ، وموضوعها «السور الروماني»، والذي بناه الرومان إبان حكمهم لإنجلترا. وهذا السور يشكل الحدود بين إنجلترا واسكتلندا. وفي الوقت نفسه يعد آخر حدود الإمبراطورية الرومانية من ناحية الشمال. ومن المعلوم أن الامبراطورية الرومانية قضى عليها البرابرة حينما احتلوا العاصمة روما في عام ٤٧٦م.

لا يتسع المقام هنا للتحدث عن هذه الدراسة الميدانية بالتفصيل، ولكن أكتفي بذكر ما أود التركيز عليه من الناحية التعليمية حسب المنهج التعليمي المتبع في بريطانيا آنذاك. فقبل يومين من بداية الدراسة زوّدت مدرسة التاريخ كل تلميذ وتلميذة بورقة تبين برنامج الرحلة، والمحطات التي ستتوقف فيها الحافلة، والأماكن المقصود زيارتها، وخارطة تبين الطريق ومعالمها الهامة، وما على جانبيها من قرى ومدن ومظاهر طبيعية وبشرية. وفي الورقة حدّدت المدرسة ما يجب على كل شخص أن يحضره معه : سندويتشات، ماء، دفاتر وأقلام للكتابة، كاميرات للتصوير.. إلخ.

كانت المدرسة طيلة الرحلة تلفت نظر التلاميذ إلى الظواهر الطبيعية، كالسهل والوادي والهضبة والجبل والأشجار والنباتات والمجاري المائية. وإلى الظواهر البشرية كالطرق وخط سكة الحديد والمزارع والمساكن والقرى.. الخ، وتطلب من التلاميذ الربط بين هذه الظواهر، وسبب وجودها أو تلازمها، وما يترتب على هذا الوجود والتلازم من نتائج، كالربط بين نشأة القرية والموقع، وكيف استثمر السكان هذا الموقع، وأسئلة أخرى كثيرة.

وصلنا إلى السور، وتوقفنا عند قلعة من قلاعه، والتي كانت الهدف من الزيارة، وطفنا بما تبقى من آثار كانت تدل على معالم القلعة : كمساكن الجنود، وبئر الماء، وفتحات إطلاق السهام.. الخ. وبدأت المدرسة تسأل التلاميذ عن هذه الآثار. وكان من جملة هذه الأسئلة : لماذا اختار الرومان إقامة هذا السور؟ هل بدافع الحماية؟. ومِنْ مَنّ؟. وما هي مواد بناء هذا السور؟ هل هي من معطيات البيئة المتمثلة في الصخور المتوفرة هنا؟. ولماذا اختاروا هذا الموقع لهذه القلعة في هذا المكان المرتفع؟. هل لأنه يشرف ويطل على غيره من المواقع الأقل منه ارتفاعاً؟ ولماذا حفروا بئراً للماء داخل القلعة وليس خارجها؟. ألا تعتقدون أن ذلك خوفاً من تعرض القلعة لحصار من الأعداء أم لتوفر الماء في هذ المكان؟.

هذه عينة من الأسئلة وليست كلها. وفي النهاية طلبت المدرسة من كل تلميذ أن يرسم القلعة وما هو موجود بداخلها من أشياء، وما يمكن تخيله من مرافق كانت ضرورية حين بنائها ولازمة لمن كان يعيش بداخلها، ورسم منطقة القلعة وما تشتمل عليه من ظواهر طبيعية وبشرية هامة. وطلبت المدرسة من كل شخص إعداد تقرير عن الرحلة ومشاهداته وآرائه، ويكون مستعداً لإلقائه أمام زملائه التلاميذ كي يناقشوه في محتواه.

أدركت حين عودتي، الفارق الكبير بين التعليم عندنا وعندهم، وعرفت أسباب تقدم هذه الشعوب ونهضتها، ذلك أن التعليم الجيد هو الذي ينمي قدرات الشخص وملكاته، ليجعل منه مواطناً صالحاً وقادراً علي خدمة أمته ووطنه. وهذا ما فعلته اليابان حينما بدأت نهضتها في منتصف القرن التاسع عشر. وهذا ما فعلته أيضاً كل من الهند وماليزيا مؤخراً. إذ لا تقدم ولا نهضة دون تعليم سليم يستند على قواعد صحيحة، وبرامج واضحة، وأهداف محددة، ووسائل عملية. وتعد التربية من أهم أركان التعليم. ولعل من أوليات التربية السليمة، تربية الفرد، منذ الطفولة، على حب الوطن والولاء له، قبل أن يكون هذا الولاء للحاكم، أو صاحب النفوذ والسلطة، فالوطن باقٍ، بينما السلطان زائل. كما أن الولاء للسلطان – إذا كان على حساب الوطن – فإنه يصبح نفاقاً ورياءً ومصلحة، أما الولاء للوطن فهو أبعد ما يكون عند النفاُق والرياء. والتربية الصحيحة تتطلب غرس الفضائل والقيم، كالصدق والأمانة والوفاء – لمن يستحقه – والنزاهة والاستقامة.. إلخ. لا شك أن تعليماً نوعياً متميزاً وتربية وطنية وقومية سليمة، يمكن تحقيقه في مجتمع يتمتع الناس فيه بالحرية والعدل والمساواة والديمقراطية.

أقول هذا القول معتمداً على خبرتي الطويلة في التربية والتعليم، فقد قضيت عمري في هذه المهنة الشريفة والنبيلة، وعملت في جميع مراحل التعليم بدءاً بالقاعدة، وانتهاء بقمة الهرم الجامعي، وساهمت في وضع المناهج والمقررات الدراسية في أكثر من بلد عربي، وألفت كتباً مدرسية وجامعية. ولذلك فإني أعتقد أن النهضة الحقيقية والسليمة للأمة لا بد وأن تبدأ بالتربية والتعليم، والتي تتضمن المناهج والمقررات المستمدة من أهداف وطنية وقومية تعبر عن روح الأمة وعقيدتها، وتسعى إلى تحقيق آمالها وتطلعاتها، وفي الوقت نفسه تحديث طرق التدريس والابتعاد عن أسلوب التلقين الذي من مساوئه جعل الطلاب كالببغاء يرددون ما يسمعونه من مدرسيهم، ويقتل فيهم روح النقد والابتكار، ويعودهم على التبعية والتقليد، ويجعلهم يهابون أو ربما يخشون معارضة أفكار مدرسيهم، مما قد يشجعهم على النفاق. وبذلك تكون المدرسة

قد ساهمت في شيوع ظاهرة النفاق والكذب والخداع والخوف والمراءاة التي تنتشر اليوم في بلادنا العربية، وأدت إلى زيادة تخلفها وتأخرها وتدهور أحوالها.

ربما كان من المناسب ذكر بعض الحوادث أو النوادر التي تعرضت لها في بريطانيا، فقد يجد فيها القاريء بعض الراحة بعد أن أرهقته بأمور تربوية وتعليمية، فأصبح في حاجة إلي طرائف يرفه بها عن نفسه.

كان من أهداف المجلس البريطاني أن يعرف مبعوثيه على نمط الحياة في بريطانيا وطبيعة المجتمع البريطاني وما يتسم به من قيم وعادات وتقاليد. ولذلك حرص المجلس على الاتصال بعدد من الأسر البريطانية لتستضيف المبعوثين، وبخاصة في العطل والمناسبات ونهاية الأسبوع، ويقضون معهم يوماً كاملاً في ضيافتهم. ولذلك يقوم المجلس بتزويد هذه الأسر باسماء وعناوين المبعوثين حتى يمكن الاتصال بهم ودعوتهم. وبناء عليه، إتصل بي رب إحدى الأسر البريطانية، ودعاني لقضاء يوم السبت في ضيافة الأسرة، وتناول طعام الغداء، وقال أنه سيحضر بنفسه بسيارته لاصطحابي إلى بيته، فقبلت شاكراً.

لما وصلنا المنزل رحب بي رب الأسرة وبدأ التعريف بنفسه فقال بانه عمل ضابط بوليس في مدينة الناصرة بفلسطين إبان الانتداب البريطاني. ثم عرفني على زوجته وكانت ربة بيت جيدة، لمست في خصالها بصمات شرقية، ربما لكونها عاشت فترة من الزمن في الناصرة. ونادت الأم ابنتها وطلبت منها الجلوس، وقالت : إن ابنتي «كرستين» تدرس التاريخ في الجامعة، وقد أحسنت تربيتها، ولا أسمح لها بالمبيت خارج المنزل، ولا السهر في الليل، ولا أحب أن ترتبط بعلاقة جنسية مع أي صديق Boy Friend، كما هو شائع مع البنات في بلادنا فنحن أسرة محافظة لها عاداتها وتقاليدها.

يبدو أن الأم بهذا التقديم لإبنتها لشخص من الشرق الأوسط محافظ مثلي، بالنسبة للانجليز، اعتقدت أنني غير متزوج، علماً بأن الأسرة لم تسألني عن أوضاعي، ولم تترك لي الفرصة للتحدث عن نفسي وأحوالي. ولو سألوني لكنت قلت لهم بأني متزوج، ولأريتهم صورة أسرتي التي كنت أحملها في جيبي باستمرار لأراها كلما شعرت بالحنين لها.

بعد تناول الشاي وبعض الحلوى، قال رب الأسرة أنه سيأخذنا إلى الكاتدرائية التاريخية في مدينة «موربث» Morpeth، ثم نعود بعدها لتناول الغداء في المنزل. ولما وصلنا الكاتدرائية شعرت الأم برهبة المكان وقدسيته، وقالت بأنها تتمنى بأن يكون إكليل ابنتها «كرستين» في هذه الكاتدرائية، ثم التفتت إليّ قائلة : ما هو دينك يا محمد؟.

فاستهجنت من سؤالها، لأن اسمي يدل على ديانتي، وأن كثيراً من الأوروبيين يطلقون على المسلمين «محمديين» نسبة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، على نحو ما يقولون عن أنفسهم «مسيحيين»، نسبة إلى المسيح «عيسى» عليه السلام. فقلت ساخراً منها : أنا أرثوذكسي، فسكتت. وعدنا إلى المنزل وتناولنا الغداء، وحينما قررت الإنصراف شكرت الأسرة على الضيافة والكرم، وأوصلني رب الأسرة إلى سكني.

حينما زرت الأسرة بعد أسبوع استقبلتني الأم بوجه عابس، وقالت موبخة : أنت كذاب، كيف تزعم أنك مسيحي، بينما أنت مسلم!؟. ولم أتحمل هذه الإهانة، لأن الإتهام بالكذب في بريطانيا يعد إهانة كبيرة، ولكنني تحاملت على نفسي وتماسكت وكظمت غيظي، وقلت لها بهدوء، أنا لم أقل بأني مسيحي، ولكني قلت بأني أرثوذكسي، ويبدو أنك لا تعرفين معنى هذه الكلمة، وهي يونانية الأصل مكونة من مقطعين هما : Ortho وتعني الصحيح أو الصواب وdox منdoxa ، وتعني العقيدة أو الرأي. فيصير معنى الكلمة المركبة «العقيدة الصحيحة»، وأنا كنت صادقاً فقد قلت لك بما معناه، أنني على العقيدة الصحيحة. ثم أنت تعلمين أن اسمي «محمد» وهو إسم نبي المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم، وبعضكم يسموننا محمديين. ثم إنك كنت بفلسطين وتعرفين الكثير عن الإسلام والمسلمين، وأنتم لم تسألونني عما إذا كنت عازباً أو متزوجاً، ولم تتركوا لي حتى فرصة التحدث عن نفسي، فأنا رجل متزوج ولي ثلاث بنات، وهذه صورة أسرتي.

ما أن انتهيت من كلامي حتى شعرت بالخجل من نفسها، والخزي من جهلها، والتسرع في إتهامها لي بغير حق، وأبدت لي بالغ اعتذارها، راجية مني أن أسامحها، وأغفر لها خطأها نحوي وتطاولها علي، فقبلت عذرها وسامحتها، وتوطدت الصداقة بعدها بيني وبين هذه الأسرة.

كان من عادة المجلس البريطاني تنظيم رحلات للتعرف على أبرز معالم المنطقة أو زيارة المدن القريبة. وبموجب هذا البرنامج ، فقد نظمت رحلة لزيارة مدينة «أدنبرة» عاصمة «اسكتلندة»، والقريبة من نيوكاسل، بدعوة من المجلس البريطاني هناك. . وقد أشرفت على الرحلة الآنسة «والاس» Wallace، وكانت فتاة بدينة، وفي الثلاثينات من العمر، وكانت خفيفة الظل، وعلى وجهها مسحة من جمال هادىء، وحديثها لا يخلو من دعابة.

ركبت الحافلة (الباص)، وكان جميع الذين معي من الإنجليز. وبعد ساعتين وصلنا مدينة «أدنبرة» حيث استقبلنا الاسكتلنديين بالترحاب، وقدموا لنا الطعام، واحتفوا

بنا، فطلبت مني الآنسة «والاس» أن أرد عليهم نيابة عن الجميع. وكان مما قلته أننا قبل وصولنا إليكم مررنا بتلال «تشيفيوت» Cheviot Hills التي تشكل الحدود بين انجلترا واسكتلندة، وهي التي أقام عليها الرومان إبان احتلالهم لإنجلترا، السور ليحميهم من هجمات أجدادكم (الاسكتلنديين) والذين كانوا يعدونهم برابرة، وهذا في نظري شرف عظيم لهم، وفخر لكم فقد استطاع هؤلاء الأجداد صد غزو الرومان لبلادهم (اسكتلندة)، فحموا وطنهم وصانوا حريته واستقلاله. فإذا كان الذين يدافعون عن أوطانهم، ويقاومون الاحتلال لبلادهم برابرة، فنحن مثلكم برابرة، لأننا نناضل من أجل الحرية والاستقلال. فنحن وإياكم «محاربون لأجل الحرية» Free Fightersولا يسعني إلا أن أنوه وأشيد بكرمكم هذا، الذي أبديتموه لنا في هذه الزيارة، ما بدّد اتهام الإنجليز لكم بأنكم بخلاء. وقد قوطعت كلمتي هذه، بالتصفيق الحاد من الاسكتلنديين عدة مرات. ولكن الآنسة «والاس» وقفت وقالت بحدة : توقف من فضلك.. إنك تصطاد في ماء عكر.

كنت أحب مدينة أدنبرة لجمالها وأناقتها وهندستها، ولذلك أكثرت من زيارتها والمسافة بينها وبين نيوكاسل قريبة، وتستغرق الرحلة بالقطار ساعة فقط. لذلك كنت استغل التذكرة المخفضة التي تشترط السفر والعودة في اليوم نفسه. وقد زرتها ذات يوم مع زملاء إنجليز. وتم الاتفاق على الالتقاء في المساء، وقبل مغيب الشمس، على ربوة تطل على القصر الملكي حيث تنتظرنا الحافلة لتعود بنا إلى نيوكاسل. وقد حضرت قبل زملائي، وجلست على أحد المقاعد في الحافلة، وهالني منظر الشمس في الأصيل واقترابها من الغروب، وسحرني جمال المدينة، وأنا أنظر إليها من الربوة، فتفجرت مشاعري، وجاشت عواطفي، وصرت أترنم بكلمات، هي بين النثر والشعر، وألقيتها بأسلوب أستاذي «طه حسين» الذي كنت معجباً به، وهو يتكلم العربية، فلا يمل المرء سماعه، وأذكر مما قلته : «إيه يا أدنبرة يا عروس الشمال، ويا ربة الحسن والجمال، تيهي بجمالك، وفاخري بنقاء هوائك، لقد طاولت بقامتك الجبال، وفيك الكثير من المزايا والخصال.. الخ. لم أكن أعلم أن بعض الزملاء قد دخلوا الحافلة، دون أن أشعر بدخولهم، فقد غلبني حب ا لمدينة حتى أفقدني الإحساس بمن حولي. ولكن ما أن توقفت عن الكلام حتى صاح من بالحافلة : استمر من فضلك، نحن نسمعك رغم أننا لا نفهمك.. ما هذه اللغة الجميلة؟ هل هي لاتينية، فقلت : إنها العربية، فقالوا : ما أجملها وما أعذبها، إن لها جرساً ونغماً، ولها حلاوة وطلاوة تجذب السامعين إليها..

إننا نود أن نتعلمها. فشكرتهم على هذا الشعور، وكان من تبقى من الزملاء قد حضر، وتحركت الحافلة وعدنا إلى نيوكاسل.

يطلق على عمدة أو رئيس كل مدينة من المدن الست الكبرى في بريطانيا، ومنها مدينة «نيوكاسل» لقب Lord Mayor. أما باقي المدن فيطلق على عمدتها لقب Mayor فقط. وكان من عادة عمدة مدينة «نيوكاسل» إقامة حفل سنوي كبير يدعو إليه جميع الطلبة والقادمين إلى المدينة من الأجانب في مهمات علمية أو خاصة. ويحضر الاحتفال مندوب الملكة، ورئيس الجامعة، وأسقف المدينة، وكبار الموظفين، والشخصيات الهامة في المدينة ومنطقتها، ويختار من بين الأجانب شخص ليكون ضيف الشرف، ويلقي في الحفل كلمة نيابة عنهم. وفي الغالب كان يختار ضيف الشرف من دول الكومونولث[٢]، ولم تكن الدول العربية داخلة فيها. وكانت نظرة البريطانيين للعرب غير ودية، إذ كان الرئيس «جمال عبد الناصر» يرفع لواء العروبة. ولم ينس العرب اشتراك بريطانيا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، علاوة على إنشائها إسرائيل في فلسطين، قلب الوطن العربي.

ربما لهذه الأسباب وغيرها لم يحدث - على حد علمي - أن أختير عربي ليكون ضيف شرف في الاحتفالات السابقة، وإنما كانوا يختارون أشخاصاً من آسيا، وبخاصة من الهند أو إفريقية. ولكن لا أدري لماذا تم تجاوز هذا التقليد أو العرف، واختاروني لأكون أول عربي «ضيف شرف» لاحتفال عام ١٩٦٦. قد يكون السبب لعلاقتي الحميمة بقسيس الجامعة «الأب بنيت» Father Bennett الذي حضر اجتماعاً هاماً للجمعية الإسلامية التي كنت رئيسها، وقد أبدى إعجابه بحسن إدارتي للجلسة، وبقدرتي على حسم الأمور. وقد استحسن الكلمة التي ألقيتها في تلك الجلسة، وذكرت فيها تسامح الإسلام مع غير المسلمين، واعترافه بكل الأديان السماوية، وانفتاحه على معتنقيها. ومن بعدها ظلت العلاقة بيني وبينه قوية. ولكن قد تكون الجامعة هي التي رشحتني، إذ كانت تحيل إليّ بعض الطلبة المسلمين الذين لا يستجيبون لمرشديهم ولا يطلعونهم على مشاكلهم، فاعتقدوا أني، بصفتي الدينية، سيعترفون لي بما في نفوسهم، كما يعترف المذنبون للكاهن المسيحي عن أخطائهم. وقد يكون الترشيح جاء من المجلس البريطاني، الذي لديه سجلات كاملة ودقيقة عن الطلبة المبعوثين، ويتابع أنشطتهم. وكنت من الناشطين في المجتمع البريطاني، فأشارك في الندوات والحوارات، وكثيراً ما تلقيت دعوات من مدارس ومعاهد وكليات ونوادي وجمعيات لإلقاء محاضرات عن مواضيع خاصة بالمنطقة العربية. وكان اهتمامهم آنذاك يركز علي فهم حقيقة الإسلام ونظرته إلى المسيحية، وسأعود إلى هذا الموضوع لأهميته فيما بعد.

على أية حال، فقد تم اختياري ضيف الشرف في ذلك الاحتفال، ولكن قبل أن أتحدث عن الاحتفال. لا بد من إلقاء الضوء على الأجواء العامة في بريطانيا آنذاك، لأني تأثرت بها في إلقاء كلمتي في الاحتفال. لقد كانت النظرة للأجانب غير ودية، وكانت الأجواء مسممة بعدم تقبل المهاجرين الذين جاءوا من المستعمرات البريطانية السابقة، في آسيا وأفريقية، وبخاصة بعد أن كثرت أعدادهم، مستغلين التسهيلات التي كانت ممنوحة لمواطني دول الكومونولث، وخشي كثير من البريطانيين على فقدان نقاوتهم الإثنية والعرقية، واختفاء سمات المجتمع البريطاني وخصائصه، وبخاصة أن كثيراً من المهاجرين يرفضون الاندماج في المجتمع البريطاني ويفضلون المحافظة على تراث أقطارهم الأصلية. وبدأت الصحف البريطانية تشكو من كثرة الأجانب وتبحث عن الحلول، كتشديد الإجراءات، وسن قوانين هجرة جديدة تحد من تدفق الأجانب. ومنهم من طالب بتسفير الأجانب وإرجاعهم إلى بلادهم. وكان يقود هذه الحملة نائب في البرلمان البريطاني اسمه «أونك باول» Onec Powel.

لاحظت بأن لدى البريطانيين عنصرية ولكنهم يخفونها بدبلوماسيتهم ولباقتهم في الكلام، فهم يطلقون على جميع الآسيويين والإفريقيين، بمن فيهم العرب، مصطلح «الملونين» Coloured، علماً بأن هذا المصطلح يطلقه الأميركان على ذوي البشرة السمراء الداكنة. وكثيراً ما يبدي البريطانيون عدم ارتياحهم للملونين ويعدونهم أقل منهم مرتبة وثقافة وحضارة، ومنهم من يرفض تأجيرهم المساكن. وعلى أية حال فإن من يحتك بالبريطانيين ويوثق علاقاته معهم يدرك بأنهم متعالون حتى على الأوروبيين، ويعتبرون بلدهم خارج أوروبا لوقوعها في البحر. وكثيراً ما كنت أنتقدهم حينما يقولون بريطانيا وأوروبا، فأقول لهم لماذا تفصلون بلدكم عن أوروبا؟ أليست بريطانيا بلداً أوروبياً؟. على أية حال فإن هذا يظهر موقف بريطانيا من الاتحاد الأوروبي الذي انضموا إليه بعد جدال عنيف، ولكنهم لا زالوا محتفظين بعملتهم الخاصة وهو الجنيه الاسترليني، ولولا المنافع الاقتصادية لما انضموا إلى هذا الاتحاد.

آسف لهذه الإطالة، وأعود إلى موضوع الاحتفال فأقول: حضرت مبكراً قبل بدء الاحتفال ووجدت من يستقبلني ويأخذني إلى جناح في مبنى المدينة الضخم المسمى Civic Centre وهناك وجدت عمدة المدينة ونائب الملكة ورئيس الجامعة وقسيس الجامعة، فرحبوا بي وأجلسوني معهم وقدموا لي شراباً غير كحولي.

بعد برهة من الوقت دخل موظف بزيه الرسمي معلناً بأن التجهيزات مكتملة، فقام الجميع، وأنا معهم، وركبنا سيارة كبيرة فخمة ماركة «رولز رويس» Rolls Royce، وهي

ملكة السيارات البريطانية. وتوقفت عند مدخل صالة الإحتفالات الكبرى، ونزلنا، ووقفنا صفاً عند هذا المدخل لنستقبل الضيوف القادمين، ونرحب بهم على نحو ما يقوم به السفراء في حفلات المناسبات. وبعد أن توقف الحضور عن المجيء سرنا إلى الداخل، وجلسنا في مكان بارز من الصالة، حيث أعدت لنا طاولة خاصة، عليها أسماؤنا ومناصبنا.

كان ممثل الملكة أول المتكلمين، تلاه عمدة المدينة، ثم رئيس الجامعة، وبعدها نودي عليّ لألقي كلمتي التي ارتجلتها. وكان مما قلته فيها آنذاك، بعد توجيه الشكر والتحية لممثل المملكة وعمدة المدينة ورئيس الجامعة وقسيس الجامعة، بأنكم ستسمعون أيها السادة كلاماً لم تتعودوا سماعه من قبل، فقد كان ضيوف الشرف قبلي في السنوات الماضية، يجاملونكم كثيراً. ويخفون عنكم الحقائق التي كان من المفروض أن تدركوها إذا كنتم حريصون على معرفة أنفسكم في أعين الغير، وما هي نظرة الغير إليكم. ربما لا تعجبكم الصراحة التي سأصارحكم بها الليلة. فالحقيقة قد تكون جارحة لمن لا يحب المصارحة، ولكن مما شجعني على أن أكون صادقاً وأميناً وصريحاً، معرفتي عن الشعب البريطاني وخصاله التي فيها تقبل النقد واحترام الرأي الآخر. وبناء عليه أقول لكم بأني كنت من المعجبين بالبريطانيين قبل مجيئي إلى بريطانيا – وأعني هنا الشعب، وليست الحكومة التي هي سبب نكبتنا – فالبريطانيون ينادون بالحرية والديمقراطية والعدل والمساواة، ولكن صدمت حينما تبين لي بعد قدومي إلى بلادكم، بأنكم تؤمنون بتطبيق هذه القيم والمبادىء عندكم، وعلى شعبكم، وتنكرونها خارج بلادكم، واستثنيتم منها الشعوب الأخرى. لقد استعمرتم بلاداً كثيرة في جميع قارات العالم، واستثمرتم خيرات المستعمرات، واعتمدت رفاهية شعبكم، وازدهار وطنكم على موارد تلك المستعمرات، ولكنكم اليوم تضيقون ذرعاً بالذين جاءوا إليكم من هذه المستعمرات لأنهم رغبوا في العيش معكم، وفضلوا الاستقرار في بلدكم، ومشاركتكم في الأعمال والفعاليات المختلفة، ولكنكم ترفضون ذلك، وتريدون التخلص منهم وإعادتهم إلى بلادهم، ونسيتم أنكم استعمرتم أوطانهم وأقمتم فيها سنين طويلة، وجعلتم من أنفسكم أسياداً وحكاماً عليها.

إنكم تشجبون التمييز العنصري، وتدعون أنكم تحاربونه، ولكنكم في الواقع تمارسونه، وتطلقون على كل من ليس من ذوي البشرة البيضاء والعيون الزرق والشعر الأشقر « ملونين » Coloured وتنظرون إليهم نظرة دونية.

دوت القاعة بالتصفيق، وبخاصة من الآسيويين والأفارقة، عدة مرات. ولما جلست

قالت لي ممثلة الملكة بصوت خافت: «لقد أخرجت في هذه الليلة، كل ما كان مخفياً تحت البساط. وعلى كل أشكرك على صراحتك وشجاعتك، ولم أكن أتصور أننا نحن هكذا». أما زملائي العرب وأصدقائي، وأكثرهم من مصر، فقد خافوا عليّ، وقالوا بأن السلطات قد تلجأ إلى ترحيلي من البلاد.

لاحظ من احتك بي من الناس وبخاصة الباكستانيين - سواء كانوا طلبة أو موظفين ورجال أعمال - مواظبتي على الصلاة في المسجد، والالتزام بسلوكية الإسلام، والابتعاد عن ارتياد الملاهي والبارات، أو اتخاذ صديقات، كما يفعل كثير من الطلبة وغير الطلبة من العرب وغير العرب، فطلبوا مني أن اقبل رئاسة الجمعية الإسلامية في الجامعة، فقبلت، وتحملت مسؤولياتها، وتوليت إمامة المصلين والخطبة يوم الجمعة وفي الاعياد. وذات يوم أخبرني أحد أعضاء الجمعية بأن وفداً بريطانياً مؤلفاً من محامين وبرلمانيين ورجال أعمال، يطوف بأماكن العبادة في المنطقة للتعرف على مختلف الديانات والعقائد، وأنهم حددوا موعداً لحضورهم إلى المنزل الذي اتخذنا من طابقه الثاني مسجداً.

كان من الأسئلة التي أثارت اهتمام الكثيرين، سؤال من شابة كانت من ضمن الوفد، اتهمت الإسلام بأنه لا يحترم المرأة، وتعتقد أنه يعتبرها دون مستوى الرجل في المنزلة والمكانة. فالتفت زملائي نحوي وطلبوا مني الرد عليها.

فكرت سريعاً، وقلت لنفسي، لو أنني اعتمدت على الكتب والأدبيات الإسلامية التي تثبت بأن الإسلام سبق الغرب في إعطاء المرأة حقوقها، وأن القرآن يخاطب الرجال والنساء معاً كقوله تعالى: «المؤمنون والمؤمنات والقانتين والقانتات.. إلخ» لطال النقاش والحوار بيننا، وربما لا تقتنع، وأنه لا بد من إجابة عملية، ومن الواقع تكون مقنعة.

سألت هذه الشابة: ما الذي أوحى لك بأن الإسلام لا يعطي للمرأة حقوقها؟ قالت: المثل واضح ولا يحتاج إلى برهان. قلت: كيف؟ قالت: زرنا جميع أماكن العبادة ووجدنا الرجال والنساء معاً في معابدهم، ولكننا لم نجد في مسجدكم هذا إلا الرجال فقط، فما معنى ذلك؟ وما تفسيرك له؟. قلت لها: دخول النساء للمساجد والصلاة فيها مباح، والنساء شقائق الرجال، ولكن بشرط أن يصلين خلف الرجال، فالصلاة المختلطة غير مسموح بها في الإسلام. قالت: هذا هو التمييز بعينه. لماذا لا تصلي إلى جانب الرجل أو أمامه إن أرادت؟ فقلت لها: أنت تعلمين بأن الصلاة تعني الصلة الروحية بين الإنسان وخالقه، وأنه يحرّم على الغير التخاطب مع المصلي أو مقاطعته والتسبب في إلهائه عن صلاته. قالت نعم. قلت هل رأيت كيف يؤدي المسلم صلاته؟ قالت: لا.

طلبت من أحد المسلمين أن يصلي أمام الوفد. فلما ركع وسجد، قلت لها: ماذا لو

كنت تصلين في مقدمة المصلين، وأنت في زيك هذا، التنورة فوق الركبة بكثير (الميني جيب) مما يزيد في إظهار مفاتنك، وأنت فتاة جميلة، وجذابة ألا تعتقدين أن هذا يثير عاطفة من يصلي خلفك؟.. ألا تظنين أن ذلك سيصرف هذا المصلي عن الاتصال بالله. قالت هذا جائز. ولكن ماذا لو لبست لباساً يستر الجسم كله؟ قلت :إن صلاتنا تختلف عن صلاتكم، فأنتم تجلسون على المقاعد وترتلون، أما نحن فصلاتنا فيها ركوع وسجود، يكشف عن الجسم، مهما غطته الثياب حتى ولو كانت محتشمة. ونحن في الندوات والاجتماعات لا نفصل الرجال عن النساء، وأن كثيراً من النساء في صدر الإسلام كن يلقين الدروس التي يحضرها الرجال من النساء. وفي الحج تطوف المرأة حول الكعبة مع الرجل وتصلي معه في المسجد الحرام بمكة المكرمة وفي المسجد النبوي بالمدينة المنورة. كما أن النساء يشاركن الرجال في كثير من الأعمال بما فيها الجهاد.

ما أنهيت كلامي حتى قالت الشابة لي : لقد أقنعتني حقاً، وضجت القاعة بالتصفيق.

ثم سألت : لماذا تقولون عند بدء الصلاة «الله أكبر»، وتضعون أكفكم قرب آذانكم؟.

قلت لها بأنه عندما نتصل بالله في الصلاة، لا نقول له «ألو»، كما نخاطب من نحادثهم بالتلفون، وإنما نناديه بما يستحق من تقدير، وذلك بمثابة «الشفرة» اي Code التي نتصل بها بالله. ورفع اليدين والأكف نحو الأذنين دلالة على أنه في اتصالنا بالله نترك العالم وراءنا، لنولي اهتمامنا بالله، ونندمج في الذات الإلهية. وحينما ننتهي من الصلاة، نحرك رؤوسنا يمنة ويسرة قائلين : السلام عليكم ورحمة الله، دلالة على عودتنا إلى عالمنا من جديد.

وذات مرة بعد أن انتهيت من محاضرة لي عن الإسلام، تقدم مني رجل بريطاني كهل وقال : لم أكن أعلم بأن الإسلام دين عظيم، كما علمت الليلة من محاضرتك، وأنه يدعو إلى كثير من الفضائل والقيم السامية، والتعاليم النبيلة. لقد كنت أظن أنكم صلبتم المسيح، وأنكم تضطهدون أتباع الديانات الأخرى وتريدون إجبارهم على اعتناق الإسلام. فقلت له : أما عن صلب المسيح، فنحن لا نؤمن بصلبه من الأساس، ونؤمن بأن الله رفع المسيح إلى السماء، وأن الذي صلب هو شبيهه، ولكن المسيحيين يقولون بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح، كما أن الإسلام دين جاء بعد المسيحية، فمن أين جاء هذا الاتهام للمسلمين؟

أما قولك بأننا نتعصب لديننا، ونضطهد الذين لا يؤمنون بالإسلام فهذا غير صحيح، واتهام لديننا بغير حق، فقد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى : «لكم دينكم ولي دين» كما أن الإسلام يطالبنا بمخاطبة أهل الكتاب ومجادلتهم بالحسنى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن». والإسلام ينهى عن إجبار الناس على الدخول

في الإسلام، فقد جاء في القرآن الكريم : «لا إكراه في الدين». وقد نزلت هذه الآية حينما حاول نفر من الأنصار إجبار أبنائهم الذين كانوا قد تهودوا في المدينة قبل الإسلام على ترك اليهودية ودخول الإسلام، فنهاهم النبي عن ذلك. وإذا كان الإسلام لا يبيح للآباء ذلك، فمن باب أولى أن لا يبيح للمسلمين إجبار غيرهم على اعتناق الإسلام. وللأسف فإن الأوربيين اتهموا الإسلام بأنه انتشر بالسيف، وهو اتهام باطل، وهذا يحتاج إلى محاضرة أخرى.

كان ما ذكرت من ضمن اشتراكي في أنشطة وندوات وحلقات ناقشت قضايا متعددة خاصة بالعرب والمسلمين. وكثيراً ما كنت أتلقى دعوات من مدارس ومعاهد وكليات – كما ذكرت سابقاً – لإلقاء محاضرات أبيّن فيها ماهية الإسلام، وبساطة تعاليمه، وسهولة اداء عباداته، وسمو قيمه وسلوكياته، وتسامحه مع الغير، وتعامله مع غير المسلمين، ودحض التهم التي اتهم بها كثير من الغربيين الإسلام، كانتشار الإسلام بالسيف، والنظرة الدونية للمرأة، وعدم مساواتها بالرجل، ومحاربة الديمقراطية، وعدم الاعتراف بحقوق الإنسان، وغير ذلك من أمور وقضايا يثيرها الغرب ويتهم بها الإسلام.

كنت في الوقت نفسه أقوم بزيارات المساجد في المنطقة، وألقي خطباً، أطلب فيها من إخواني المسلمين أن يلتزموا بقيم الإسلام وتعاليمه، وأن يجسدوها في أعمالهم وسلوكهم وأخلاقهم، فغير المسلمين لا يعرفون الإسلام إلا من تصرفات المسلمين وسلوكهم. وللأسف فإن كثيراً من المسلمين قد أساءوا للإسلام بتصرفات سيئة، وسلوكيات مكروهة. وبعضهم من غالى في الدين وفسر النصوص تفسيراً ضيقاً نتج عنه سلوك متزمت، لا ينسجم مع سماحة الإسلام وسعة صدره، وتقبله للغير والانفتاح عليه.

سبق أن قلت أن برنامج الماجستير في الجغرافية التطبيقية اهتم بالدراسات ا لميدانية، وركز على الجوانب العملية، والاطلاع على مشاكل التخطيط الإقليمي والحضري على الطبيعة، ورؤية الظواهر الطبيعية والبشرية، وما بينها من تفاعل وتأثير متبادل. وقد أتاحت لي هذه الدراسة، زيارة الكثير من المدن والقرى والمناطق في بريطانيا، والتعرف على أنماط الحياة فيها، والقضايا التي تهم البريطانيين، والمشاكل التي واجهت بريطانيا إجتماعياً وإقتصادياً وسياسياً. وقد لمست هذا حينما قمت بعمل بحث قدمته كمتطلب رئيسي من متطلبات درجة الماجستير، وعنوانه «الحدود الإدارية في شمال شرق إنجلترا»، وهي حدود قديمة كان آخر تعديل لها في نهاية القرن التاسع عشر، ولذلك كان لا بد من إعادة النظر فيها وتعديلها، لتتمشى مع المستجدات والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية والمرورية التي طرأت آنذاك. وكان هذا يتطلب مني عمل مسوحات ميدانية، وصياغة استبانات، وزيارة دوائر ومكاتب التخطيط، ومقابلة المسؤولين، والإطلاع على تقارير اللجان المختصة، وغير ذلك من أمور لا أريد الخوض فيها، حتى لا يشعر القارىء بالملل والسأم.

كانت الدراسة الميدانية التي اشتركت فيها مع زملائي من الإنجليز، في التاسع من شهر نيسان/ إبريل ١٩٦٧، أهم الدراسات على الإطلاق، وقد استغرقت الدراسة أسبوعين، حيث ركبنا حافلة صغيرة Mini Bus أو Van، يقودها البرفيسور «هاوس» رئيس القسم، وزوجته، والدكتور «وارن» والمستر «هيل». وبدأنا بزيارة مدن وقرى مقاطعة «درم» الواقعة على الطريق أو قريبة منه، ثم ذهبنا إلى مدينة «ليدز» الشهيرة بصناعة غزل الصوف ونسجه، ومدينة «برادفورد» المتصلة بها. وتقع هاتان المدينتان في مقاطعة «يوركشير»، ثم سرنا غرباً نحو مدينة «شيفيلد» المشهورة بصناعة الحديد والفولاذ. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى مدينة «برمنجهام» المشهورة بصناعاتها الثقيلة. ولكثرة مصانعها وأدخنتها التي تتصاعد إلى السماء مكونة سحباً سوداء، سميت منطقة المدينة، بالبلاد السوداءBlack Country . وقمنا بعمل مسوحات ميدانية لظواهر طبيعية وبشرية في المنطقة، وزرنا بعض مصانعها، وشاهدنا القنوات التي حفرت إبان الإنقلاب الصناعي لنقل الفحم، وبعض الخامات الصناعية بواسطتها.

ربما كان وسط البلاد في إنجلترا ويطلق عليه Midland، والذي كان هدف دراستنا الميدانية، من أجمل المناطق الطبيعية في بريطانيا وأشدها ازدحاماً بالسكان، وأغناها في الموارد الطبيعية، وأكثرها نشاطاً اقتصادياً. ولذلك تعرضت كثير من مدنها للقصف الجوي الألماني، في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، وبخاصة مدينة «كوفنتري» المشهورة بصناعة السيارات، وبالقرب منها تقع بلدة «ستراتفورد»، الواقعة على نهر «إيفون» Avon، وهي مسقط رأس الشاعر الإنجليزي الأشهر «وليم شكسبير». وقد زرنا مسكنه الذي تحول إلى متحف يحوي مخلفاته وآثاره.

كانت محافظة «ستافورد شير» من المحافظات التي أعجبتني، ربما لشهرتها بصناعة الأواني الصينية والفخار، الذي ذكرني بمدينة غزة، الشهيرة بصناعة الفخار منذ القدم. وتنتشر «الفواخير»Kilns في عدد من قرى وبلدات المحافظة، وبخاصة قرية «بارلستن» Barlaston، وبالقرب منها مصنع «ويجوود Wedgewood»، وهو من أشهر واقدم مصانع الصيني والبورسلان في العالم. وكنا ونحن صغار في فلسطين، نقرأ اسم هذا المصنع مكتوباً خلف فناجين القهوة، وأطقم الشاي والأطباق والمزهريات. ويستورد هذا المصنع

الطين المسمى « الطين الصيني » من منطقة « كورنول Cornwall » في غرب إنجلترا بواسطة قناة مائية خاصة تصل نهري « ترنت » Trent و« مرزي » Mersey ببعضها البعض.

لقد تعرفت في هذه الدراسة الميدانية على كثير من مظاهر النهضة الصناعية البريطانية إبان الإنقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر، والذي تركز في « المدلاند »، وشاهدت العديد من المعالم التاريخية المرتبطة بهذه النهضة. وأعتقد أن ذكرها ووصفها قد يكون مملاً للقارىء، وبخاصة أنها غريبة عليه، ولا تثير اهتمامه، إلا أن من أهم تلك المعالم، الجسر الحديدي الذي بني في القرن الثامن عشر، ويعد أقدم جسر حديدي في العالم. وهو مقام علي نهر « سفرن » severn. وبالقرب منه نشأت بلدة استمدت اسمها من هذا الجسر فسميت Iron Bridge، وهي تقع في محافظة « شربشير » Shropshire في غرب « الميدلاند » وتشتهر المحافظة بالصناعات الحديدية والفولاذية.

من الأخطاء الشائعة في بلادنا عدم التمييز – عند الكثيرين منا – بين الإنجليز والبريطانيين، أو بين إنجلترا وبريطانيا، والخلط بينهما معتقدين أنهما تسميات متعددة لشيء واحد، وهذا خطأ شائع، يقع فيه بعض الإنجليز أنفسهم.

ففي محاضرة القاها طالب طب إنجليزي، في المنزل الذي كنت أقيم فيه Fernwood Inter-chuch House، عن بريطانيا ذكر مسميات ومصطلحات لم يحاول تحديد مفاهيمها، وهي، على ما أذكر : بريطانيا، إنجلترا، الجزر البريطانية، المملكة المتحدة. وحينما انتهى من المحاضرة قال طالب إفريقي أنه يحتار حينما يسمع هذه التسميات، ولا يستطيع معرفة معانيها الحقيقية، ويظن أنها مسميات لشيء واحد. فرد عليه المحاضر قائلاً : بأنني مثلك أشعر بالحيرة. فرفعت إصبعي أطلب الكلام مبدياً استعدادي لشرح هذه المسميات ودلالاتها، فرحبوا بي.

قلت بأن بريطانيا هي أكبر الجزر البريطانية، وسميت بهذا الاسم، نسبة إلى البريطانيين Britons الذين كانوا من أقدم الشعوب الذين سكنوها، وبسطوا سيطرتهم عليها. وتقسم بريطانيا إلى ثلاثة أقسام : اسكتلندة في الشمال، وكانت في الماضي مملكة مستقلة، وإنجلترا ووليز. أما إنجلترا فتمتد من جنوب اسكتلندة شمالاً حتى القنال الإنجليزي جنوباً، ويحدها من الشرق بحر الشمال، وهو جزء من المحيط الأطلسي. وتقع ويلز إلى الغرب من انجلترا. وتعني كلمة « إنجلترا » بلاد الانجليز. وأصل الكلمة لاتينية مكونة من مقطعين هما : englo أو Angles أي « الانجلو » أو « الإنجليز ». وTerra وتعني أرض أو بلاد. ومن المعلوم أن الإنجليز جاءوا بعد البريطانيين من منطقة في شمال إيطاليا. أما الجزر البريطانية، فمصطلح جغرافي يشمل عدة جزر هي : بريطانيا،

وإيرلنده، ومجموعة جزر شتلند، ومجموعة جزر أوركني، وجزيرة مان. في حين أن المملكة المتحدة مصطلح سياسي، يشمل هذه الجزر، فيما عد جمهورية إيرلندة، والتي عاصمتها دبلن، ولكن جزءاً من شمال إيرلندة والذي يسمى «إيرلندة الشمالية» أو «ألستر» وعاصمتها بلفاست تدخل ضمن المملكة المتحدة.

طيلة فترة دراستي كنت على اتصال بالإنجليز لرغبتي في التعرف على طباعهم وسلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظام حياتهم، وطبيعة مجتمعهم، وقد تبين لي أن لندن لا تعكس حقيقة الحياة في إنجلترا تماماً، ولا يمكن للمرء أن يعرف الإنجليز على حقيقتهم لو عاش في لندن فقط، ذلك أن لندن لم تعد مدينة إنجليزية بقدر ما هي عالمية، تحمل سمات العالم أكثر من سمات إنجلترا أوبريطانيا، ففيها تجد أشكالاً وألواناً من البشر ينتمون إلى شعوب وأمم شتى. ولكنك لو ابتعدت عن لندن وزرت المدن والقرى والبلدات البعيدة عنها، وبخاصة في الريف أو القريبة منه، لأمكنك التعرف على الإنجليز وعلى خصائصهم وسماتهم العامة، ولا أستطيع في عجالة كهذه التحدث عن هذه الخصائص والسمات، ولكن يمكن القول بان من سمات الإنجليز بصفة خاصة، والبريطانيين بعامة، المكر والدهاء، وهدوء الأعصاب، وعدم الانفعال بسرعة. وهم يجيدون الإصغاء والاستماع لمن يحدثهم، ولا يكثرون من الكلام، وكأنهم يطبقون حكمة عندنا تقول : إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب.

ربما كان الاستعلاء من سمات الإنجليز، فلقد لاحظت بعد احتكاكي بهم، بأن كثيراً منهم يَعْتدّون بأنفسهم كثيراً لدرجة الاستعلاء حتى على الأوروبيين. أما استعلاؤهم على شعوب الأقطار النامية، وبخاصة الملونين منهم، فواضح وظاهر يدركه المرء بسهولة.

فعلى سبيل المثال، أبدى بعض الانجليز الاستغراب حينما رأوا زوجتي وبناتي يرتدين الملابس الأوروبية مثلهن، ويتحدثن بحرية، ويناقشن عن علم ومعرفة وثقافة واسعة، ويسلكن سلوكاً حضارياً وعصرياً. ولما سألتهم عن سبب هذا الاستغراب، أجابوا بأنهم كانوا يعتقدون أن العرب متخلفون، وغير متحضرين، وأنهم لا يزالون يعيشون في الخيام أو بيوت الشعر، ويركبون الدواب، وبخاصة الجمال والحمير. فقلت لهم : هذا ما يحاول اليهود الصهاينة نشره على العالم عن العرب، وللأسف فأنتم تصدقونهم، وهم يستغلون جهلكم بتاريخ العرب وحضارتهم.

قد لا أكون مخطئاً إذا قلت بأن الإنجليز بعيدون عن الصراحة والشفافية حينما تتحدث معهم، وبخاصة مع الذين لا يعرفونك، وغالباً ما يظهرون ابتسامة باهتة، إن لم يعجبهم كلامك. سألني أحد أصدقائي من الإنجليزي عن انطباعاتي عنهم، فقلت له : أنتم كبلادكم، فقبل أن تهبط بي الطائرة، لم أستطع رؤية معالم أرضكم، لأن

السحب الكثيفة والداكنة كانت تحجب الرؤية. ولكن ما إن هبطت الطائرة دون مستوى السحب، حتى اتضحت المعالم، وهذا ينطبق عليكم، إذ لا يستطيع المرء التعرف على ما بداخل نفوسكم، إلا بعد التعامل معكم، والاحتكاك بكم، والاقتراب منكم - أما نحن العرب، فقلوبنا صافية كسمائنا التي تخلو - معظم الفصول - من السحب الداكنة، فتبدو معالم الأرض واضحة من علو شاهق، تستطيع معرفة مشاعرنا وعواطفنا وما في نفوسنا وقلوبنا، ومن وجوهنا التي هي أشبه بالشاشة التي يرتسم عليها ما في قلوبنا ونفوسنا.

من المزايا التي أعجبتني في الإنجليزي - كشعب وأفراد - الالتزام بالنظام، ودقة المواعيد، وهم، عكس ما يقال عنهم بأنهم بخلاء، فقد لمست فيهم الكرم وحسن الضيافة، والترحيب بالضيف، وبخاصة إذا كان غريباً، إذ يحرصون على أن يكون معجباً بهم وبوطنهم. ولا يتوانون عن تقديم النصح والمعونة للغريب إذا طلبها، أو شعروا بأنه في حاجة لها. ولا أنسى دعواتهم لي إلى منازلهم، وكان أساتذتي يكرمونني، فقد دعاني كل من البروفيسور «هاوس» والدكتور «وارن» إلى بيته أكثر من مرة، وكنت أبيت عندهم أحياناً. ولما جاءت أسرتي زادت العلاقة معهم وتوطدت أكثر. ونشأت صلة قوية بين أسرتي وأسرة الدكتور «وارن» الذي كان له ثلاثة أولاد في سن بناتي الثلاث، لذلك كنا ننسجم كثيراً كلما زرناهم.

يبدو أن الحكومة البريطانية، رغم أنها منتخبة من الشعب بموجب النظام الديمقراطي، لا تعكس بالضرورة سمات المجتمع البريطاني على حقيقته، فتجاربنا - نحن العرب - مع الحكومات البريطانية المتعاقبة سيئة ومريرة، منذ القرن التاسع عشر، ولكنها تأكدت حينما صدر وعد بلفور المشؤوم في ٢/١١/١٩١٧، وعدم الوفاء، بما قطعته الحكومة البريطانية من عهود للشريف حسين بن علي في عام ١٩١٦ بقيام دولة عربية موحدة، وبدلاً من ذلك اتفقت مع القوى الأوروبية على تقسيم الوطن العربي إلى مناطق نفوذ أوروبية بموجب اتفاق سايكس - بيكو عام ١٩١٦، وانشاء كيان يهودي على أرض فلسطين ودعمه ليصبح دولة تهدد الأمة العربية.. إلى غير ذلك من الضربات التي وجهتها بريطانيا ولا تزال توجهها للعرب.

ربما كان سبب الاختلاف بين الشعب البريطاني وحكومته، أن هذا الشعب غير مُسيَّس، ولا يحب أفراده الخوض في السياسة، إلا إذا كان للسياسة تأثير مباشر على حياته اليومية والمعيشية وأحواله الاقتصادية والاجتماعية. قد يكون هذا نتيجة استقرار الأوضاع عندهم، وثقتهم بحكومتهم المنتخبة، وتحميلها المسؤولية، فإن أخلّت بها أمكنهم تغييرها في الانتخابات. ولكن الوضع عندنا مختلف، فشعوبنا مسيّسة،

وكل واحد منا يتحدث في السياسة، لأن السياسة تدخل في كل شأن من شؤوننا، وهي مفروضة علينا، حتى أصبحت بمثابة خبزنا وطعامنا. أما البريطانيون، ففيما عدا السياسيين منهم، فيجهلون الكثير من الأمور السياسية، وبخاصة فيما يتعلق بالقضايا الخارجية، وهم - رغم ذلك - متأثرون بالدعايات اليهودية الصهيونية بسبب سيطرة اللوبي الصهيوني على معظم وسائل الإعلام عندهم. ولكن إذا اتضحت لهم الحقيقة فسرعان ما يتخذون مواقف موضوعية أو عادلة. وهم على العموم - وكشعب - صادقون فيما يقولون، يفون بما يتعهدون به، وشعورهم الإنساني قوي، وهذا يبدو واضحا في مسارعتهم إلى التبرع للمنكوبين والمحرومين والمحتاجين في أي مكان من العالم، وهم يحترمون القيم الإنسانية، ويندددون بالظلم والاستبداد.

لن أنسى وقوف أصدقائي ومعارفي من الإنجليز معي ومواساتي في حرب حزيران / يونيو عام ١٩٦٧، والتي كان من نتائجها سقوط قطاع غزة - حيث مسقط رأسي خان يونس - واحتلال اسرائيل للضفة الغربية وسيناء المصرية، والجولان السورية.

حينما لاحظ رئيس القسم البروفيسور «هاوس» انقطاعي عن الدراسة زارني في المسكن، واصطحبني معه إلى الجامعة، وحاول تهدئتي، والتخفيف عن مشاعر الحزن والأسى اللذين سيطرا عليّ، وذكر لي ما شاهده من أهوال في الحرب العالمية الثانية، حينما كان مسؤولاً في مكتب المخابرات على الجبهة الأوروبية. وحاول رفع معنوياتي قائلاً بأني شخص مجد وسأحمل عما قريب شهادة علمية من بريطانيا تؤهلني العمل في أي مكان من العالم.

من المساعدات التي قدمها لي، البروفيسور «هاوس»، ولا يمكنني نسيانها، في أثناء هذه الأزمة، أنه بذل جهداً مشكوراً في اقناع الممتحن الخارجي البروفيسور «إدواردز» Prof. Edwards من أجل تقديم موعد مناقشة الرسالة، حتى أتمكن من السفر والاطمئنان على أسرتي. وقد استجاب البروفيسور «إدواردز» لطلب البروفيسور «هاوس» بتقديم الموعد، على أن تكون المناقشة في جامعة «نوتنجهام» حيث كان رئيساً لقسم الجغرافية فيها، علاوة على كونه رئيس رابطة الجغرافيين البريطانيين، مقدراً وضعي الخاص الناجم عن الحرب.

وقد استقبلني بنفسه على محطة سكة الحديد القريبة من الجامعة، إذ لم يسبق لي أن جئت إلى هذا المكان، ولا شك أن هذا كان كرماً منه. وفي أثناء قيادته السيارة حاول التخفيف من التوتر الذي شعر بأني أعانيه، وذكر لي أسماء بعض طلابه من العرب في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وأنه يحب البلاد العربية ويفكر في زيارتها وقد حقق رغبته هذه بعد تقاعده في عام ١٩٧١، فقام بجولة في العالم، ووصل إلى

الكويت، ورحبت به، ومعه زوجته في منزلنا، ومكثا في ضيافتنا أسبوعاً كاملاً، وجه لي خلالها دعوة لزيارة الجامعة وإلقاء محاضرات في قسم الجغرافية، فشكرته، ولكنني لم أتمكن من تلبية هذه الدعوة.

قبل مناقشة الرسالة، قدم لي البروفيسور «إدواردز» مشروبات غير روحية. وقد استمرت المناقشة نحو ساعة ونصف أو ساعتين، دعاني بعدها إلى تناول طعام العشاء، وفي أثناء ذلك أشاد بي وبسعة اطلاعي، ليس في مجال تخصصي فقط، بل في تخصصات أخرى، كالاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة والفلسفة، وقد لاحظ ذلك حينما كان يسألني في مسألة ما، كنت أجيب عليها من جميع جوانبها المختلفة : اجتماعياً وتاريخياً واقتصادياً وسياسياً... إلخ. وسألني كيف تمكنت من ذلك، فقلت له بأنني أحب القراءة كثيراً، وفي تخصصات مختلفة، فقد تأثرت، حينما كنت طالباً بجامعة القاهرة، بجيل الموسوعيين من الأساتذة آنذاك. فقال إن : إعدادك كان إعداداً موسوعياً، وربما مما ساعدك على هذا ما تتمتع به من ذاكرة قوية لاحظتها فيك. ونصحني بمتابعة الدراسة للحصول على درجة الدكتورة، وأنه يرحب بي في جامعته، فشكرته قائلاً بأنني سأفكر في هذا العرض بعد السفر والاطمئنان على الأهل، ثم ودعته وشكرته على كرمه وحسن استقباله، وعدت إلى نيوكاسل حيث بدأت الاستعداد للعودة إلى الكويت. وقام بعض الإخوة العراقيين، وبخاصة الصديق الوفي الأستاذ «عباس العطار»، وهو تركماني، ومن سكان كركوك، وكان يواصل دراساته العلمية بجامعة نيوكاسل، بمساعدتي في الاستعداد للسفر، وتعهد الأستاذ «عباس» بشحن أمتعتي بالبحر إلى الكويت، وقد قام بهذا العمل على أكمل وجه.

١- الجنيه الانجليزي guinea يساوي ٢١ شلناً، بينما كل باوند Pound يساوي عشرين شلناً فقط، والجنيه عملة إنجليزية قديمة حل «الباوند» محلها، ولكن حينما كنت في بريطانيا كان الجنيه يستعمل مع الباوند إلاّ أن استعماله غير شائع.

٢- يفرق الانجليز بين الدعوة على الشاي حيث يقدم فيها الشاي فقط، . أما إذا كانت الدعوة علىHigh Tea فتقدم الحلويات أو بعض المعجنات، وموعدها عند العصر، وهي لذلك اشبه بالعصرونة عندنا. كان موعد الشاي في الجامعة الساعة العاشرة صباحاً، أما موعد «هاي تي» فكما ذكرت، في الرابعة والنصف بعد الظهر أو الخامسة مساء.

٣- مصطلح يعني رابطة الشعوب البريطانية، ويضم دولاً كانت خاضعة للاستعمار البريطاني في آسيا كالهند وباكستان، وفي إفريقية مثل نيجيريا. وقد عملت فرنسا الشيء نفسه مع مستعمراتها السابقة وضمت إليها البلاد الناطقة بالفرنسية وأطلقت عليها «الفرنكفونية».

في ثانوية الشويخ

قبل سفري إلى بريطانيا لمواصلة الدراسات العليا والحصول على درجة الماجستير، تقدمت بطلب إلى وزارة التربية الكويتية، أطلب منحي إجازة بدون راتب لمدة عام، وتمت الموافقة، ولذلك كان لا بد من العودة إلى العمل بعد انقضاء هذا العام، وحمدت الله أن عدت وقد حصلت على الماجستير.

في بداية العام الدراسي، أي في شهر أيلول / سبتمبر عام ١٩٦٧ رشحت وزارة التربية عدداً من مدرسي المرحلة الثانوية للمقابلة لترقيتهم إلى رتبة «مدرس أول»، أي ليكونوا رؤساء أقسام في المدارس الثانوية حسب التخصصات المختلفة، وقد كنت ضمن هؤلاء المرشحين، وقد اجتزت المقابلة بجدارة، وتم تعييني مدرساً أول للمواد الاجتماعية بثانوية الشويخ التي كانت أقدم وأكبر ثانوية في الكويت. وكانت المنافسة شديدة جداً على هذا المنصب آنذاك والذي كان محتكراً لأعضاء البعثة المصرية الحكومية. ولذلك كنت أول شخص غير مصري يحتله. وكانت المواد الاجتماعية تضم تخصصات مختلفة هي: التاريخ والجغرافية والاجتماع والاقتصاد والفلسفة وعلم النفس، بالإضافة إلى تخصص اللغة الفرنسية. وكان عدد المدرسين في هذه التخصصات خمسة وثلاثين مدرساً، غالبيتهم من المصريين، ومن ذوي الخبرات التعليمية والتربوية الكبيرة، فقد كانت وزارة التربية في الكويت تعامل ثانوية الشويخ معاملة خاصة لوضعها المتميز، فترسل إليها أفضل المدرسين، وتسكنهم في مساكن المدرسة، وهي بيوت مستقلة «فلل»، ولها حدائق جميلة. لقد تميزت ثانوية الشويخ بهذه الميزة على جميع المدارس الثانوية الأخرى التي أنشئت بعدها بنحو عشر سنين. ومن المعلوم أن جامعة الكويت احتلت – فيما بعد – مباني ثانوية الشويخ، وتم توزيع طلاب المدرسة على المدارس الثانوية الأخرى.

لاحظت أن زملائي المصريين الذين يعملون تحت إمرتي في القسم، لا يبدون المودة أو المحبة نحوي، ويحاولون الابتعاد عني، وليست لديهم الرغبة حتى في التعاون معي، لاعتقادهم أنني أخذت منصباً كان محتكراً لهم من قبل. وربما زاد من حنقهم أنني اخترت الأستاذ «موسى كاظم نصري»، والذي كان أقدم مدرس للتاريخ في المرحلة الثانوية، ومن الجنسية السورية، مساعداً لي، وخفضت جدوله الدراسي، وكان زميلاً لي في السابق بمدرسة كيفان الثانوية، ولما عُينت مدرساً أول في ثانوية الشويخ، والذي سبقني إلى العمل فيها، طلب نقله إلى مدرسة اخري، فناديته، وقلت له معاتباً بأن واجب

الزمالة السابقة يتطلب منه تهنئتي والترحيب بي، وإبداء التعاون معي، وأقنعته بالبقاء لأني سأختاره مساعداً لي. وعلى الرغم من اعتراض بعض المسؤولين على هذا الاختيار إلا أنني بقيت مصراً على موقفي، ولم أسمح لأحد بالتدخل في شؤون قسمي.

حاولت قدر استطاعتي أن أكون عادلاً ونزيهاً مع الجميع، ولا أميز بين أحد، ولا أفرق بين جنسية وأخرى، فقد ضم القسم مدرسين معظمهم من المصريين كما ذكرت، وعدداً قليلاً من الكويتيين والفلسطينيين والعراقيين. وكنت أبدي احتجاجي إذا قامت وزارة التربية بنقل أحد المدرسين دون أخذ موافقتي أو استشارتي، مما أوقعني في صدام مع بعض المسؤولين، ولكن لم أكن أبالي، وأحمد الله أن كبار المسؤولين في وزارة التربية كانوا يقدرونني ويدعمونني لاعتقادهم بأنني متمكن في تخصصي، وكفؤاً في الإدارة، وعادل وحازم، وأعمل ما هو مناسب، وما تقتضيه المصلحة العامة. وكان الأستاذ «صالح العثمان» مدير التعليم الثانوي من الداعمين لي، وكذلك الأستاذ «يعقوب الغنيم» وكيل الوزارة آنذاك.

بعد مضي نحو شهرين من بدء العام الدراسي، جاءني الأستاذ «عصام المهندس»، مدرس الفلسفة بالمدرسة وهو مصري، وطلب مني التحدث على انفراد في مكان اختاره خارج المدرسة، لأنه سيطلعني على أمر لا يريد أن يعرفه أحد من الزملاء، فوافقت. وتم اللقاء، وفيه قال لي بأن مدرسي المواد الاجتماعية المصريين بثانوية الشويخ، حينما علموا بتعييني مدرساً أول، أي رئيساً للقسم، عقدوا اجتماعاً قرروا فيه عدم التعاون معي، والعمل على إثبات عجزي، وعدم قدرتي على إدارة القسم، وإظهار فشلي أمام المسؤولين في وزارة التربية، بهدف نقلي إلى مدرسة أخرى، وتعيين واحد منهم، اعتقدوا أنه أحق بهذا المنصب، وهو مدرس الجغرافيا، واسمه «فريد»، وكان مدرساً أول بمصر قبل انتدابه للعمل في الكويت.

قلت للأستاذ «عصام المهندس» لقد أدركت ذلك في بداية العمل فقد كنت ألمس بروداً في التعامل، وصدوداً عني، واتصال هؤلاء الزملاء مع ناظر المدرسة الأستاذ «عبد الحميد الحبشي» وهو مصري مثلهم، وتعمدهم تجاوزي مما جعلني أتصل به، وأنبهه إلى رفضي هذا الأسلوب، وقلت له بأنني لن أسمح لأحد يعمل تحت إمرتي أن يتجاوزني، ورجوته أن يطلب منهم عدم الاتصال به مباشرة في معاملاتهم الرسمية، وإنما يكون ذلك عن طريقي، وذلك تمشياً مع النظم واللوائح الوزارية، وأعلمته بأن اتصاله بهم يجب أن يكون أيضاً بواسطتي، وإلا فانني سأكون مضطراً لتجاوزه في اتصالاتي مع المسؤولين في الوزارة الذين تربطني بهم علاقات قوية، فأبدى استعداده للتعاون معي في

تنفيذ ذلك، وكان يعرف علاقتي القوية بالوزارة.

سألت الأستاذ «عصام» عن أسباب تغير الزملاء نحوي، وقلت له، بأنني لاحظت أن تعاملهم معي حالياً يتسم بروح المودة والمحبة، ويبدون تعاوناً لم ألمسه من قبل. فقال بأنهم أدركوا خطأ سياستهم معي، وندموا على إساءتهم الظن بي. فقد تبين لهم بأني منصف وعادل، ولا أميز أحداً على أحد، ولا أنحاز لشخص على حساب الآخر، وأنني أدافع عنهم جميعاً، وأستمع إلى شكاويهم، وأعمل على إنصافهم، وليست لدي بطانة خاصة أو «شلّة»، كما كان لمن جاء قبلي. ولا أسمح لزميل بأن يطعن في زميله، ولا أُقيّم أحداً بناء على ما أسمعه عنه من الغير، وإنما أعتمد على تقييمي له من خلال عمله. وقد طلب مني ناظر المدرسة الموافقة على نقل مدرس الفلسفة الفلسطيني «خالد شراب»، مدعياً أن التلاميذ يشتكون منه ولا يتقبلونه، فطلبت منه إمهالي حتى أتأكد من ذلك بنفسي، وحضرت درساً لهذا المدرس، وتبين لي أن الشكوى كانت كيدية، فرفضت نقله، وتمسكت به، وطمأنته وقربته مني وقدمت له نصائحي. وحينما جاء الموجه واسمه «عراقي حبشي» وهو مصري، ليدخل على المدرسين ويقيّمهم ويضع تقارير على أدائهم، صممت على مرافقته حينما يدخل للمدرسين في صفوفهم ويشاهد أداءهم في الفصول، واتفقت معه على أن يضع كل منا تقييمه وتقديره لكل مدرس على انفراد، ثم نجتمع سوياً في النهاية لنتفق على تقييم موحد. ولم يسبق لمدرس أول أن دخل مع الموجه – الذي كان يسمى آنذاك مفتشاً – واشترك معه في تقييم المدرسين، وإنما يكتفى بأن يضع المدرس الأول تقريره في نهاية العام الدراسي عن زملائه، ويقدمه لناظر المدرسة. ومع ذلك فقد وافق هذا الموجه لأنه كان واعياً ومتفهماً وعادلاً وخلوقاً. وحتى لا يشك زملائي في الأمر، قلت لهم بأنني بعملي هذا لا أريد للموجه أن ينفرد وحده بتقييمهم من خلال درس واحد يحضره أو أكثر، مما قد لا ينصفهم ولا يعطيهم حقهم، وإنما باشتراكي معه، ومعرفتي بزملائي أكثر منه أستطيع إطلاعه على الصورة الحقيقية لكل زميل. وهذا ما حدث بالفعل، فقد تمكنت من تغيير نظرة الموجه نحو زملاء اعتقدت أنه ظلمهم ولم يعطهم حقهم تماماً. وما أن شارف العام على الانتهاء حتى رشحت أربعة مدرسين للترقية، وقد كان سروري كبيراً حينما تمت ترقيتهم جميعاً إلى مدرسيْن أوائل في المدارس الثانوية.

قبل انتهاء العام قدمت طلباً لوزارة التربية لمنحي إجازة لمدة عامين بدون راتب للحصول على درجة الدكتوراه في جامعة نيوكاسل، والتي سجلت فيها بعد الحصول على الماجستير لمواصلة الدراسة للدكتوراه، واخترت موضوع «التنمية الاقتصادية في

الكويت»، وعينت الجامعة الدكتور «كينيث وارن» K. Warren مشرفاً عليّ، والذي انضم بعد ذلك إلى هيئة التدريس بجامعة «اكسفورد»، وطلبت من الجامعة السماح لي بالسفر إلى الكويت لمباشرة البحث الميداني وجمع المعلومات والبيانات اللازمة وهذا يستغرق بضعة شهور.

حينما علم زملائي بعزمي السفر إلى بريطانيا شعروا بأنهم خسروا زميلاً وأخاً كبيراً لهم، وطلب بعضهم الانتقال إلى مدارس أخرى، وأقاموا لي حفلة وداعية كرموني فيها، ودعوا إليها ناظر المدرسة والمفتش «عراقي حبشي» وعدداً من المسؤولين في وزارة التربية، وألقى بعضهم خطباً أشادوا فيها بمناقبي وصفاتي. ومما قاله عراقي حبشي في كلمته: «تمكن الأستاذ محمد الفرا بابتسامته التي لا تفارقه من حل المشاكل التي واجهته، وكسب محبة زملائه والذين عملوا معه».

كان لا بد قبل العودة إلى بريطانيا من استكمال بعض الإجراءات الرسمية كالحصول على الموافقة بمنحي إجازة لمدة عامين بدون راتب، وكذلك لزوجتي التي كانت تعمل مدرسة بمدارس وزارة التربية، واستخراج شهادات مدرسية لبناتي نداء ونرمين وأمل، وشهادات ميلاد مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، وشحن الأوراق والتقارير والكتب والبحوث التي جمعتها في أثناء دراساتي الميدانية.

وفي الوقت نفسه، كان لا بد من تسليم الشقة وأثاثها لدائرة الإسكان، إذ كنت من الذين يتمتعون بمسكن حكومي، وتذاكر سفر لي ولأسرتي سنوياً، من الكويت إلى غزة، ذهاباً وإياباً نظراً لتعاقدي مع وزارة التربية من الخارج، كما سبق أن ذكرت.

وفي الأسبوع الأول من شهر تشرين أول / اكتوبر ١٩٦٨ سافرت إلى بريطانيا، ولحقت بي الأسرة بعد بضعة أيام، استطعت خلالها من استئجار شقة مناسبة، واستكملت إجراءات التسجيل السنوية ودفع الرسوم للجامعة.

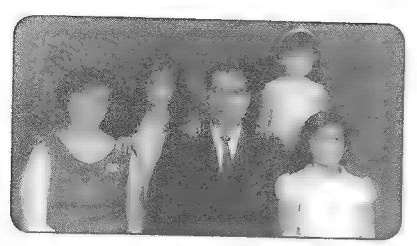
العودة إلى المملكة المتحدة

حينما علم صديقي «الحاج نظير» بعودتي رحب بي ودعاني إلى منزله، وأبدى سروره حينما أخبرته بأن أسرتي ستحضر قريباً، وأنه لا بد من البحث عن سكن يكون قريباً من منزله، لأن المنطقة التي يقطن فيها قريبة من الجامعة، ومن المدرسة التي يمكنني إلحاق بناتي بها، كما تتوافر فيها الخدمات والمرافق التي نحتاج إليها في حياتنا اليومية.

كان «الحاج نظير» من مواليد الهند، وهو باكستاني، جاء إلى إنجلترا بعد رحيل بريطانيا عن شبه القارة الهندية، وقيام دولة باكستان عام ١٩٤٧، وفضل العمل في الأعمال التجارية وبخاصة تجارة الملابس والعقارات وأصبح من ميسوري الحال، ومن أبرز الشخصيات الباكستانية في المنطقة، ومن أكثرهم تبرعاً للأعمال الخيرية الإسلامية. وقد تعرفت عليه وتوطدت علاقتي به، منذ جئت إلى نيوكاسل في عام ١٩٦٦، وعرفني على أسرته وأصدقائه ومعارفه من الباكستانيين. وكان يحرص على دعوتي في المناسبات والاحتفالات الدينية، ويطلب مني إلقاء كلمة فيها، ويرجوني أن أقوم بالخطبة يوم الجمعة وإمامة المصلين، مما ساهم في اتساع دائرة معارفي في المجتمع الباكستاني في المنطقة. ولذلك تلقيت الكثير من الدعوات من شخصيات وأسر باكستانية، وكان بعض التجار من الباكستانيين يطلبون مني افتتاح محلاتهم وقص الشريط تميناً وتباركاً – أو تفاؤلاً – بي، ويحاولون تقديم هدايا من المحل المفتتح، ولكنني كنت أعتذر عن ذلك شاكراً لهم كرمهم. وكان بعضهم يطلبون مني عقد قران الزواج على الطريقة الإسلامية، فأقبل ذلك متطوعاً، ودون مقابل، ومنهم من كان يرجوني حضور حفلات يقيمونها بعد أسبوع من ميلاد أولادهم. وكانوا يظنون أن هناك شعائر خاصة بالإسلام تتعلق بتسمية المولود، على نحو ما هو متبع في المسيحية، من حيث تقاليد «التعميد».

ربما كان من المواقف الحرجة التي تعرضت لها، ما حدث لي، حينما لبيت دعوة أسرة باكستانية رزقت بمولود ذكر، وتريد تسميته بعد أسبوع من الولادة. وكان من بين المدعوين إنجليز، حضروا ليتعرفوا على التقاليد الإسلامية في هذه المناسبة.

لقد شعرت بالحرج، حينما طلب مني رب الأسرة أن أقوم بما سماه «مراسيم التسمية» على الطريقة الإسلامية، وكنت أظن بأنني واحد من المدعوين، ولن يطلب مني القيام بأي عمل، كما أنه – وكما قلت – ليست هناك مراسيم إسلامية خاصة بالميلاد والمواليد. فكل ما أعرفه أن الأسر في بلادنا تحتفل في اليوم السابع من الولادة، وتسمى «حفلة



السبوع»، وهي في الغالب، تكون مقصورة على النساء، وتقوم فيها «الداية» بالدور الهام والكبير، وتتولى رعاية الأم ووليدها.

خيم الصمت، وتطلع الجميع نحوي، والكل – وبخاصة الإنجليز – متشوقون ليروا هذه المراسم، التي ربما لم يشاهدوها من قبل، وظنوا بأنني رجل دين، أقوم بالدورالذي يقوم به القسيس في تعميد المواليد عند المسيحيين.

وجدت أن من المستحيل عليّ الهروب من هذا الموقف الحرج، فالباكستانيون فرحوا بوجودي، وشعروا بالسعادة لقيامي بهذا الدور، بصفتي رئيس الجمعية الإسلامية، ومن أصل عربي، وهم يعتزون بالعرب، على اعتبار أن نبي الإسلام عربي. وكثيراً ما كان بعضهم يصر على تقبيل يدي بعد صلاة الجمعة، وكنت أنهاهم عن ذلك، ولكن دون جدوى، معتقدين أنني أبخل عليهم ببركاتي. وفي هذا اليوم يريدون أن يعرف الضيوف الإنجليز على مظهر من مظاهر الإسلام، وعلى بعض شعائره – كما كانوا يظنون – ولذلك فإن اعتذاري سيولد لديهم حرجاً شديداً أمام هؤلاء الضيوف، وربما إحباطاً تعاني منه نفوسهم.

تمالكت نفسي، ووقفت، وقلت للأب بان يطلب من زوجته تغطية جسم المولود برداء أبيض، ويوضع في محفة مرتفعة وبشكل مائل، بحيث يكون رأس الطفل متجهاً نحو الأعلى حتى يتمكن الجميع من رؤية وجهه، ويقف الوالد على يمين المحفة، بينما تقف الأم على يسارها. ويوضع المصحف عند رأس الطفل، ثم أخرجت مصحفاً صغيراً، كنت أحرص على وضعه في جيبي دائماً، وبدأت أرتل سورة «مريم» مع تكرار تلاوة آيات معينة وهي «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا» و«يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا. وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا».

طلبت من الأب، بعد ذلك، أن يناولني الطفل. ولما حملته، وضعت يدي اليمنى على رأسه، وتلوت سور: الإخلاص والفلق والناس. ثم قرأت بعض الأوراد والأدعية المناسبة، وقربته مني وأذّنت في أذنيه وناديته بالاسم الذي أحب والديه أن يُسمّى به، ودعوت

الله أن يكون باراً بوالديه، رحيماً بهما، خافضاً لهما جناح الذل من الرحمة، مخلصاً لأمته، مؤمناً بربه، فخوراً بإسلامه، وسائراً على درب رسوله. ثم سلّمت الطفل لوالدته، وألقيت كلمة مختصرة أذكر فيها حقوق الإبن على والده، كما نص عليها الإسلام، كاختيار الأم الصالحة، والاسم المناسب، وأن يُحسن تربيته وتعليمه.

شاهدت البهجة والسرور على وجوه جميع الحاضرين، وشكرني والد الطفل ووالدته، وتكلم عدد من الضيوف الإنجليز قائلين بأنهم كانوا سعداء، بأن يشاهدوا ويحضروا تقاليد إسلامية، وقالوا بأنهم أعجبوا ببساطتها ورمزيتها ومعانيها. وبعد ذلك دعانا رب الأسرة لتناول الحلويات التي كانت قد أعدت لهذه المناسبة.

كثيراً ما كان بعض المسلمين من باكستان وأقطار افريقية يعرضون عليّ قضايا إسلامية يتعرضون لها، كالأطعمة، وبخاصة اللحوم التي كانوا يضطرون لشرائها من السوق المحلية، والتي يُشاع بأنها لا تُذبح وفق الشريعة الإسلامية، وكنت أسمع أن بعض بائعي هذه اللحوم من الباكستانيين يشترون لحوماً رديئة النوع، من السوق المحلية ويبيعونها بأثمان عالية للمسلمين، على اعتبار أنها «لحم حلال». وللأسف لم يكن آنذاك من يقوم بالذبح حسب الشريعة الإسلامية بحيث تشرف على عملية الذبح هيئة إسلامية معترف بها. ولذلك كانت اللحوم المباعة من المشاكل التي يعاني منها المسلمون.

كان لا بد أن أبدي رأيي في الموضوع معتمداً على سند شرعي. وهذا أمر ليس سهلاً بالنسبة لي، لكوني لست عالماً بالدين، ولا مختصاً به، وأن ثقافتي الدينية بسيطة ومتواضعة، ولا تؤهلني إبداء الرأي في قضايا من هذا النوع، سأتحمل وزرها أمام الله والناس. ولكن الإصرار من السائلين دفعني إلى البحث والتحري في الكتب والمراجع الدينية.

فعلمت أن من غير المستحب طرح الكثير من الأسئلة وبخاصة من الأمور التي أباحها الإسلام والمسلمون، وتذكرت قوله سبحانه وتعالى في سورة المائدة، الآية ١٠١، «يا أيها الذين آمنوا لا تسالوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم». وتذكرت أيضاً أنه لما أمر الله بني إسرائيل، على لسان موسى عليه السلام، أن يذبحوا بقرة، ألحوا وأكثروا من الأسئلة عن شكل البقرة وأوصافها وصفاتها، فشددوا على أنفسهم وزادوا من تعقيد الأمر. وفي الحديث الشريف عن ابن عباس مرفوعاً «إنما أمروا بادنى بقرة – أي بقرة – ولكنهم لما شددوا شدّد الله عليهم».

قلت لمن سألني عن سلامة أكل اللحم المشترى من السوق المحلية، بأن الله أحل لنا أكل طعام أهل الكتاب : «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم».

وهذه رخصة لا ينبغي تقييدها، وأن الإنجليز، كما تعلمون أهل كتاب، فإن أكلتم من اللحم الذي يبيعونه، فلا إثم عليكم، إلا إذا رأيتم الذبح بأنفسكم بأنه يتعارض والشريعة الإسلامية، أو سمعتم من مصدر موثوق بأنهم يقتلون حيوانات الأكل بالخنق أو بصعقها بالكهرباء أو بغير ذلك من وسائل لا يجيزها الإسلام.

وفي هذه الحالة تشترون اللحم من الباعة المسلمين الذين يبيعون اللحم الحلال، والوزر يقع عليهم ويتحملونه هم. وإذا اضطررتم شراء اللحم من محلات انجليزية، وشككتم فيه، فاذكروا اسم الله قبل تناوله ولا تخشوا شيئاً.

كان موعد إقامة صلاة الجمعة من المشاكل التي واجهتنا. فالجمعة يوم عمل في انجلترا، ولا يسمح أرباب العمل والمسؤولين للمسلمين بالخروج لصلاة الجمعة في موعدها. فاقترح البعض أن تكون الصلاة في يوم السبت أو الأحد فرفضت، لأن هذين اليومين لليهود والنصارى، وأن الجمعة للمسلمين دون سواهم، وسألتهم عن موعد فترة استراحة الغداء، ولما علمت بأنها تبدأ قبل صلاة الجمعة بنحو نصف ساعة، وافقت على تبكير صلاة الجمعة عن موعدها بنصف ساعة. وقد وجدت في بعض المراجع سوابق يمكن الاعتماد عليها في تقديم صلاة الجمعة أو تأخيرها بنحو ساعة أو أقل. كما أن الإسلام يبيح الجمع والتقديم عند الضرورة في حالات كثيرة، ووجدت أن تقديم الصلاة أو تأخيرها أفضل بكثير من عدم قيامها، إذا حالت الظروف دون أدائها في الوقت المحدد، لأن من أهم أهداف صلاة الجمعة، اجتماع المسلمين والتقائهم وتعارفهم ببعضهم البعض، والاستفادة من الخطبة التي يلقيها الإمام. وهذا التبكير في صلاة الجمعة يحدث الآن في مسجد في كاليفورنيا بأمريكا في منطقة مدينة «سان هوزيه»، حيث تقام صلاة الجمعة على دفعتين، الأولى قبل الموعد، والثانية بعدها.

دخل عليّ في مكتبي في مساء آخر يوم من أيام شهر رمضان المبارك صديق باكستاني، وكان منزعجاً، وقال لي: ارجوك يا «مستر فرا» أن تذهب فوراً إلى قاعة الاجتماعات الكبرى بالجامعة حيث اجتمع فيها الطلبة المسلمون لتحديد موعد عيد الفطر، وقد اختلفوا، فبعضهم يريد أن يكون العيد كما تحدده حكومة باكستان، وهناك من يرغب في التقيد بما تراه المملكة العربية السعودية، ومنهم من قرر أن يكون عيده حسب ما تحدده بلده الأصلي، وكثر الهرج وتعالت الصيحات، وكاد البعض أن يشتبك بالأيدي، وكان من شهود هذه المهزلة قسيس الجامعة «الأب بنيت» Bennett. وقد ساءني أن يكون حاضراً ويرى هذا الخلاف حول تحديد موعد عيد الفطر. وإذا كنا نأسف لما يحدث في بلادنا كل عام من خلافات، قد تكون مسيّسة أحياناً – حول تحديد الأعياد،

فها نحن اليوم نُصدِّر هذه الخلافات إلى المسلمين في الغرب، ويتخذها بعض أعداء الإسلام سلاحاً يحارب به عقيدتنا أو يطعن فيها.

غادرت مكتبي على الفور، واتصلت هاتفياً بالمركز الإسلامي في لندن واستفسرت عن موعد العيد، فعلمت أنه تحدد غداً، ثم توجهت إلى القاعة التي ما أن دخلتها حتى قال أحد الحاضرين مخاطباً الجمهور : أرجو السكوت، فقد حضر رئيس الجمعية ولنستمع إليه. استجاب له الجميع، وخيم السكوت والهدوء على القاعة التي كانت قبل قليل يملؤها الصراخ والضجيج.

وقفت على المنصة، وسميت باسم الله، وحييّت الجميع بتحية الإسلام. وقلت لهم مما قلت بأن على المسلم الذي يعيش في بلد إسلامي أن يبدأ صومه وينهيه حسب ما تقرره الجهات الإسلامية المختصة في ذلك البلد. ونحن هنا في بريطانيا، وهي بلد غير إسلامي، فماذا نفعل؟ هل يتقيد كل مسلم بموعد إعلان العيد في بلده؟ ولو سرنا على ذلك فإنه سيكون لكل جماعة إسلامية عيد خاص بها، وهذا غير جائز، ويشجع الكثيرين على انتقادنا والاستهزاء بنا، والتندر علينا، ثم تساءلت : ما الحل إذن؟ واجبت : الحل أن نرجع إلى المرجعية الدينية في بريطانيا، والمتمثلة في المركز الإسلامي بلندن، وهي المخولة بتحديد المناسبات الدينية كالصيام والأعياد. وقلت لهم، باني اتصلت بهذا المركز قبل مجيئي إلى هنا، وعلمت بأن العيد قد تقرر غداً، إن شاء الله، وإني أعلن، من على هذه المنصة، وبصفتي رئيس الجمعية الإسلامية، بأن عيد الفطر سيكون غداً، وأن صلاة العيد ستقام في المسجد عند شروق الشمس، اي في الساعة الثامنة صباحاً، وأنني ساخطب في المصلين واتولى الإمامة، وأرجو أن التقي بعد هذا الاجتماع بمن يرغب في ترتيل التسبيحات التي ترتل قبل الصلاة، لأقوم بكتابتها له كي يحفظها. وقلت في ختام كلمتي بأنه لا نقاش في هذا الموضوع، فقد تم حسمه، وشكرتهم على الحضور، وطلبت منهم ضرورة حضور صلاة العيد لأهميتها في الإسلام، وأعلنت انتهاء الاجتماع.

وهكذا انفض الاجتماع بهدوء وسلام، وتقدم الأب «بنيت» نحوي وشد على يديّ مهنئاً على قدرتي على أخذ زمام المبادرة، وحسم الأمر على أحسن ما يكون، وطلب مني التعاون معه، بما يحقق الخير للجميع، فشكرته على حسن ظنه بي، وتوطدت علاقتي به، وكان حريصاً على اللقاء معي في كثير من المناسبات.

من الطلاب الذين تعرفت عليهم في قسم الجغرافية، بجامعة نيوكاسل، طالب يهودي اسمه «مارك»، كان يبدو عليه الكره لي، وكثيراً ما حاول مضايقتي، بوضع أخبار

ومقالات تمجد إسرائيل، وتحط من شان العرب. فكرت في الأمر، ووجدت أن من الأفضل أن أحاول التقرب إليه واحتوائه، لأعرف سبب ما يبديه من كره نحوي. فقلت له يوماً : تعال يا مارك.. إني أود التحدث إليك، لأني أحبك، فانت بمثابة أخي الأصغر، وأنا لا أكره اليهود، فهم - كما تعلم - أولاد عمومتنا، فأبدى استهجانه واستغرابه لما قلت، وشك في الأمر. وكنت كلما اجتمعت به أروي له تاريخ علاقة العرب باليهود، وكيف عامل العرب اليهود، واستعانوا بهم، وعينوهم في مناصب عليا في الدولة الإسلامية، وكيف حموهم من جور الغرب وظلمهم. وقلت له بأن الأوروبيين وبخاصة الإنجليز هم الذين أوجدوا المشكلة اليهودية، وافتعلوا العداء بين العرب واليهود، وأنهم هم الذين اضطهدوا اليهود عبر العصور، وكان «هتلر» الذي حكم ألمانيا في العهد النازي، آخر من اضطهد اليهود، وأن الأوروبيين اعتقدوا بأن حل المشكلة اليهودية في بلادهم لا يكون إلا بالتخلص منهم بإقامة دولة لهم في فلسطين، وهو حل كان وللأسف، على حساب عرب فلسطين، الذين كانوا ضحية المؤامرات الأوروبية.

وجدت أن «مارك» أصبح ميالاً نحوي، وصار يحبني، وقد عرفته على أسرتي فيما بعد، وأكثر من التردد على منزلنا، وكنا ندعوه إلى تناول الطعام في منزلنا، وصار يحدثنا عن علاقته بإسرائيل، وأنه كان يذهب في أثناء العطلة الصيفية إلى إسرائيل، ويعمل في الجيش الإسرائيلي، وأنه زار مدناً فلسطينية مثل يافا وحيفا وعكا، كما زار قطاع غزة، وأحضر لنا صوراً التقطت هناك. وقال بأنه أصبح غير مقتنع بإسرائيل بعد أن سمع مني عن علاقة اليهود بالعرب، وأصل القضية الفلسطينية، وأنه كان ضحية الدعاية الصهيونية، وتنبأ بزوال إسرائيل مهما طال الزمن، وأن فلسطين ستعود لأهلها العرب، وذكر لي أسماء عدد من الطلبة اليهود في الجامعة الذين جندتهم السفارة الإسرائيلية بلندن لمراقبتنا والتجسس علينا، وحذرني منهم. ومن حبه وإخلاصه لي، ولأسرتي، كان الوحيد الذي انتظر مع زوجتي خارج الغرفة التي ناقشني فيها الأساتذة الممتحنون لمعرفة مدى استحقاقي لدرجة الدكتوراه، والتي استمرت لأكثر من ساعتين. وكان في غاية السعادة حينما علم بنجاحي، ودعاني مع الأسرة إلى حفل بسيط أقامه في منزله، والتقط لنا بعض الصور، لا زلت أحتفظ ببعضها.

لم تجد أسرتي صعوبة تذكر في التكيف مع البيئة الجديدة، فقد تعرفت زوجتي على عدد من السيدات البريطانيات اللواتي كن يتبادلن الزيارة معها. وكانت تذهب للتسوق مع السيدة «ليلى» المصرية، التي تسكن مع زوجها في الطابق الأرضي من المنزل الذي نسكنه. وكان زوجها «إبراهيم طنطاوي» مبعوثاً من مصر للحصول على الدكتوراه في

الزراعة. وقد تزوجا حديثاً. وكنا نذهب معهما أحياناً في سيارتهما القديمة التي تتوقف كثيراً، ولذلك سموها «عزيزة».

أما بناتي، فقد كنت يدرسن في مدرسةWestgate Hill School القريبة من المنزل كما ذكرت سابقاً. ويذهبن إليها مشياً على الأقدام، ويقطعن شارعاً رئيسياً كثير الحركة. ولذلك يتولى شرطي خاص الإشراف على قطع التلاميذ هذا الشارع، ويحمل لافتة مكتوب عليها Stop، ويرفعها ساعة العبور، فتقف السيارات، وحتى يمكن للسائقين رؤيته، فقد كان يلبس سترة صفراء مطلية بمادة فسفورية. ويطلقون على هذا الشرطي Lolly Man، وتعني الرجل الذي يتولى التوقيف.

لم أجد صعوبة في إدخال بناتي بالمدرسة، كما كنت أظن، فقد اعتقدت بأن الأمر يتطلب أخذ موافقة مدير التعليم في المنطقة، كما كان عليه الحال في بلادنا آنذاك. ولما ذهبت إلى مدير التعليم لمنطقة نيوكاسل التعليمية، وقدمت له شهادات بناتي موقعة من مديرة المدرسة بالكويت، ومصدقة من وزارة التربية الكويتية، ووزارة الخارجية، والمجلس البريطاني، وعليها العديد من الاختام والطوابع، استغرب ذلك قائلاً بانه لا حاجة لها على الإطلاق. وطلب مني الذهاب إلى اقرب مدرسة لمنزلنا، لتسجيلهن وإدخالهن في الصفوف التي تناسب أعمارهن، إن كان في المدرسة متسع لهن، وإلا فيمكن قبولهن في مدرسة أخرى. وفي هذه الحالة تتكفل الحكومة بنفقات انتقالهن من البيت إلى المدرسة وبالعكس في المواصلات العامة. ومن حسن حظنا أنه تم قبولهن في المدرسة المذكورة سابقاً. وقد خصصت المدرسة لهن دروس تقوية في اللغة الإنجليزية حتى يستطعن مجاراة زملائهن في التعليم. وقد نشأت علاقة طيبة بين بناتي ومدرساتهن، وبخاصة بعد أن أثبتن تقدماً في التعليم، وانخرطنت في كثير من الفعاليات والمناشط الرياضية، وبخاصة الموسيقي، وأصبحن عضوات في الجمعية الموسيقية الغنائية في المدرسة. وكن يشعرن بالفرح والبهجة والسرور، حينما نصطحبهن في عطلات نهاية الأسبوع - وبخاصة في فصلي الربيع والشتاء إلى متنزه «ليزلي» Leslie الجميل القريب من منزلنا، فيستمتعن بمشاهدة الزهور الجميلة والأشجار الباسقة، والطيور المغردة، وكن يجلسن بجانب البحيرة، ومعهن الشباك، ويحاولن اصطياد الأسماك الصغيرة ووضعها في زجاجات مليئة بالمياه. وفي فصل الشتاء كن يخرجن، رغم البرد الشديد، وحينما يتساقط الثلج، فيلهون بقذف كرات الثلج على بعضهن البعض أو على رفاقهن في الشارع. ولذلك أحببن البقاء والعيش والاستقرار في بريطانيا وبخاصة بعد أن أصبحت لهن صديقات، وكن يبدين عدم الرغبة في العودة إلى البلاد العربية، وقد سررن

كثيراً عندما علمن، عن وجود فرصة لي للعمل في بريطانيا، فقد أبلغني، ذات يوم، البروفيسور «هاوس» بأن جامعة «سانت أندروز» في اسكتلندة، في حاجة إلى شخص مثلي متخصص في دراسات الشرق الأوسط، ليحل محل الدكتور «محمود الغول» الذي استقال من الجامعة، وفضل العودة إلى الشرق. وعلى الرغم من الشهرة التاريخية لهذه الجامعة، التي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى، إلا أنني لم أتحمس لهذا العرض، حينما علمت بأن الموقع كان نائياً، وفي منطقة جبلية شديدة البرودة شتاء، وفي الوقت نفسه، لم أكن راغباً في العيش والاستقرار في بريطانيا خشية من الجو الإباحي الذي لم أتقبله، فقد كنت أرى الشباب والشابات في الطرقات والحدائق العامة في أوضاع مشينة، أخجل من النظر إليها.

شهد عقد السبعينيات من القرن الماضي توسعاً كبيراً في التعليم الجامعي بكندا واستراليا وجاءت الكثير من الوفود الكندية إلى مدينة نيوكاسل تشجع الناس للهجرة إلى كندا، وتغري حملة الدكتوراة للعمل في جامعاتها. وقد استجاب لذلك عدد من زملائي وقبلوا العمل في تلك الجامعات حيث احتلوا مراكز جامعية مرموقة، ولما قمت بزيارة كندا مع الأسرة عام ١٩٨٠ لاموني لأني – حسب اعتقادهم – أضعت فرصة قبول العروض الكندية في عام ١٩٧٠.

من العروض التي رفضتها أيضاً العمل بإحدى الجامعات الأسترالية، رغم مقابلتي لمندوبهم في لندن، وكان سبب رفضي، أنني بعد خروجي من المقابلة، سرت في شارع قرب حديقة «هايد بارك» الشهيرة، وقد رأيت على مدخل إحدى البنايات في الشارع يافطة مكتوب عليها «المكتب الثقافي الكويتي» مما أثار انتباهي، ودعاني الفضول إلى دخول المكتب. وكانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، إذ وجدت في المكتب الدكتور «يعقوب الغنيم» الذي كان آنذاك وكيل وزارة التربية في الكويت، وتربطني به علاقة قوية منذ أن كان مديراً للتلفزيون الذي كانت لي فيه بعض المناشط، وبخاصة في برنامج «الإسلام والحياة» سابق الذكر.

رحب بي الدكتور يعقوب الغنيم، ولما علم عن المقابلة، أقنعني بالعودة إلى الكويت، وتعهد بأن يعيد لي مسكني الحكومي، وسيخصص لي مسكناً ممتازاً ومؤثثاً في مساكن الكلية الصناعية الأنيقة وسيعينني خبيراً في المناهج والمقررات المدرسية بوزارة التربية بصفة مؤقتة. وحينما يبدأ العام الجامعي الجديد، سيعمل على إلحاقي للعمل بالجامعة، ويسمح لي في أثناء عملي في وزارة التربية بإعطاء محاضرات في الجامعة.

لم يترك لي الدكتور «يعقوب الغنيم» مجالاً للتردد أو الرفض، فشكرته وقبلت عرضه،

واعتذرت فيما بعد عن عرض من مدير جامعة الرياض الدكتور «ناصر المنقور»، كنت قد تقدمت إليه بطلب سابق، وقد أبدى ترحيبه لأكون أستاذاً مساعداً بقسم الجغرافية بجامعة الرياض، وطلب مني التوجه للسفارة السعودية بلندن لإصدار تذاكر سفر لي و«لمن أعول شرعاً» للرياض.

ربما كان مما ينبغي ذكره ما أبداه أساتذتي معي من مرونة وحل كثير من العقبات التي يمكن أن تعترضني في أثناء الدراسة، فقد أبدوا إعجابهم بي، وتقديرهم لي، فقد كتب رئيس القسم البروفيسور «هاوس» والأستاذ المشرف الدكتور «وارن» تقارير سرية عني أرسلوها بناء على طلب من الجامعات التي تقدمت للعمل فيها، وقد وصلتني نسخاً منها بطريق الخطأ، ذلك أن جامعة الرياض حينما أرسلت لي رسالة بالقبول، قد وضعت بالخطأ ـ كما بدا لي ـ تقريري البروفيسور «هاوس» والدكتور «وارن».

قال البروفيسور «هاوس» عني في تقريري المؤرخ في ١٢ / ٢ / ١٩٧٠، أي قبل مناقشة الدكتوراة بنحو ثلاثة أشهر :

«عرفت المستر «الفرا» كطالب دراسات عليا منذ عام ١٩٦٦. لقد جاء من الكويت بسمعة طيبة، وإني أقدره غاية التقدير من حيث مزاياه الأكاديمية والشخصية. وإني أعده كواحد من أقدر الطلاب الذين قدموا إلينا من الشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٥. إنه يمتلك إتساع الرؤية المقرونة بملكة وقدرة نقدية مستقلة. ومن ناحية أخرى، فهو واسع الاطلاع، كثير القراءة، مثابر بشكل واضح في كل ما يقوم به. وفي أثناء اعداده لرسالة الماجستير عن الحدود الإدارية الإقليمية في شمال شرق إنجلترا، لاحظت أنه تمكن من التفهم العنيق للوضع البريطاني، وكان قادراً على تطبيق مبادىء واسس ما تعلمه بفاعلية. وإني أعرف عنه اهتمامه القوي بمشاكل الأقطار النامية، وهو حريص لتقديم مساهمات فعالة وعملية وذات طابع علمي، سواء في التعليم العالي أو في ميدان التخطيط في الشرق الأوسط. إنه رجل يستحق كل تشجيع، وأنا واثق أنه يمكنه تقديم الكثير مما لديه. وزيادة على ذلك، فهو شخص، يشعرك بالسعادة والسرور، وأنت تعمل معه، ولا شك أنه يملك موقفاً جيداً ومتوازناً للحياة ومشاكلها. وأنا على يقين أنه سيكون مستشاراً وناصحاً ومرشداً للطلبة، كما أنه سيكون مقبولاً جداً كعضو في أية لجنة عامة عليا أو فريق تخطيط».

أمّا الدكتور «وارن» فكتب تقريره المؤرخ في ٩ / ٢ / ١٩٧٠، والذي اقتطف منه ما يلي :

«من خلال إشرافي على المستر «الفرا» في الماجستير والدكتوراه تكونت لدي فكرة

كبيرة عنه، أكاديمياً وشخصياً. إنه ذو قراءة واسعة، مما مكنه من الاستمرار في بناء على ما عنده من بناء وخلفية أكاديمية ملفتة ومثيرة للإعجاب، تتميز أعماله بتصميم وإنجاز كبير، فقد استطاع، على سبيل المثال، تحقيق خلفية معرفية علمية كبيرة عن مشاكلنا الاقتصادية والاقليمية في فترة قصيرة جداً. على الرغم أنه حين قدومه إلى نيوكاسل لم يكن قد زار بريطانيا أبداً. إنني معجب بسعة رسالته وشموليتها والتي أنهاها.



صوره اخذت مع الاسره في حرم جامعة نيو ماسل بالمملكة المتحدة

يوم منحي درجة الدكتوراه

إن سلوكه وشخصيته تستحقان أعظم تقدير. لقد أبدى قدرة هائلة ومثابرة في مجابهة المشاكل التي تعرض لها. إنه لطيف، مؤدب، بهيج، ورفيق مقبول، وإني متأكد بأنه سيثبت بأن يكون زميلاً أكاديمياً ملتزماً ومتمكناً ومناسباً جداً».

انتهيت من إعداد رسالة الدكتوراة، قبل الموعد المقرر ببضعة شهور، ولذلك كان لا بد من عرض الأمر على مجلس الجامعة لإصدار قرار يسمح لي بالمناقشة المبكرة. وقد صدر القرار بفضل تزكية رئيس القسم والمشرف عليّ، وحضر الممتحن الخارجي البروفيسور «إدواردز» وتمت المناقشة، والحمد لله – بنجاح تام ودون إجراء أية تعديلات أو تغييرات على الرسالة، كما يحدث مع كثيرين أحياناً.

وكانت المناقشة في شهر آذار / مارس ١٩٧٠، ولحسن الحظ، كان موعد الاحتفال بمنح الدرجة في الشهر نفسه بحيث تمكنت من الحضور، وقام مدير الجامعة بمنحي الدكتوراه

حسب الأصول المتبعة، وقد حضرت الاحتفال زوجتي وبناتي. والتقطنا عددا من الصور التذكارية بهذه المناسبة.

بدأنا نستعد للعودة إلى الكويت، ولكن اضطررت للسفر إلى لندن وحدي قبل العودة، حيث التقيت مصادفة بالصديق والإذاعي المعروف «موسى الدجاني». بعد جولة في ميدان «بيكادلي»، عرض علي زيارة صديقه السفير الأردني «سعد جمعة» الذي كان رئيس وزراء الأردن في أثناء حرب الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وأنه يود أن أتعرف عليه، فهو سياسي كبير وأديب واسع الاطلاع، ومقرب جداً من الملك حسين.

رحب بنا دولة «سعد جمعة»، وطلب من مدير مكتبه بأن لا يسمح لأحد بالدخول عليه، وأن يعتذر لأي شخص يريد التحدث معه بالهاتف، وعرض علينا أن نتغدى معه، فشكرناه واعتذرنا له بسبب ارتباطات سابقة. ثم سألني عن مشاريعي بعد حصولي على الدكتوراه. فقلت له بأنني سأعود إلى الكويت. فقال : ولماذا لا تعمل في الأردن، فهي بلدك، وفي حاجة إليك وإلى أمثالك. وأخبرني أن الوضع في الأردن خطير. وقد كلف الملك السيد «أحمد طوقان» بتشكيل الوزارة، وكنا نود أن يقبل ابن عمك الدكتور «محمد الفرا» رئيس وفد الأردن بالأمم المتحدة وزارة الإعلام، فماذا لو قبلت أنت؟ فقلت له : أشكرك يا دولة الرئيس، ولكن ذلك سيسبب لي مشكلة في العائلة، فأرجو قبول عذري واعتذاري.

لقد كنت أدرك الوضع الخطير جداً في الأردن، والقابل للانفجار، وأنني لا أستطيع القيام بمسؤوليات منصب هام في مثل هذه الظروف الحرجة، مما قد يترتب عليه تحطيم مستقبلي.

تحدث السيد «سعد جمعة» بعد ذلك عن أوضاع المنطقة والأحداث الخطيرة التي كانت تشهدها الساحة الأردنية مثل خطف الطائرات، وتجاوزات الفصائل الفلسطينية غير المنضبطة، وأن الأيام القادمة ستشهد انفجار بركان يدمر الجميع.

ثم التفت نحوي وقال : إني سأعرض على سيدنا بأن تكون بمثابة ضابط ارتباط وهمزة وصل بين الحكومة الأردنية، وقادة الفصائل الفلسطينية الموجودين في الأردن، وفي مقدمتهم السيد/ ياسر عرفات الذي تعرفه يوم كنت طالباً بالقاهرة، ثم حينما عملت بالكويت. كما أن كثيراً من القادة الفلسطينيين أمثال السيد «صلاح خلف» يعرفونك وتعرفهم، وأعتقد أن بمنطقك الرزين، وحججك المنطقية وأسلوبك المقنع، قد تجنب البلد من مصيبة نحن في غنى عنها.

بدا لي أن دولة «سعد جمعة»، أعطاني من الصفات والمزايا التي آمل أن أكون مستحقاً

لها، واعتقدت أنه بالغ في تقديري، فأنا أعرف بنفسي وبقدراتي، وهي محدودة ومتواضعة، وإني سأكون عاجزاً عن تحمل مسؤوليات مهمة خطيرة كهذه في الوقت الذي كانت فيه الأحداث تتسارع، حتى أن زمام الأمور على وشك أن يفلت، إن لم يكن قد فلت بالفعل. وحدث ما توقعه «سعد جمعة» ممثلاً في أحداث أيلول / سبتمبر المؤسفة.

عدت إلى نيوكاسل، وطلبت من الأسرة الاستعداد للسفر إلى الكويت، وودعنا الأصدقاء والمعارف الذين غمرونا بكرمهم وصدق مشاعرهم النبيلة، وتمنوا لو بقينا معهم. وكان وقع الوداع على بناتي شديداً، لأنهن كن يفضلن البقاء في بريطانيا والعيش والاستقرار بها، ولا يردن مفارقة صديقاتهن ومدرساتهن اللواتي أحببنهن كثيراً، وظلت ذكراهن حية في نفوسهن، وظللن يتذكرن رجل الدين في الحي الذي كان يحضر لهن الحلويات ويناديهن بقوله : أيتها الزهراوات الجميلات.. اقتربن، واقبلن مني هذه الحلويات». ولم ينسين رجل المرور «لولي مان» الذي كان يمسك بأيديهم ليساعدهن على قطع الشارع، في ذهابهن إلى المدرسة وإيابهن إلى المنزل.

الكويت: تحولات وأحداث جسام

عدنا إلى الكويت في يوم من أيام شهر أيار/ مايو ١٩٧٠، وكان في استقبالنا جمع غفير من الأقارب، ونزلنا ضيوفاً في منزل عديلي السيد «محمد علي ياسين الرهونجي» الذي كان مراقباً مالياً بوزارة الأشغال العامة بالكويت. وبقينا في منزله شهراً معززين مكرمين، إلى أن تم تجهيز السكن الحكومي المؤثث في الكلية الصناعية، والذي وعدنا به – كما سبق القول – الدكتور يعقوب الغنيم وكيل وزارة التربية. وباشرت عملي فوراً خبيراً للمناهج والمقررات الدراسية بوزارة التربية. وفي الوقت نفسه، كنت ألقي محاضرات في جامعة الكويت عن أسس البحث العلمي وقواعده على طلبة الماجستير، بقسم الجغرافيا والذي كان رئيسه أستاذي بجامعة القاهرة الدكتور «محمد متولي موسى».

عملت في وزارة التربية بضعة أشهر، وفي بداية العام الجامعي ١٩٧١ عينت أستاذاً مساعداً بقسم الجغرافيا، بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت. وعلى الرغم من قصر المدة التي عملتها بوزارة التربية، إلا أنني كنت سعيداً مع زملائي في العمل والذين كان منهم السادة : موسى غوشة ووليد الداري وبسام العمر، ومصطفى النحاس. وقد تميز الأستاذ موسى غوشة بخفة دمه، وظرفه وطلاوة حديثه، ونكاته التي كان يرويها بأسلوبه الجذاب.

ربما كان مما لفت نظري ما حدث في الكويت من تغيرات، فلم تعد كما كانت حين تركتها في الستينيات. ففي عقدي الخمسينيات والستينيات – من القرن الماضي – بدأت الكويت ببناء قواعد بنيتها التحتية ووضع أسس نهضتها العمرانية والإنشائية، وإنشاء الكثير من المرافق والخدمات العامة، كما سبق ذكره في هذا الكتاب. ويبدو أن ذلك قد أوشك على الاكتمال في عقد السبعينيات، واقتصرت الجهود، بعد ذلك، على تطويرها تمشياً مع المستجدات، وحسب ما تتطلبه الزيادات السكانية في البلاد. وقد أدى ذلك إلى احتياج الكويت للاستعانة بخبرات عالمية مميزة، وكفاءة عالية. ففي عام ١٩٧٠ وقع الاختيار على شركة «بوكانن» البريطانية لعمل مخطط جديد للبلاد يعالج القضايا الملحة لمقومات البنية التحتية كالطرق والمرور والإسكان، والمرافق والخدمات والفعاليات الاقتصادية، والمشاكل الناجمة عن الزيادة السكانية مع الأخذ بعين الاعتبار إلى طبيعة التركيبة السكانية وخصائصها وتداعياتها.

شهد عام ١٩٧٠ أحداثاً جساماً في المنطقة العربية، لعل من أهمها ازدياد عمليات خطف الطائرات من قبل منظمات وفصائل فلسطينية، قيل بأن الهدف منها كان لفت انتباه العالم إلى القضية الفلسطينية، ومعاناة الشعب الفلسطيني، الناجمة عن احتلال وطنه، وطرده منه، وحرمانه من حقوقه فيه. وعلى الرغم من ترحيب الكثيرين بهذه العمليات في البداية، إلا أنني لم أكن مرتاحاً لها، وكنت أعتقد أنها ستلحق الضرر بالقضية، وقد تأكد ما توقعته للأسف.

في عام ١٩٧٠ زاد التوتر بين الحكومة الأردنية وبعض التنظيمات والفصائل الفلسطينية، وبخاصة غير المنضبطة منها، وقيامها بأعمال أساءت للمقاومة، وارتكابها تجاوزات غير مسموح بها، مما أدى إلى نتائج خطيرة، وحدوث صدام رهيب، كان من نتيجته إخراج المقاومة من الأردن. وقد أطلق على هذا الصدام بأحداث أيلول / سبتمبر المؤسفة، أو أيلول الأسود.

بسبب هذه الأحداث الخطيرة دعا الرئيس المصري «جمال عبد الناصر» إلى عقد مؤتمر قمة استثنائي في القاهرة. وفي اليوم الأخير من هذا المؤتمر – أي في الثامن والعشرين من شهر أيلول / سبتمبر – توفي «جمال عبد الناصر» بسكتة قلبية نجمت – كما قيل – عن ما تعرض له من إرهاق شديد طيلة مدة عقد المؤتمر. وكان قبل عقد المؤتمر يقضي بضعة أيام للراحة. ولا نبالغ إذا قلنا بأن وفاة «جمال عبد الناصر» كانت من أكثر الفواجع التي أصابت الوطن العربي، نظراً لتداعياتها الخطيرة التي يعرفها الجميع.

وقد شيع جثمانه في أضخم حشد جماهيري شهده الوطن العربي، إذ قيل أنه اشترك فيه نحو خمسة ملايين شخص، ومعظم رؤساء وملوك الدول العربية، ودول عدم الإنحياز، وقادة الاتحاد السوفياتي آنذاك.

قبل أحداث أيلول المؤسفة – أي بعد عودتي من بريطانيا مباشرة – زارني في المنزل السيد / علي الحسن الذي كان آنذاك المسؤول الإقلمي لفتح بمنطقة الخليج، ومعه عدد من الأعضاء، كان من بينهم السيد / عوني بطاش الذي كان مسؤولاً عن تنظيم العمال بمكتب منظمة التحرير الفلسطينية بالكويت، في فترة رئاسة الأستاذ / علي ياسين للمكتب، قبل اغتياله.

كان الهدف من الزيارة محاولة استقطابي، ودعوتي للانضمام لحركة فتح، وأطلعوني على طروحاتها وأهدافها، واستمر الحوار لبضعة أسابيع، ولم يفلحوا في اقناعي بطروحاتهم، وفضلت أن أكون صديقاً لهم، وبقيت ملتزماً بعدم الانخراط في أي تنظيم أو تشكيل سياسي، رغم كتاباتي السياسية في عدد من الصحف اليومية في

البلاد العربية. ربما كان من سلبيات الانضمام إلى التنظيمات السياسية، أنها تقيد الفرد وتلزمه بمواقف قد لا يكون مقتنعاً بها، أو غير راض عنها. وإنني افضل أن أكون حراً في آرائي وافكاري التي قد تتغير بحسب المستجدات والتطورات وتغير الأوضاع. وللأسف فمن المآخذ التي أخذتها على الأحزاب في التنظيمات السياسية في البلاد العربية هيمنة الرئيس ودكتاتوريته، والتصاقه بالمنافقين والمنتفعين من حوله أي «شلّته».

أنا أحترم علم السياسة مثل سائر العلوم التي لها قواعدها واسسها ومناهجها، ولكن ممارستها شيء مختلف، فمعظم السياسيين يغلب عليهم الكذب والخداع والتضليل والنفاق، ويتخذون من «ميكيافيلي» مؤلف كتاب «الأمير» - مثالاً لهم، وبخاصة مقولته الشهيرة: «الغاية تبرر الوسيلة»، والكل يعلم ما عانيناه من ساسة الدول الكبرى من ويلات ونكبات، مثل بريطانيا ووعودها للعرب في أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، والوعود الأميركية التي كانت تخفي نوايا خبيثة للعرب.

كانت حرب كانون الأول/ اكتوبر عام ١٩٧٣ من أبرز الأحداث وأهمها في عقد السبعينيات من القرن الماضي، لما لها من تداعيات على المنطقة العربية بعامة، وعلى القضية الفلسطينية بخاصة. لقد شعر العرب في بداية الحرب بالفرح والسرور حينما تمكن الجيش المصري من تحطيم خط «بارليف» الحصين على قناة السويس، والعبور إلى شبه جزيرة سيناء، ودخول الجيش السوري هضبة الجولان، واعتقد الجميع أن هذه الحرب جاءت لتغسل عار هزيمة ١٩٦٧. وبينما كانت الحرب مشتعلة نظمت جامعة الكويت ندوة مفتوحة للجمهور توضح سير المعارك في سيناء والجولان. وطلب مني آنذاك تسليط الأضواء على المواقع الاستراتيجية والحساسة في شبه جزيرة سيناء، وحركات سير المعارك، كما طُلب من الزميل الدكتور «عادل عبد السلام» - وهو سوري - أن يقوم بالدور نفسه في الجولان. وقد جذبت هذه الندوة جمهوراً كبيراً من الناس الذي كانوا متشوقين لمتابعة سير المعارك والتعرف على أسماء أماكن ومواقع في سيناء والجولان لم يكونوا قد سمعوا بها من قبل. وللأسف فإن الانتصارات التي تحققت في البداية أعقبتها نكسات، لأسباب يطول شرحها. وتبين في النهاية أن هذه الحرب، كما وصفها البعض، بأنها كانت حرب «تحريك» لا حرب «تحرير»، وانتهت بعقد اتفاقية صلح منفرد ومعاهدة سلام مع مصر، مما ترتب على ذلك خروج مصر، الدولة العربية الكبرى، من الصراع العربي - الإسرائيلي، وتصدع جدار الصمود العربي، وانقسام الصف القومي، وحدوث الكثير من التداعيات التي أوصلتنا إلى وضعنا الراهن.

بعد انتهاء الحرب مباشرة عقدت دول الأقطار المصدرة للنفط «أوبك» اجتماعاً في

الكويت، وقررت رفع سعر برميل النفط من نحو ثلاثة دولارات إلى اثني عشر دولاراً، مما أحدث ضجة كبري، فللمرة الأولى تتولى «أوبك» تسعير النفط الذي هو من مسؤوليات الشركات النفطية. وقد أبدت الدول المستهلكة للنفط تذمراً لقرار «أوبك»، وقام وزير الخارجية الأميركية آنذاك «هنري كيسنجر» بإنشاء منظمة للأقطار المستهلكة، من أجل التصدي لمنظمة «أوبك»، وهذا موضوع كبير لا نود الدخول فيه، ولكن كل ما يهمنا أن ارتفاع أسعار النفط بما يعادل أربعة أضعاف ما كان عليه قبل القرار أدى إلى زيادة العائدات النفطية للأقطار المنتجة بشكل كبير بحيث مكنها من الإنفاق على المشاريع التنموية والخطط الاجتماعية والاقتصادية، وتطوير البنية التحتية، مما استدعى التعاقد مع كفاءات بشرية متخصصة غير متوفرة محلياً. وقد شهدت هذه الفترة طفرة اقتصادية وعمرانية وإنشائية تمثلت في إنشاء المناطق الصناعية، وبخاصة منطقة الشعيبة الصناعية، التي بديء بتنفيذها في الستينيات. وفي هذه المنطقة أنشئت الكثير من الصناعات، والتي من أهمها مصفاة النفط، والصناعات البتروكيماوية والأسمدة الكيماوية.

استمرت هذه الطفرة الاقتصادة حتى الثمانينيات، وقد بدأ منحنى الهبوط في عام ١٩٨٢ لأسباب لعل من أهمها اشتعال الحرب العراقية الإيرانية التي ولدت قلقاً انعكس على اقتصاد الكويت، وهروب رؤوس الأموال إلى خارج البلاد. ولا شك في أن انهيار سوق الأسهم في الكويت، والذي سُمي آنذاك بأزمة المناخ، نتيجة المضاربات الوهمية كانت لها تداعياتها السلبية على اقتصاد الكويت، وبخاصة إذا علمنا بأن حجم الخسارة بلغ نحو ٢٦ بليون دينار كويتي، وهو مبلغ ضخم جداً آنذاك. وقد تسببت أزمة المناخ في إفلاس كثير من الشركات أو انهيارها وتضعضع أوضاعها وانكماش فعالياتها، مما استدعى إلى الاستغناء عن عدد كبير من الموظفين والعاملين في القطاع الخاص، ومعظمهم من الفلسطينيين الذين كان هذا القطاع يعتمد عليهم بشكل رئيسي وأساسي.

ولعل مما زاد من عملية الاستغناء عن عدد كثير من العمالة الوافدة في الكويت، وبخاصة الفلسطينيين الذين كانوا يشكلون أكبر جالية فيها، استكمال بناء القسم الأكبر من البنية التحتية، والانتهاء من تنفيذ المشاريع الكبرى الاقتصادية والعمرانية والإنشائية. وفي الوقت نفسه زاد عدد الخريجين الكويتيين من المدارس والمعاهد والجامعات في كثير من التخصصات، مما قلل من اعتماد الكويت علي العمالة الوافدة، والاستغناء عنها في عدد من المهن والوظائف، وبخاصة الإدارية التي كان يشغلها الوافدون، وأصبح تكويت الوظائف مطلباً كويتياً وسياسة وطنية، قد لا نعترض عليها، ولكن تنفيذها طُبق بطريقة قاسية في حالات كثيرة، وتركت آثارها النفسية

على كثيرين وبخاصة أولئك الذين أصبحوا فجأة تحت إمرة رئيس كويتي كان يعمل تحت إمرتهم في السابق، أو قاموا بتدريبه على أساسيات العمل. فلما أصبح رئيساً صار يعاملهم باستعلاء وبقسوة أحياناً. وقد أدت سياسة التكويت في بعض الحالات إلى إنهاء خدمات الموظفين، وشطب إقاماتهم، والطلب منهم مغادرة البلاد، فحز في نفوسهم، وشعروا بالألم والمرارة والإحباط، لأنهم لم يتوقعوا ذلك، ولم يدر بخلدهم أن يكون جزاؤهم كجزاء «سنمار»، فقد أعطوا الكويت زهرة شبابهم، وأخلصوا في أعمالهم، وعدوا الكويت وطنهم، وكان من حقهم أن يحصلوا على الجنسية الكويتية، وقارنوا أوضاعهم بأوضاع ذويهم وأقاربهم وأصدقائهم الذين هاجروا إلى أميركا وأوروبا حيث حصلوا على الجنسية في بضع سنين، وأصبحوا مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات، شأنهم في هذا شأن مواطني تلك البلاد.

وقد طبقت سياسة التكويت في مجالات عدة، وبخاصة في التعليم، فلم يعد مسموحاً للطلاب غير الكويتيين بالدخول في المدارس الحكومية، فيما عدا أبناء المدرسين، واستثناءات خاصة لأبناء الأطباء وعدد من المهندسين. وتلا ذلك تضييق نطاق الخدمات الطبية، بعد أن كانت مع التعليم مفتوحة لجميع من يعيش على أرض الكويت. وكان لا بد للوافدين من إدخال أبنائهم في مدارس خاصة مملوكة للكويتيين، وتدار على أساس تجاري، مما أوجد ما يسمى بظاهرة المدارس الخاصة. ويبدو أن الأرباح التي حققتها هذه المدارس، دفع بعض المستثمرين الكويتيين إلى إنشاء مستشفيات خاصة، تدار على أساس تجاري أيضاً.

لا شك في أن حرمان أبناء الوافدين من الخدمات التعليمية، وتضييق نطاق الخدمات الطبية، أثر كثيراً في نفوسهم، وشعروا بالغبن والظلم، لاعتقادهم بأن لهم الحق في هذه الخدمات ما داموا يعملون في البلاد، ويساهمون مع إخوانهم الكويتيين في بناء الكويت ونهضتها وتطويرها، كما هو الحال في جميع الأقطار المتقدمة حيث ينعم الجميع – سواء كانوا مواطنين أو وافدين – بالحقوق الكاملة، ما داموا يؤدون كافة المسؤوليات نحو البلد الذي يعيشون فيه، ويعملون به.

ولعل مما زاد من الشعور بالمرارة عند الوافدين، قدرة الكويت على تقديم الخدمات للجميع، فهي دولة غنية، وأن النظرة البعيدة المدى والمصلحة الوطنية والقومية تقتضي من المسؤولين الكويتيين تقديم أقصى ما يمكن تقديمه لإخوانهم من أبناء العروبة الذين عدوا الكويت وطناً لهم، وأحبوها، وأحبوا أهلها.

ربما كان من الأخطاء التي ارتكبتها الكويت، ولا تزال ترتكبها دول خليجية، أنها لم

تفكر في استثمار ما تجمع على أرضها من خبرات عربية، وبعضها ذات كفاءات عالية ونادرة، ولم تكلفها شيئاً. كان أجدى بالكويت وأنفع لو جنست هذه الكفاءات، وأغرتها على البقاء في البلاد. لو فتحت الكويت والأقطار الخليجية باب التجنيس لهذه الخبرات لحافظت على عروبتها، وحمت البلاد من أخطار قد تتعرض لها في المستقبل، ولتمكنت من حل مسألة التركيبة السكانية التي باتت تقلقها وتؤرقها، وتفكر في حلها بطريقة خاطئة ألحقت الضرر بالبلاد.

لقد بدأت مسألة التركيبة السكانية بالظهور في النصف الثاني من عقد السبعينيات من القرن الماضي، ولكنها برزت بشكل واضح في الثمانينيات، وهي ناجمة عن شعور الكويتيين بأنهم أقلية في بلدهم، وتفوّق أعداد غير الكويتيين عليهم، والذين يُطلق عليهم «وافدون» ففي الإحصاء السكاني لعام ١٩٨٥ كانت نسبة الكويتيين ٤٠٫٨٪ فقط من مجمل السكان، وشكّل غير الكويتيين ٥٩٫٢٪. ويبدو أن نسبة الكويتيين انخفضت فيما بعد لتصل إلى نحو ٢٩٪ بعد استثناء فئة «بدون جنسية»، وغالبيتهم من البدو، وكانوا يحسبون في الإحصاءات السابقة – أي إحصاء ١٩٨٥ وما قبله – مع الكويتيين، حيث شكلوا نحو ٩٪ من السكان. وقد كشفت دراسة قام بها الدكتور «خلدون النقيب»، قدمها في ندوة : «الكويت وتحديات مرحلة إعادة البناء»، وعقدت في القاهرة في ٦–١١ أيار/ مايو ١٩٩١، بأن نسبة الكويتيين انخفضت في ١/٨/١٩٩٠ – أي عشية الغزو العراقي إلى ٢٨٫٨٪ فقط[1]. لقد اعتمد الدكتور «خلدون النقيب» في ذلك على معطيات دراسية غير منشورة لشخصية اقتصادية كويتية معروفة هو الأستاذ «جاسم السعدون»، قدرت عدد سكان الكويت، قبل الغزو العراقي بنحو ٢٫١٢ مليون نسمة، وكانت تركيبتهم على النحو التالي :[2]

كويتيون	٦٠٠,٠٠٠ أي ٢٧٪ من جملة السكان.
فلسطينيون وأردنيون	٣٠٠,٠٠٠ أي ١٤٪ من جملة السكان.
بدون جنسية	٢٠٠,٠٠٠ أي ٩٪ من جملة السكان.
مصريون	١٩٠,٠٠٠ أي ٨,٧٪ من جملة السكان.
شبه القارة الهندية	٣٧٥,٠٠٠ أي ١٧٪ من جملة السكان.
إيرانيون	٥٠,٠٠٠ أي ٢,٣٪ من جملة السكان.
فلبينيون	٤٠,٠٠٠ أي ١,٨٪ من جملة السكان.
آخرون	٣٦٥,٠٠٠ أي ١٦,٧٪ من جملة السكان.

يبدو أن مسألة التركيبة السكانية تحولت إلى مشكلة تزعج الكويتيين وتؤرقهم - كما سبق القول - ولعل مما ساعد على التحذير منها وسائل الإعلام التي أساءت تناولها ومعالجتها، فبدلاً من أن تطرح الحلول العملية والواقعية، كتجنيس العرب، الذين بلغت نسبتهم في دراسة «جاسم السعدون» نحو ٣٢٪ من جملة السكان، وبخاصة أصحاب الخبرات والكفاءات الذين خدموا الكويت، صارت تثير الهلع في قلوب الكويتيين، والخوف على مستقبل البلاد، وما قد ينجم عن ذلك من تداعيات أمنية ووطنية.

اعتقد أنه ليس هناك ما يبرر الخشية من أعداد العرب، فهم أكثر الناس حرصاً على عروبة الكويت، وهم أكثر من غير العرب تجانساً مع الكويتيين من حيث اللغة والدين والعادات والتقاليد، والانتماء إلى قومية واحدة هي العروبة، إلا أن الذي كان على الكويتيين التوجس منه زيادة أعداد غير العرب، حيث بلغت نسبتهم نحو٣٩٪ من جملة سكان الكويت، وربما كان الملفت للنظر ارتفاع نسبة القادمين من شبه القارة الهندية إلى ١٧٪. وإذا كانت هذه النسبة دون نسبتهم في بعض أقطار الخليج العربية، إلا أنها عالية، وتدعو إلى القلق أو عدم الارتياح على المدى البعيد، وبخاصة إذا علمنا بأن منطقة الخليج العربي كانت تابعة للهند حينما كانت الهند خاضعة للاستعمار البريطاني، وقبل أن تستقل في عام ١٩٤٧.

قامت الحكومة بعدة إجراءات لمعالجة مسألة التركيبة السكانية، عدها الوافدون قاسية وظالمة بحقهم، منها عدم السماح لأي موظف بإحضار عائلته إلى الكويت إذا كان راتبه يقل عن ستمائة دينار شهرياً، وهو راتب مرتفع جداً آنذاك، ولا يحصل عليه إلا موظف الدرجة الأولي. وعدم منح تصريح عمل لأي شخص من خارج البلاد إلا بموافقة وزير الشؤون الاجتماعية والعمل للأردنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين، أما حملة الوثائق الفلسطينية فقد منع دخولهم للبلاد بشكل مطلق منذ عام ١٩٧٧، خشية من تعرض الكويت لضغوط من الخارج لأجل توطينهم في البلاد، بعد أن تسربت أنباء عن خطة أميركية لتوطين الفلسطينيين في منطقة الخليج.

ومن الإجراءات الأخرى، عدم السماح لمن يبلغون سن الحادية والعشرين من الطلاب الذين يدرسون في الخارج، بالعودة والإقامة في الكويت، وعدم السماح لمن ينتهي عمله في الحكومة بالانتقال إلى القطاع الخاص، إلا بعد مغادرة البلاد والحصول على تصريح عمل جديد، وكذلك شطب إقامة كل من يتغيب عن البلاد ستة أشهر، وهدم المساكن في المناطق الشعبية التي كان يسكن فيها كثير من الوافدين بسبب الرخص النسبي لايجاراتها، مما جعل ذوي الدخول المنخفضة منهم يرسلون أسرهم إلى بلادهم الأصلية،

وهذا ما كانت تهدف إليه الحكومة من إجراءاتها التي نفذتها.

لا شك في أن هذه الإجراءات وغيرها التي قامت بها الحكومة، جعلت الوافدين يشعرون بالتمييز في المعاملة، وأنهم أصبحو غير مرغوب في بقائهم في البلاد بعد أن استنفذت حاجتها منهم. وقد تزايد هذا الشعور ليصبح استياءً، وحنقاً على الحكومة التي قامت بهذه الإجراءات، وهذا كان من أسباب موقف بعض الوافدين من الغزو العراقي للكويت في آب / أغسطس ١٩٩٠، وهو موقف أغضب الكويتيين وأثار نقمتهم عليهم.

إن ما ذكرنا من سلبيات أو مآخذ على الإجراءات السابقة لا يعني تجاهل الكثير من إيجابيات الكويت بالنسبة للوافدين العرب الذين عاشوا فيها وتمكنوا من النهوض بمستواهم، وتعليم أبنائهم، وتحويل مبالغ كبيرة لذويهم في أوطانهم مما ساهم في إنعاش اقتصاد بلدانهم. كما قدمت الكويت الكثير من التبرعات والمنح والمساعدات والقروض الميسرة للأقطار العربية.

وبالنسبة للقضية الفلسطينية، فقد سمحت الكويت بحرية العمل الوطني الفلسطيني ممثلاً في الفصائل والاتحادات والمؤسسات والجمعيات. وتبنت الصحافة الكويتية القضية الفلسطينية. ولم تمانع في إقامة الصناديق الخيرية التي أنشأها أبناء المدن والقرى الفلسطينية، وشجعت على إقامة جمعيات التراث التي تولت بعث التراث الفلسطيني وإحيائه، والتي كانت تمولها الصناديق الخيرية، مثل صندوق القدس، وصندوق يافا، وصندوق بيت ساحور، والتي أقامت حفلات تراثية خيرية شارك فيه الكويتيون إخوانهم الفلسطينيين.

ولا ننسى أيضاً لجان الزكاة التي أنشئت في الكويت، وتبرع لها الكويتيون بسخاء. وكانت هذه اللجان تقدم المساعدات الكثيرة للفلسطينيين في الأراضي المحتلة، وفي مخيمات اللاجئين في الأردن ولبنان، وتنفق على المشاريع الخيرية التي تعود بالفائدة على الفلسطينيين، وكذلك الدعم الرسمي والشعبي للمؤسسات والمعاهد والجامعات الفلسطينية في الأراضي الفلسطينية المحتلة. وقد تجلى الدعم الكويتي – مادياً ومعنوياً – في أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي اندلعت في التاسع من كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧.

التحقت في بداية العام الجامعي ١٩٧١ بجامعة الكويت – كما ذكرت سابقاً – وكنت سعيداً جداً في عملي، وفخوراً بزملائي في الجامعة، فقد حرص مديرها منذ إنشائها الأستاذ الدكتور «عبد الفتاح اسماعيل»، رحمه الله، على استقطاب أفضل الكفاءات الجامعية في الوطن العربي، حيث أصبحت جامعة الكويت تضم خيرة الأساتذة الجامعيين

في البلاد العربية، ففي كلية الآداب – على سبيل المثال – عمل أساتذة ومفكرون وعلماء كبار أمثال الدكتور زكي نجيب محمود عالم المنطق المعروف، والفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوي، والدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية. وفي قسم اللغة العربية عمل كل من الدكتور شوقي ضيف، وهو لغوي وناقد معروف، والمحقق التراثي الشهير الأستاذ «عبد السلام هارون». وفي قسم التاريخ عمل كوكبة من المؤرخين أمثال الدكتور عواد حسين والدكتور حسين مؤنس والدكتور شاكر مصطفى. وفي قسم علم النفس عمل أساتذة كبار أمثال الدكتور عثمان نجاتي والدكتور عطية هنا. وفي قسم الجغرافية، رأس أستاذنا الدكتور محمد متولي موسى القسم. ومن الذين زاملتهم الدكاترة: حسن طه النجم، ومحمد رشيد الفيل، فؤاد الصقار، وعلي البنا، ومحمود أبو العلا، وزين الدين عبد المقصود، وصلاح بحيري فيما بعد.

والشيء نفسه يقال عن أقسام وكليات الجامعة التي عمل فيها آنذاك علماء وأساتذة كبار، كل في مجال تخصصه، وكان هؤلاء الأساتذة يحظون بالاحترام والتقدير في جميع أنحاء الوطن العربي، وقد سبقتهم سمعتهم إلى الكويت، وأعطوا للجامعة المكانة التي تستحقها. وكان المجتمع الكويتي ينظر إلى الأستاذ الجامعي نظرة احترام وتقدير وإكبار، وكنت ألمس هذا حين الذهاب للدوائر الرسمية لإنجاز معاملاتي الخاصة، أو أتصل بالناس من خلال تعاملي معهم.

من المواد التعليمية التي درّستها، وكنت أشعر بالسعادة في تدريسها مادة «طرق البحث الجغرافي»، وكنت أول من تولى تدريسها بجامعة الكويت، والتي سبقت معظم الجامعات العربية آنذاك، في تدريس هذه المادة، في مرحلة البكالوريوس. وفي أثناء التدريس تبين لي جهل الطلبة بمفهوم البحث العلمي وأسسه وقواعده ومناهجه. وكان الطلبة حينما يكلفون بأبحاث من أساتذتهم يقومون، بنقلٍ أو نسخ، ما يقع تحت أيديهم من مقالات وكتب ونشرات، فتصبح كتاباتهم خليطاً غير متجانس من المعلومات والبيانات، وأبعد ما يكون عن البحث العلمي، وقد رأيت أن الطلبة في أمس الحاجة إلى كتاب علمي يوجههم إلى كيفية القيام ببحوث علمية في الجغرافية، فألفت في عام ١٩٧١ كتاباً بعنوان: «مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية». وكان أول كتاب في هذا الموضوع يصدر في الوطن العربي، ولذلك لاقى قبولاً لم أكن أتوقعه، وطبع عدة طبعات، وتلقيت دعوات من مؤتمرات وندوات علمية لإلقاء محاضرات في أسس البحث العلمي، وأصبحت من الرواد الجغرافيين الذين ساهموا في وضع قواعد البحث الجغرافي ومرتكزاته.

كانت لي أنشطة وفعاليات خارج الجامعة، منها إلقاء المحاضرات العامة في الجمعيات والمؤسسات الاجتماعية، والاشتراك في ندوات عامة، وإلقاء أحاديث في الإذاعة، والاشتراك في برامج تلفزيونية، والكتابة في الصحافة، فقد كان بعض مراسلي صحف : الوطن، والرأي العام، والقبس، والسياسة، يزورونني بالمنزل، ويجرون معي مقابلات حول قضايا سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية ساخنة. وكان الأستاذ «غازي جرادة» رحمه الله، من الذين زاروني آنذاك، وقال بأن جريدة «القبس» التي يعمل فيها قررت الكتابة عن كبار الأدباء والعلماء والمفكرين العرب، على شكل مسلسل يحمل عنوان «جيل العمالقة». وأن الجريدة اختارتني من بين تلاميذ هؤلاء العمالقة أو الذين يعرفون الكثير عنهم مثل الدكتور «طه حسين» والأستاذ «عباس محمود العقاد» و«محمود تيمور» و«ابراهيم عبد القادر المازني» والدكتور «مصطفى مشرفة» وغيرهم. وقد زودت الجريدة بمعلومات عدوها قيمة جداً، لفتت انتباه رئيس التحرير آنذاك الأستاذ «رؤوف شحوري»، وكان لبنانياً وصحفياً مميزاً، عمل على النهوض بالجريدة والارتقاء بها حتى أصبحت في مقدمة الصحف اليومية، لا في الكويت وحدها، وإنما في الوطن العربي.

عرض عليّ الأستاذ «رؤوف شحوري» كتابة مقال أسبوعي في الجريدة، لقاء مكافأة مالية مناسبة، فوافقت، وصرت أكتب في قضايا ساخنة، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفكرية. وفي أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولي التي اندلعت في شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧، واظبت على كتابة مقال يومي عن «ثورات فلسطين»، أتناول فيها جهاد عرب فلسطين وكفاحهم ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية. وقد بلغ عدد هذه المقالات المسلسلة إحدى وسبعين مقالاً، بديء بنشرها في ١٩ / ١ / ١٩٨٨، وانتهت في ١٥ / ٤ / ١٩٨٨. وكانت بعض الصحف والمجلات في الخارج، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية، تعيد نشرها، لأنها احتوت على معلومات قيمة عن القضية الفلسطينية، وتبرز كفاح الشعب الفلسطيني ونضاله في مواجهة الاستعمار البريطاني والهجمة الصهيونية، الرامية إلى تهويد فلسطين العربية. وقد اقترح عليّ عدد من الأصدقاء طبع هذه المقالات في كتاب يمكن الاستفادة منه بدلاً من ضياعها. وقد شرعت بالفعل من أجل تنفيذ هذا الاقتراح، فأصبح الكتاب معداً للنشر، إلا أن ظروفاً حالت دون نشره، ولا زلت أحتفظ بمخطوطة الكتاب.

لعل من الأنشطة العلمية التي أعتز بها كتاباتي في مجلة «العربي» التي – كما قلت سابقاً – أن مؤسسها ورئيس تحريرها العلامة الدكتور «أحمد زكي»، والذي بفضله

أصبحت المجلة الثقافية الأولى في الوطن العربي بلا منازع. وقد بدأت علاقتي بالمجلة حينما طلب مني الصديق الأستاذ «يوسف زعبلاوي»، المحرر بالمجلة، عرض كتاب «إسرائيل والعرب» باللغة الإنجليزية، للكاتب اليهودي الفرنسي المعروف «مكسيم رودنسون». وقد نشر عرض للكتاب في عدد شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٧١، ونال إعجاب الدكتور «أحمد زكي»، فصار يحول لي كتباً لعرضها، بعد أن كان عرض الكتب مقصوراً على الدكتور «محمود السمرا» الذي كان مساعداً له، قبل أن يترك الكويت ويعمل بالجامعة الأردنية.

نشرت العديد من المقالات في مجلة العربي، وربما كان من المقالات التي كانت لها صدى ونتائج مقال عن قطاع غزة، عنوانه «غزة قلعة الصمود الفلسطيني ورمز النضال العربي». وقد كتبته على شكل استطلاع بعد زيارتي للقطاع في أواخر عام ١٩٧٢، ونشر في عدد شباط/ فبراير ١٩٧٣، فسر به سكان القطاع، ونفدت أعداد العربي من السوق. وكان رد السلطات الإسرائيلية، وضع الكثير من العقبات والعراقيل لمنع صدور «لم شمل» كنت قد تقدمت بطلبه، ووضع إسمي تحت المراقبة، وسؤل القادمين من الكويت عني، وعن أنشطتي.

من المقالات التي لاقت الاستحسان، تلك التي أتوقع فيها صورة عالم الغد وحياة الإنسان في المستقبل، وشكل مدن الغد، واستيطان البحار والفضاء، ومستقبل الصحراء كمصدر للطاقة الشمسية، وكيفية نقلها عبر أمواج كهرومغناطيسية. وجميعها مواضيع تدخل في ميدان الخيال العلمي. وقد فوجئت بأن بعض الإذاعات العربية، من بينها إذاعة القاهرة، كانت تقتبس في برامجها العلمية، مقتطفات من مقالاتي مع ذكر إسمي، كما وجدت بعض توقعاتي منشورة على ورق التقويم الأردني.

كنت أشعر بالسعادة في لقاءاتي المتكررة بالدكتور «أحمد زكي» وحديثي معه. وكنت إذا تأخرت عنه يسأل عني، ويطلب مني الحضور، وكثيراً ما كنت أرافقه في زياراته وأمسياته. وبقيت على تواصلي معه حتى أواخر أيامه. قدمني يوماً إلى بعض أصدقائه الذين زاروه في مكتبه، فلما ذكر لهم إسمي قالوا نعرفه من كتاباته، ولكننا نظن أنه شيخ يدب على عصا. فقلت لهم لا زلت شاباً أدب على قدمي والحمد لله.

حينما صدر كتاب باللغة الإنجليزية «نظرة فاحصة على حرب الشرق الأوسط ١٩٧٣» لمجموعة من الصحفيين العالميين، تناولوا فيه حرب عام ١٩٧٣. طلب مني الدكتور أحمد زكي، أن أتولى تقديم الكتاب وعرضه. وقد نشر في عدد تموز/ يوليو ١٩٧٤. ويبدو أن التقديم والعرض أعجبا الدكتور «أحمد زكي»، فقد أخبرني مدير مكتبه

الأستاذ «عبد الحفيظ يونس» رحمه الله، أن الدكتور «أحمد زكي» سأله عن أعلى مكافأة تمنح للكاتب في المجلة، فذكر له بأنها تعطى للكاتب المشهور الأستاذ «عباس محمود العقاد»، فقال : لتكن مكافأة الدكتور «محمد الفرا» عن هذا العرض والتقديم مساوية لمكافأة «العقاد».

دخلت على الدكتور «أحمد زكي» قبل وفاته ببضعة أسابيع فوجدته مكتئباً ينظر إلى صور لعدد من أترابه الراحلين وضعهم أمامه على مكتبه مثل الدكتور «طه حسين» والدكتور «عبد الرزاق السنهوري» الفقيه الدستوري المعروف. سألني يومها عن السعادة فعرّفتها كما أعرفها بأنها اللحظة التي يشعر فيها الإنسان بالرضا والابتهاج، وبخاصة إذا نجح في تحقيق هدف كان يسعى إليه. فقال : السعادة وهم من الأوهام التي لا وجود لها. فقلت له : ما لي أراك اليوم متشائماً، وقد عهدتك على الدوام متفائلاً؟. ولماذا أراك اليوم تطيل النظر في صور رفاق رحلوا؟. فقال : أنني أشعر بنهاية المسيرة.. لقد سبقني الرفاق، وبهم سألحق. فقلت ولكنهم خالدون بما خلفوا من أعمال وإنجازات. فقال : وما ينفعهم هذا؟. وهل يشعرون بعد موتهم بهذا الخلود؟.. إن الخلود، وهَمْ آخر من الأوهام.

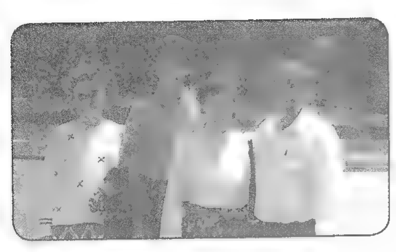
لم يمض وقت طويل على هذا اللقاء، فقد مرض الدكتور «أحمد زكي»، ونقل إلى القاهرة للعلاج، وتوفي في عام ١٩٧٥، فحزنت عليه، ورثيته بمقال مؤثر قلت فيه : مات أحمد زكي.. عالم الأدباء، وأديب العلماء.. لقد أدّب العلم، وعَلْمَنَ الأدب، تميز بأسلوبه السهل الممتنع في كتبه التي منها : «مع الله في السماء» و«سَلَطَة علمية»، وفي مقالاته العلمية التي نشرها في مجلة العربي مثل : «وحدة الله تتراءى في خلقه» و«في سبيل موسوعة علمية».

كان الدكتور «أحمد زكي» واحداً من العلماء الموسوعيين، ومن جيل «العمالقة». وكان له أسلوب مميز يعرف به، امتلك القدرة على تبسيط اعقد المواضيع العلمية، بحيث يفهمها البسطاء من الناس.

امتنعت عن الذهاب إلى مجلة العربي، بعد وفاة «أحمد زكي»، إلى أن اتصل بي خليفته الأستاذ «أحمد بهاء الدين» رحمه الله، وكان صحفياً لامعاً ومعروفاً، ورأس تحرير مجلة صباح الخير المصرية، التي كانت تصدر عن دار «روز اليوسف».

طلب مني الأستاذ «أحمد بهاء الدين» التعاون معه بمواصلة الكتابة، وعرفني على مدير التحرير آنذاك الأستاذ «فهمي هويدي»، المفكر الإسلامي حالياً، فوافقت، وكتبت عدداً من المقالات، وتوطدت علاقتي بأسرة تحرير المجلة وبخاصة الأستاذ «منير نصيف»

والأستاذ «محمد خليفة التونسي»، الذي انضم للمجلة فيما بعد، وكان من تلاميذ الأستاذ «عباس محمود العقاد» البارزين، ومن أكثر المتحمسين له، والمدافعين عنه، والمتأثرين بأفكاره وآرائه وطروحاته الفكرية والثقافية.



امام مستشفى سانت ماري في مايو كلينك ويبدو في الصوره من اليمين اخي سعيد ثم زوجتي وابني نزار وابنتي امل

إذا كان لا بد من التحدث قليلاً عن الأسرة، والأحداث السارة، فقد كانت سعادتنا كبيرة، حينما رزقنا الله، في اليوم الأول من شهر أيار/ مايو ١٩٧٤، بأول مولود ذكر، أسميته على اسم صديق الطفولة، نزار كيلاني. وكان فرح شقيقاته بمقدمه لا يوصف، وكن يتنازعن على حمله والاحتفاء به. ولا زلن يحتفين به، فهو شقيقهن الوحيد، الذي جاء بعد طول انتظار.

كان جميع أفراد الأسرة يشعرون بالراحة والسعادة في الكويت، فقد عدوا الكويت بمثابة وطنهم، فاخلصوا لها المحبة والوفاء. وكان الدخل - والحمد لله - جيداً، فقمنا برحلات وزيارات لكثير من الأقطار العربية والأوروبية والأميركية والآسيوية. وتجمعت لدى أفراد الأسرة ثقافة واسعة، وحصيلة كبيرة عن طبيعة هذه الأقطار، وحياة شعوبها. وقد سجلت هذه الزيارات على قرص مدمج، وأهديت بناتي نسخة منه لتحتفظ به للذكرى، وكذلك شريطاً سجّلت فيه أناشيدهن وأغانيهن، في طفولتهن.

دعيت في عام ١٩٧٧ إلى اجتماع دعا إليه عدد من الأردنيين العاملين في الكويت، لتأسيس شركة استثمارية في الأردن يساهم فيها المغتربون الأردنيون برأس مال قدره ستمائة ألف دينار أردني. ولما طرحت الأسهم في الصحف للاكتتاب غطيت عدة مرات، فاضطررنا إلى رفع رأس مالها إلى مليوني دينار. وكان هذا المبلغ آنذاك كبيراً جداً. واستغرقت عملية التسجيل أكثر من عام. وفي أثناء ذلك بدأ الصراع للسيطرة على الشركة لتحقيق أهداف خاصة ومصالح فردية. ولما ساهمت في الشركة لم أكن أرغب في أن أكون عضواً بمجلس إدارتها، وإنما كنت أريد أن أظل مستثمراً فقط. ولكن حينما تبين لي وجود انحرافات في الأهداف، ورغبة بعض الأشخاص في الحصول على مكاسب لهم، انبريت للتصدي لهم، وشكلت نواة لهذا الأمر مكونة مني ومن



– صورة عائلية أخذت في اليوم التاسع لمولد نزار، وأبدو فيها حاملاً نزار، وأمامي إبنتي أمل، وعن يميني زوجتي وابنتي غداء وعن يساري ابنتي نرمين، ثم المربية ثريا ابو قنيص

الأستاذ زهير الكرمي، الذي عمل بعد تقاعده من وزارة التربية، مديراً عاماً لمصنع الأكسجين بالكويت، والسيد زياد زعيتر رحمه الله، الذي كان قد عمل مدير مكتب ولي العهد الأمير سعد العبد الله السالم الصباح. وانضم إلينا فيما بعد عدد كبير من المساهمين، وتمكنا من أخذ الزمام، وتشكل أول مجلس لإدارة الشركة التي أسميناها «شركة الإنماء والاستثمارات العربية المساهمة المحدودة». واختير معالي الأستاذ/ محمد نزال العرموطي رئيساً لمجلس الإدارة، وانتخبت نائباً للرئيس. أما الأعضاء فكانوا: الفريق «مشهور حديثة الجازي» رئيس أركان الجيش الأردني سابقاً، ومعالي الدكتور شاكر مصطفى، الوزير السوري السابق، وأستاذ التاريخ بجامعة الكويت، والسادة: داود القطب نائب مدير عام شركة الملاحة في الكويت، والدكتور حافظ الزيات بوزارة الكهرباء الكويتية، وفؤاد المصري، مدير إحدى الشركات الكويتية، ورجل الأعمال أكرم زيتون، وزهير الكرمي، وزياد زعيتر.

باشرت الشركة باكورة أعمالها بشراء ٤٦ دونماً في منطقة الحُمَّر، الواقعة أسفل قصر الحمر الملكي، غرب عمان. وهي منطقة جميلة، وتقرر إقامة مشروع سكني عليها، وتم اختيار الدكتور «وصفي حجاب» الذي كان أستاذاً للرياضيات بالجامعة الأميركية في

بيروت ليكون مديراً عاماً للشركة، وعهد إلى شركة المهندس «جعفر طوقان» لتقوم بعمل التصاميم اللازمة. ولم يتمكن المجلس من التنفيذ لانتهاء مدة ولايته، فاجريت الانتخابات التي فزت فيها وشكلت مجلساً جديداً ضم كلاً من المهندس بدر الهرش الذي اختير ليكون نائبي وكان من بين الأعضاء المهندس عبد الرحمن العلي، والمهندس علي حليلة، والسادة : محمد سميح بركات، وعمر باكير، وراشد مناع، وفوزي قبلاوي، وبسيم الخطيب. وفي عهد هذا المجلس بوشر العمل والتنفيذ في مشروع الحمر الإسكاني. وقد حصلت على إجازة من جامعة الكويت مدتها ستة أشهر، قمت في أثنائها بعمل عقود ومقاولات الحفريات والبناء. وبانتهاء الإجازة كان العمل في المشروع على قدم وساق. وفي هذه الفترة توطدت علاقاتي بعدد من الفعاليات الأردنية ورجال الأعمال، وبعض الوزراء ورجال الدولة مما جعلني أفكر في البقاء والاستقرار في عمان.

حققت الشركة نجاحاً أغرى البعض بالتفكير بامتلاكها عن طريق شراء أسهمها من السوق. وقد حذرت أعضاء مجلس الإدارة من ذلك، وطلبت منهم زيادة أسهمهم بالشراء، وللأسف لم يستجيبوا، لأن مصالحهم في الكويت كانت أهم. كان الدكتور «أحمد الجلبي» رئيس مجلس إدارة بنك «البترا» - وهو عراقي يتمتع بمكانة ونفوذ في الأردن آنذاك - يسعى لامتلاك أسهم الشركة والسيطرة عليها. وقد كلف السيد / حسن عبد العزيز، أحد مساعديه لهذه المهمة، وحاول أحد الأصدقاء عقد لقاء بيني وبين الدكتور أحمد الجلبي للتفاهم حول الشركة، وبخاصة حينما علم بعدم رغبتي في خوض الانتخابات المقبلة للشركة. وللأسف فشل اللقاء. ولما بدأ «أحمد الجلبي» وجماعته بحملة تحريضية ضدنا وبدأوا في التشهير بي وبزملائي، قررت مواجهة التحدي، وتلقين «الجلبي» وجماعته درساً لن ينسوه أبداً، فعقدت اجتماعاً لمجلس الإدارة في الكويت، وفيه تقرر تكثيف الجهود وعمل خطة نواجه بها هذا التحدي الذي فرض علينا على الرغم أننا لم نكن راغبين في خوض الانتخابات المقبلة، وفضّلنا ترك المجال لغيرنا، وقررنا في الاجتماع أن نضم إلينا أشخاصاً من عمان، كان من أبرزهم السيد / توفيق شاكر فاخوري الذي أصبح فيما بعد من كبار رجال الأعمال في الأردن، ورئيس مجلس إدارة بنك الأردن.

كان ملخص الخطة أن نبدي الاستسلام ظاهرياً حتى لا نلفت الانتباه إلى ما نقوم به من أعمال، وأن نحضر دعوات المساهمين إلى الكويت ونسلمها باليد، ونحصل منهم على التوكيل. وبهذه الطريقة حصلنا على ٥١٪ من جملة المساهمين. وكانت صدمة «الجلبي» وأتباعه حينما فوجيء في اجتماع الهيئة العمومية للشركة بذلك، بعد أن

اعتقدوا بأن الشركة أصبحت بيدهم، وذلك حينما اشتروا نحو ٤٥٪ من الأسهم. وخرجوا من القاعة يحتجون ويصيحون دون أن يلتفت إليهم أحد. ولما قابلني أحدهم مصادفة قلت له: سلم على صاحبك الجلبي، وقل له إن الفرا يبارك لك هذه الهزيمة. ومن المعلوم بأن أحمد الجلبي كان من المعارضين العراقيين الذين رجعوا إلى العراق على ظهور الدبابات الأمريكية عام ٢٠٠٣.

من الأحداث المؤلمة آنذاك زيارة الرئيس المصري «أنور السادات» إلى القدس، ثم إلى كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٧٨، وعقد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في عام ١٩٧٩، وتداعياتها التي منها خروج مصر، وهي أكبر دولة عربية، من الصراع العربي - الإسرائيلي، وانقسام الصف العربي، ونقل جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس، وقصف إسرائيل للمفاعل النووي العراقي في ١٩٨١/٦/٧، ثم غزو إسرائيل للأراضي اللبنانية في ١٩٨٢/٦/٣ ووصولها إلى بيروت، وإخراج المقاومة ومنظمة التحرير من لبنان في ١٩٨٢/٨/٣١.

كانت هذه الأحداث المؤسفة صدمة لجميع العرب. وكان غزو إسرائيل للأراضي اللبنانية، وصمود الفلسطينيين ثمانين يوماً، وهم يتصدون وحدهم للقوات الإسرائيلية، حدثاً ألهب المشاعر. وحينها سألني صديقي وزميلي الدكتور عبد الإله أبو عياش، عما يمكننا عمله، فاتفقنا على عقد لقاء مصغر مع عدد من أساتذة الجامعة في الكويت. وكان من بين الذين حضروا هذا اللقاء في منزلي كل من الدكتور عصام النقيب والدكتور نزار الريّس والدكتور اسحق القطب والدكتور عبد الاله أبو عياش. واتفق في هذا اللقاء على إنشاء اتحاد لأساتذة الجامعة الفلسطينيين ليتولى القيام بمسؤولياته تجاه الوطن في هذه الظروف الصعبة، فالوطن في أمس الحاجة لأبنائه. وتقرر الدعوة لعقد اجتماع عام للتشاور في تأسيس هذا الاتحاد، وتحدد مكان الاجتماع بنادي الجامعة بالشويخ، وطلب مني رئاسة هذا الاجتماع.

ما أن علم مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بالكويت بتحركاتنا، وموعد الاجتماع، حتى اتهمنا بالخروج على منظمة التحرير، وأننا نسعى إلى تأسيس تنظيم معارض لها. وقد سبق للمنظمة أن عارضت قيام رابطة لأساتذة الجامعات لاعتقادها أن من الصعب احتواءها والسيطرة عليها، ونصحتهم بالانضمام إلى اتحاد المعلمين الفلسطينيين الذي تسيطر عليه، وتشرف على أنشطته وفعالياته، وتتحكم في اختيار أعضاء مجلس إدارته، كما هو الحال في جميع الاتحادات، كاتحاد العمال، واتحاد الحقوقيين، واتحاد المهندسين، واتحاد الكتاب، وغيرهم. وكمحاولة من مكتب المنظمة لإفشال مؤتمرنا،

أوعز إلى بعض أنصاره لحضور المؤتمر للطعن في شرعية الاجتماع.

بمجرد أن أعلنت عن بدء الاجتماع، حدث ما كان متوقعاً، إذ وقف عدد من الحضور، وأعلنوا بأن هذا الاجتماع غير شرعي، لأنه لم تؤخذ موافقة منظمة التحرير على عقده، والذي كان ينبغي أن يكون في مقر مكتبها في الكويت. فقلت لهم : ما دمتم تعتقدون بعدم شرعية الاجتماع، فلماذا قررتم حضوره. إن هذا الاجتماع شرعي، فقد تم بموافقة جامعة الكويت التي نعمل بها، وسمحت لنا بعقده في نادي أساتذتها. وعلى أية حال، فإنني – بصفتي رئيس هذا الاجتماع – أعطي الفرصة لمن يعتقد بعدم شرعية هذا الاجتماع بالانصراف، وإما الذين يبقون فإنهم موافقون عليه ضمناً. ولما بقي الجميع ولم يغادر القاعة أحد، أعلنت عن بدء الاجتماع، وطرحت فكرة اتحاد أساتذة الجامعة. ودار نقاش مطول أسفر عن الموافقة، وتشكلت لجنة من الأساتذة برئاسة الدكتور نزار رباح الريس، الأستاذ بقسم الكيمياء، بكلية العلوم، لوضع اللائحة والقانون الأساسي للاتحاد، وأن تكون اجتماعاتها في مكتب المنظمة بالكويت.

استمرت الاجتماعات لعدة أشهر، حاول مكتب المنظمة في أثنائها وضع الكثير من العقبات والعراقيل التي كان الهدف منها إفشال قيام الاتحاد، إلا أن اتساع صدر اللجنة، ومثابرتها وإيمانها بالمهمة، أسفر عن نجاح المساعي، وأعلن عن موعد انتخاب مجلس إدارة الاتحاد. وطلب مني أن أكون في هذا المجلس، فاعتذرت قائلاً، بأنني سعيد بقيام هذا الاتحاد، ولم أكن أسعى إلى إقامة هذا الاتحاد ليكون معارضاً لمنظمة التحرير، كما اتهمني البعض، وإنني اعتبر نفسي في خدمة هذا الاتحاد، وعلى استعداد لتنفيذ ما يطلب مني، وفي حدود طاقاتي وامكاناتي. واحتراماً وتقديراً لي واعترافاً بما بذلته من جهد في إقامة هذا الاتحاد، تم الاتفاق على أن أتولى رئاسة الهيئة العمومية في كل عام، أي أكون بمثابة الأب الروحي للاتحاد، فقبلت العرض شاكراً لهم ثقتهم بي.

اتصل بي ذات يوم من عام ١٩٨٥ رجل الأعمال السيد «هشام أديب حجاوي»، صاحب مؤسسة الأندلس بالكويت. وكان رحمه الله محباً لعمل الخير، وفلسطينياً غيوراً مخلصاً لوطنه وأمته، وأخبرني بأنه سجل في إمارة «ليختنشتاين» بأوروبا مؤسسة باسمه هدفها إنشاء معاهد أو كليات لتخريج فنيين على درجة عالية من الكفاءة، على نحو ما هو موجود في اليابان التي كان معجباً بها، ويتعامل مع شركاتها ومؤسساتها. وطلب مني أن أساعده في وضع هيكل تنظيمي للمؤسسة، وتشكيل مجلس أمناء لها، وأن أكون مستشاراً للمؤسسة، فوافقت. وقد وافق على تنسيبي بتشكيل مجلس الأمناء مكوّن من السادة : الدكتور عصام النقيب والدكتور نزار الريس، والدكتور حسن

الإبراهيم (مدير جامعة الكويت سابقاً) والدكتور يوسف عبد المعطي – مدير التدريب الفني بالكويت وهو مصري حصل على الجنسية الكويتية، والأستاذ جميل البديري.

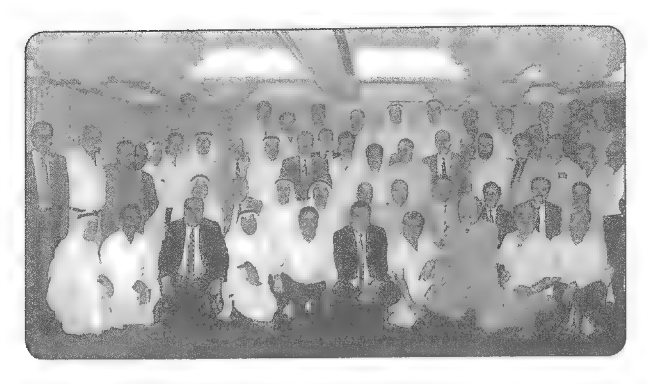
قررت المؤسسة إنشاء كلية بجامعة النجاح في نابلس، وأخرى بالأردن، تقومان على أسس غير ربحية، وتم تخصيص مبلغ مليون دينار أردني لكل كلية. وقد وضعت السلطات الإسرائيلية الكثير من العقبات لمنع قيام الكلية في نابلس، أمكن التغلب عليها فيما بعد.

أما بشأن الكلية في الأردن، فقد قمت مع السيد / هشام حجاوي بزيارة إلى رئيس الجامعة الأردنية آنذاك الدكتور « عبد السلام المجالي » وناقشنا معه إمكانية إنشاء كلية هندسة تطبيقية، لتخريج فنيين، على درجة عالية من الكفاءة، وأن تكون مدة الدراسة ثلاث سنوات، يمنح الخريج في نهايتها دبلوماً عالياً، وتحمل الكلية اسم « هشام أديب الحجاوي » الذي استعد لدفع مبلغ مليون دينار أردني من كلفة إنشاء الكلية. ورغم ترحيب الدكتور « عبد السلام المجالي » بالفكرة إلا أنه لم يوافق على أن تسمى الكلية بهذا الاسم، ولكنه عرض على أن يطلق الاسم على مدرج من مدرجات الجامعة، فرفضنا هذا العرض، وعدنا إلى الكويت.

بعد بضعة أسابيع من هذه الزيارة، اتصلت بالصديق الدكتور « عدنان بدران » الذي كان حينها رئيس جامعة اربد، وعرضت عليه الفكرة فوافق. وبعد التشاور مع السيد / هشام حجاوي، الذي كان في رحلة عمل بسويسرة، سافرت إلى الأردن، واتصلت بالدكتور « منذر المصري » عضو مجلس الأمناء، والذي ذهب معي إلى إربد حيث وقعنا الاتفاق مع جامعة اربد، ووقع عليه، كل من الدكتور « عدنان بدران » والمستشار الهندسي المهندس « رائف نجم ».

بموجب هذا الاتفاق تقرر إنشاء كلية « هشام أديب حجاوي التطبيقية »، وتم تعيين أول عميد لها، وكان فيما أذكر الدكتور « الذكاكني » وهو مصري الجنسية، وكنت أواظب على الحضور من الكويت لتفقد أحوالها إذا لزم الأمر. وبناء على إصرار الطلبة والجامعة، فقد أصبحت مدة الدراسة أربع سنوات، يمنح الخريج في النهاية درجة البكالوريوس، لأن حملة الدبلوم واجهوا مشاكل كثيرة، ولم تعترف بهم نقابة المهندسين الأردنية. ولا تزال الكلية قائمة حتى الآن في جامعة اليرموك، تخرج فيها كثير من الطلاب الذين ساهموا في خدمة وطنهم.

كان يقيم في الكويت عدد من أبناء عائلة الفرا مع أسرهم البالغ عددها ٣٦ أسرة، عملوا في التربية مدرسين ونظار وموجهين، ومنهم من عمل في الطب والهندسة والأعمال



–ابناء خان يونس بفندق ساس بالكويت الذين حضروا الحفل الذي اقامته عائلة الفرا بمناسبة عودتي بعد اجراء عمليه جراحيه بالقلب في مايو كلينك

الحرة. وبصفتي كبيرهم، فقد شكلت للعائلة رابطة لها صندوقها. ويلتقون بمنزلي في الأعياد والمناسبات، ويجتمعون لبحث شؤون العائلة. وفي فصل الربيع ننصب الخيام في البر، حيث نقيم الحفلات التي ندعو إليها المعارف والأصدقاء.

كنت أحرص على رياضة المشي يومياً، فأخرج من منزلنا بضاحية السرة، مع الجار والصديق الدكتور عصام النقيب، وكان عالماً في الفيزياء النووية، ومن أبرز الأساتذة في جامعة الكويت. وقد عمل مساعداً أو نائباً لمدير الجامعة للدراسات العليا. وكان ينضم إلينا في رياضة المشي الأستاذ الدكتور عدنان الحموي، وهو عالم رياضيات معروف.

شعرت ذات يوم من أيام شهر أيار/ مايو ١٩٨٩ بألم في الصدر، وخدل في ساعدي الأيسر. فأدركت بفضل ثقافتي الطبية أن ذلك من أعراض مرض القلب، فتوجهت إلى عيادة الجامعة بالشويخ، وقابلت طبيبة سودانية وأخبرتها بالأمر، ولكنها لم تكترث وأعطتني تحويلاً إلى مستشفى «مبارك» بناء على طلبي لقربه من سكني، وبدلاً من أن تطلب سيارة الأسعاف لنقلي للمستشفى تركتني أقود سيارتي بنفسي. فوصلت المستشفى متهالكاً حيث أدخلت غرفة العناية المركزة. وقالوا بأنه كان من الخطأ أن أقود السيارة.

مكثت في المستشفى بضعة أيام، وتبين من الفحوصات أن هناك انسداداً في شرايين القلب، ونصحني مدير الجامعة الدكتور عبد المحسن العبد الرزاق والذي كان في الوقت



– جانب من الحفل الذي اقامته عائلة الفرا بمناسبة عودتي

بعد اجراء عمليه جراحيه بالقلب في مايو كلينك

نفسه مدير مركز أمراض القلب بوزارة الصحة بإجراء العملية في «مايو كلينك Mayo Clinic في الولايات المتحدة الأميركية، وقام بنفسه بعمل الإجراءات والحجوزات لي هناك. وسافرت معي زوجتي وابنتي أمل وابني نزار. وقد أجريت العملية في ٢٢/٦/١٩٨٩ بمستشفى «سانت ماري» في «مايو كلينك» بمدينة «روتشستر» Rochester بولاية مينسوتا. وحينما عدت إلى الكويت أقامت عائلة الفرا حفلاً كبيراً بفندق «ساس الكويت» دعي إليه جميع أبناء مدينة خان يونس المقيمين في الكويت. وألقيت في الحفل خطب تكريماً لي تهنئة بعودتي سالماً ومعافياً.

من الأحداث الهامة والخطيرة التي شهدتها المنطقة العربية، في سبعينيات القرن الماضي، الحرب الأهلية اللبنانية التي نشبت في ١٣/٥/١٩٧٥ وانتهت في ١٣/١٠/١٩٩٠. وحرب الخليج الأولى، أو الحرب العراقية – الايرانية، والتي بدأت من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠، وانتهت في شهر آب/ أغسطس ١٩٨٨. وكانت للحربين، وبخاصة الثانية تداعياتها وآثارها السلبية على الأقطار العربية بعامة، وعلى منطقة الخليج العربي بخاصة، لن ندخل في الحديث عنها، لأن المجال لا يتسع لذكرها وبحثها.

أما الحدث الأكبر – أو إن شئت فقل الزلزال – الذي ضرب المنطقة العربية، وألحق بها الكثير من الدمار، وكانت له أصداء وتداعيات عالمية، فهو غزو حكومة الرئيس العراقي «صدام حسين» للكويت في فجر يوم الثاني من آب/ أغسطس عام ١٩٩٠م. وعلى

أثره خرجت من الكويت وغادرتها نهائياً إلى الأردن في الثالث عشر من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠م.

بدأ هذا الحدث بحشود للقوات العراقية - قيل آنذاك - أنها بلغت نحو ثلاثين ألف جندي، توجهت صوب الحدود مع الكويت في أواخر شهر تموز/ يوليو ١٩٩٠ وكنت آنذاك مع الأسرة في كندا. ولما سمعت بهذه الأخبار شعرت بالقلق وعدم الارتياح، وتمنيت أن لا يقدم النظام العراقي على عمل كهذا، وأن لا يقع في فخ مؤامرة كبيرة، تم تدبيرها بمكر ودهاء، وهي ليست موجهة للعراق وحده، وإنما للأمة العربية كلها.

غادرنا مدينة «تورنتو» الكندية في الحادي والثلاثين من شهر تموز/ يوليو ١٩٩٠ إلى مدينة «نيويورك» حيث ركبنا إحدى طائرات الخطوط الجوية الكويتية، عائدين إلى الكويت، وحطت الطائرة في مطار الكويت مساء الأول من آب/ أغسطس، ولم نكن نعلم أنها كانت آخر طائرة تهبط في مطار الكويت، إذ أنه بعد بضعة ساعات من وصولنا إلى منزلنا بضاحية «السرة» حتى اتصل بنا هاتفياً من يخبرنا بغزو القوات العراقية للأراضي الكويتية، ووصولها إلى الكويت العاصمة، فأصبت بالذعر والهلع، وقلت لنفسي : لقد نجحت المؤامرة، ووقع النظام العراقي في المصيدة، وابتليت الأمة العربية بمصيبة جديدة، وسيكون الفلسطينيون وقضيتهم أكبر الخاسرين في هذه المصيبة.

منذ وصولي إلى الكويت في الأول من آب/ أيلول ١٩٩٠، وحتى مغادرتي في الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر، اعتكفت في المنزل أسجل الأحداث الخطيرة المتسارعة، وأدونها على شكل مذكرات. وكان بودي أن أضعها في هذا الكتاب، وأخصص لها فصلاً أو فصولاً ولكن وجدت أنها تحتاج إلى كتاب قائم بذاته، ففضلت استبعادها من الكتاب.

١- توفيق أبو بكر «الفلسطينيون في الكويت : ١٩٣٦ - ١٩٩٠ وأزمة الخليج»، مركز جنين للدراسات الإستراتيجية، الطبعة الأولى، عمان، ٢٠٠٠، ص٣٠.

٢- توفيق أبو بكر، مرجع سابق، ص ٣٠-٣١.

إلى الأردن

أخذت الأحوال تزداد سوءاً في الكويت، وغادرها كثير من الكويتيين وأبناء الجاليات العربية والأجنبية، وأصبحت الحياة قاسية، وصار الحصول على المواد الغذائية صعباً. ولم يستطع كثير من الفلسطينيين مغادرة الكويت إلا لمن كان يحمل منهم «لم الشمل» لأن وطنهم كان محتلاً، ولا تسمح لهم سلطات الاحتلال الإسرائيلي بالعودة إليه. وباضطرارهم للبقاء انطبق المثل الذي يقول: رب ضارة نافعة، فقد كان كثير من هؤلاء الفلسطينيين يعمل في المرافق والخدمات الأساسية في الكويت، والتي هي ضرورية للحياة مثل الكهرباء، والماء والغاز ومصافي النفط والمطاحن والمخابز، فبقاؤهم في الكويت أدى إلى استمرار عملها وتقديم خدماتها لجميع الذين ظلوا مقيمين في الكويت، سواء كانوا كويتيين أو أجانب.

وجهت السلطة العراقية بالكويت إنذاراً لجميع العاملين والموظفين الأجانب الذين بقوا في الكويت، وغالبيتهم من الفلسطينيين بضرورة الاستمرار في أعمالهم، وهددتهم بالطرد من البلاد إن امتنعوا عن ذلك، بذريعة أنهم جاءوا للعمل، وأن من لا يعمل لا يحق له البقاء.

قررت السلطة العراقية أيضاً أن يتولى عدد من العاملين الأجانب، وبخاصة الفلسطينيين، رئاسة الأقسام في الدوائر والوزارات ليحلوا محل الكويتيين الذين غادروا البلاد أو رفضوا العمل والتعاون مع هذه السلطة، وبخاصة بعد أن وجهت إليهم الحكومة الكويتية في الخارج نداء تطالبهم ترك العمل، وأنها تتكفل بدفع رواتبهم، وفي الوقت نفسه قامت بإنهاء خدمات جميع العاملين من غير الكويتيين الذين اضطروا للاستمرار في العمل خشية طردهم من البلاد، وعدم قدرتهم على إعالة أسرهم، لعدم توفر مصدر دخل إن تركوا العمل.

في أواخر شهر آب/ أغسطس ١٩٩٠، عينت السلطة العراقية مديراً عراقياً لجامعة الكويت، والذي دعا إلى اجتماع لهيئة أعضاء التدريس الموجودين في البلاد لبحث أوضاع الجامعة، وترتيب استئناف الدراسة فيها في موعده المحدد، فتغيبت عن الاجتماع، وعلمت أن كثيرين حضروا، ومن جنسيات مختلفة بمن فيهم كويتيون.

وعقد بعد ذلك الاجتماع الثاني الذي تغيبت عنه أيضاً، فاتصل بي مسؤول عراقي كبير في الجامعة. فردت عليه زوجتي وأخبرته بأنني خارج المنزل. فقال لها: إننا نقدر

الدكتور الفرا ونحترمه، وهو معروف لنا، ونريده أن يتعاون معنا، وأننا نستغرب تغيبه عن الاجتماعين، وطلب منها أن تبلغني بأن أتصل بالجامعة.

شعرت لأول مرة بأن لا معنى لبقائي في الكويت ما دمت ممتنعاً عن العمل والتعاون مع السلطة، ولن أقبل المنصب الكبير الذي سمعت بأنهم سيعهدون به إليّ في الجامعة، بحكم أقدميتي، ورتبتي العالية، إذ كنت قد بلغت السقف الأعلى في الأستاذية.

وعلاوة على ذلك خشيت إن بقيت في الكويت أن يشي بي البعض، ويخبر السلطة العراقية بموقفي وأنشطتي، فقد كنت أدعو الفلسطينيين بالامتناع عن العمل، وعدم قبول الوظائف التي كانت للكويتيين. وفي الوقت نفسه كنت على اتصال بعدد من الكويتيين وبخاصة الأستاذ محمد العصفور أمين عام الجامعة والذي بقي في الكويت، وعين وزيراً في أول حكومة تشكلت بعد إخراج العراقيين من الكويت. وكان الهدف من هذه الاتصالات نزع فتيل التوترات بين الكويتيين والفلسطينيين، والتي اتهمت السلطة العراقية بتغذيتها بما يحقق مصالحها وأهدافها. وربما كان مما زاد من نقمة الكويتيين وحقدهم على الفلسطينيين استقدام السلطة العراقية عدداً من التابعين لفصيل فلسطيني يدعمه العراق ومحسوب على الحزب البعثي. وقد أسندت السلطة لهؤلاء الفلسطينيين مهمة تفتيش الكويتيين وغيرهم على الحواجز التي أقاموها على الطرق ومداخل الأحياء.

لهذه الأسباب وغيرها لم أكن مطمئناً بالبقاء في الكويت فقررت مغادرتها إلى الأردن في ١٣ / ٩ / ١٩٩٠ وحدي، تاركاً زوجتي وابنتي أمل وابني نزار في الكويت، لأنني لم أكن أملك من النقود ما يكفي لسفرهم معي والانفاق عليهم في الأردن، لأن كل أموالي ومدخراتي كانت في أحد البنوك الكويتية، ولا استطيع سحبها آنذاك.

وحتى لا أتعرض لأية مساءلة أو أية تهمة قد توجه لي من السلطة العراقية إن سافرت دون الحصول على إذن منها، ذهبت إلى الجامعة، وقابلت المدير، وأخبرته بأنني مضطر للسفر إلى الأردن، لأن أخي بالمستشفى وفي حالة حرجة، وسأعود إن شاء الله بعد الاطمئنان عليه، فاقتنع بما قلت وأعطاني تصريحاً بالسفر، وطلب مني اعتماده من وزارة التعليم العالي في بغداد.

وتجدر الإشارة هنا إلى الجهد الكبير الذي بذله الصحفي والصديق المرحوم «غازي جرادة» من أجل الحصول لي على مقعد بالطائرة التي تقلع - على غير انتظام وبدون حجز - من مطار الكويت إلى بغداد. ولما وصلت بغداد مكثت فيها يومين، تمكنت بعد جهد جهيد وعناء كبير من الحصول على مقعد بالطائرة العراقية المتجهة إلى عمان.

وصلت عمان، والأجواء فيها صاخبة ومتوترة، والكل يتابعون أخبار الأحداث المتسارعة. وكان جميع من التقيتهم وتحدثت معهم يستبعدون قيام الولايات المتحدة وحلفائها بالهجوم لتحرير الكويت، لاعتقادهم بأن عملاً كهذا سيثير الرئيس صدام حسين، فيقوم بتفجير آبار النفط وبخاصة أن قواته على مقربة من الأراضي السعودية، وأنه سيستخدم الأسلحة الكيماوية والبيولوجية التي أعلن أنه يمتلك الكثير منها.

لم أوافق هؤلاء على كل ما قالوا، فقد كانت لي رؤيتي الخاصة بحكم خبرتي بمنطقة الخليج واطلاعي على أهميتها للقوى الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية. فالكويت كانت ضمن ما كان يسمى بمنطقة الخط الأحمر التي لا تسمح هذه القوى لأحد بدخولها أو السيطرة عليها. وكنت على قناعة بأن هذه الحرب كانت – كما سبق القول – بمثابة فخ لاصطياد صدام حسين وإسقاط نظامه وتدمير العراق، بعد أن انتهى دوره في حربه مع إيران، وبسبب تهديده لإسرائيل وامتلاكه ما سمي بالمدفع العملاق، وقوله بأنه قادر على تدمير نصف إسرائيل. ولذلك فقد كنت واثقاً بأن الحرب قادمة لا محالة وستكون نتائجها وخيمة ليس على العراق أو منطقة الخليج وإنما على الأمة العربية بأسرها، وأن أكبر الخاسرين هم الفلسطينيون وقضيتهم، لأن مصادر الدعم الأساسي وبخاصة المالي كان من الكويت ومنطقة الخليج. وكان الذين سمعوا ما كنت أحذرهم منه يتهمونني بالتشاؤم، وللأسف حدث ما توقعته، وكنت أتمنى أن لا يحدث.

بعد انتهاء الحرب وحدوث المأساة وتداعياتها على الأردن وأقطار عربية أخرى التقيت في مكتب الصديق المرحوم العين «جمعة حماد» أحد رواد الصحافة الأردنية بمعالي الوزير السابق ورئيس محكمة التمييز سابقاً وأحد أبرز المحامين في الأردن، الأستاذ «طاهر حكمت»، حيث دار الحديث عن أحداث الخليج، فقال لي «طاهر حكمت» : «كنت أتابع ما تكتبه في جريدة الدستور، وأشفق عليك لأنك تسبح عكس التيار، ولكن تبين لي فيما بعد أنك كنت على صواب في كل ما اعتقدت».

اعتكفت في المنزل وواظبت على كتابة مقالات أسبوعية في الدستور بطلب من صديقي القديم المرحوم الأستاذ «محمود الشريف» الإعلامي العربي المعروف، وأحد رواد الصحافة وأعمدتها في الأردن.

ساءت الأحوال في الكويت، فطلبت من أسرتي بالكويت الحضور إلى عمان بعد أن حصلت على المال من بيع منزلي ـ فيلا جميلة وكبيرة في حي الرمال بمدينة غزة – بمبلغ زهيد لم يتجاوز ٧٥ الف دولار أميركي، وقد علمت أن ثمنه بلغ بعد سنتين نحو مليون دولار. وقد اعتبرت هذا البيع غلطة العمر، ولكن حاجتي إلى المال لأعول

أسرتي دفعتني إلى بيعه.

لن أنس الموقف النبيل والكريم الذي أبداه نحوي الزميل الأستاذ الدكتور «صلاح بحيري» رئيس قسم الجغرافية بالجامعة الأردنية آنذاك، فقد زارني بالمنزل، وعرض عليّ مبلغاً من المال، كما أبدى استعداده لبذل إمكانياته من أجل تعييني أستاذاً بالقسم، بعد أن أخبرته بموافقتي، شريطة أن لا أقدم طلباً خشية من رفضه، فقال بأنه يعفيني من التقدم بطلب للعمل، وسيتولى هو مهمة الكتابة للمسؤولين بالجامعة من أجل التعيين، فشكرته.

وقد أوفي الدكتور «صلاح بحيري» بوعده وأرسل كتاباً بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٩٠ إلى عميد كلية الآداب جاء فيه ما نصه :

«بناء على توصية مجلس القسم رقم ١٥/٥/٩٠/٩١ بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٩٠، أرجو التفضل بالنظر في تعيين الأستاذ الدكتور محمد علي الفرا أستاذاً بقسم الجغرافيا لمدة عام دراسي واحد قابل للتجديد وذلك من بداية الفصل الدراسي الثاني ٩٠/٩١، علماً بأن الأستاذ الفرا يعد واحداً من أبرز الجغرافيين العرب وله العديد من الأبحاث والمؤلفات في مجالات مختلفة، لعل أبرزها أبحاث فيما يتعلق بالفكر الجغرافي ومدارسه المعاصرة، والاتجاهات الفلسفية في مناهج البحث الجغرافي، وجغرافية الطاقة والموارد الغذائية. وشارك في العديد من المؤتمرات والندوات الجغرافية العالمية والعربية، ومن ثم فإن في تعيينه على النحو الموضح آنفاً إفادة كبيرة لطلاب القسم على مستوى الدراسات العليا والبكالوريوس».

عرض عميد كلية الآداب هذا الكتاب على مجلس الكلية الذي وافق عليه بالإجماع، ورفع إلى رئاسة الجامعة .وفي صباح اليوم الذي عرض فيه الكتاب على مجلس الجامعة، اتصل بي تلفونياً، رئيس الجامعة آنذاك الأستاذ الدكتور «محمود السمرا»، وأخبرني بأن كل شيء على ما يرام، وأبدى ترحيبه بي كصديق وزميل. ولكن وللأسف حدث في المجلس ما لم يكن متوقعاً، فقد اعترض على تعييني نائب رئيس الجامعة للعلوم الإنسانية آنذاك الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت ولا أدري ما سبب هذا الاعتراض، إلا أن هناك من قال بأن الاعتراض كان لاعتبارات إقليمية، ولكنني لا أملك من الأدلة ما يثبت صحة هذا القول أو ينفيه.

في الأول من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ حضر إلى الأردن وفد كويتي برئاسة الأستاذ «أحمد السقاف»، ضم عدداً من أعضاء مجلس الأمة الكويتي، لشرح قضية بلاده، ونيل تأييد الأردن. وقد شعر أعضاد الوفد بعدم الارتياح لأنهم لم يلقوا التأييد

الذي كانوا يأملونه أو يتوقعونه، فاعتقدوا بأن الأردنيين غير معارضين لغزو العراق لبلادهم واحتلالها، علماً بأنهم قابلوا المسؤولين الذين أكدوا لهم تنديدهم بهذا الغزو. ومن المعلوم بأن الملك حسين بذل جهوداً حثيثة لحل المشكلة، ولاقى استجابة من الطرفين، إلا أن قوى أجنبية – وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية – وأطرافاً عربية لها مصالحها وحساباتها أجهضت هذه الجهود للأسف. ومن المعلوم أيضاً أن الأردن وقف مع الكويت، حينما هدد عبد الكريم قاسم الكويت، وأرسل قوات أردنية لتتعاون مع القوات المصرية لحماية الكويت، كما سبق ذكره.

ربما كان من أسباب فتور استقبال الشعب الأردني للوفد الكويتي، تحرك أساطيل وطائرات الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها تمهيداً لضرب العراق الشقيق، مما استفز الأردنيين، فانطبق المثل العربي: «أنا وأخي على ابن عمي. وأنا وابن عمي على الغريب». وفي الوقت نفسه ارتفعت شعبية «صدام حسين» في الأردن بعد إطلاقه الصواريخ على إسرائيل. وكان الشعب الأردني – وهو شعب متنور ومثقف وواع – يدرك بأن الولايات المتحدة تريد تدمير العراق، وهذا ما لا يقبله أحد في الأردن. ولكن ليس معنى هذا أن الأردن – كما ظن البعض – أيد الغزو العراقي، ورضي باحتلال العراق للكويت.

ما إن علمت بوصول الوفد حتى قمت بزيارة رئيسه وأعضائه في الفندق، ومعظمهم يعرفونني، وأبديت لهم استعدادي لمساعدتهم في مهمتهم، فشكروني. وكدعم لهم كتبت مقالاً لنشره في جريدة الدستور عنوانه: «رجال من الكويت جديرون بالتقدير والاحترام». فلم توافق الجريدة على نشره في البداية لأنه – كما قيل لي – عكس التيار، وقد يؤثر على الجريدة من الجمهور المستفز للأسباب سابقة الذكر. ولكنني استنجدت بصديقي المرحوم «محمود الشريف» رئيس التحرير آنذاك، الذي استجاب وأمر بنشره. وقد عده كثيرون آنذاك جريئاً جداً، ولم ينشر مثله، مما أثار استغراب أعضاء الوفد الكويتي الذين قالوا لي بأن الصحف لم تنشر لهم بيانات مدفوعة الأجر، كما لم تنشر مقالات من أردنيين كانوا يعملون بالكويت، رحبوا بالوفد. وقد نشر المقال في ٣/١٢/١٩٩٠، وإليك نصه:

«يزور الأردن منذ مطلع هذا الأسبوع وفد كويتي يضم شخصيات لها احترامها وتقديرها وأهميتها في مختلف الأوساط الكويتية والعربية، ومهمة الوفد مقابلة جلالة الملك الحسين وسمو الأمير الحسن، والالتقاء ببعض الرسميين والمسؤولين في البلاد، علاوة على شخصيات وفعاليات أردنية لها مكانتها في المجتمع.

وهذه الزيارة الكريمة – إن دلت على شيء – فإنما تدل على إدراك الأخوة الكويتيين

لأهمية الأردن على خريطة التحرك السياسي العربي، بحكم موقعه الجغرافي، وبعده الاستراتيجي، وفعالياته وطاقاته البشرية التي تتمتع بالوعي السياسي، والفهم القومي للقضايا العربية والعالمية، وفوق هذا وذاك فإن الأخوة الكويتيين يدركون ما يحظى به الأردن من قيادة سياسية حكيمة، على رأسها جلالة الملك الحسين، والذي أحس قبل غيره من القادة العرب بخطورة الوضع وأبعاده الاقليمية والعالمية وأدرك ببصيرته النافذة، أن الأزمة لا بد من معالجتها قبل أن يستفحل خطرها على الأمة العربية، وتحرك على الفور لحلها ضمن إطارها العربي قبل أن يفلت الزمام، ويصبح الأمر كله بيد القوى الكبرى التي تبحث عن مصالحها في المنطقة مستفيدة من الخلافات العربية والتي قد تسعى إلى خلقها أو تأجيجها.

ونحن على قناعة بأن الأخوة الكويتيين سيلقون في الأردن كل حفاوة وتكريم، وسيجدون منهم تفهماً لطروحاتهم، والأردن لن ينسى للكويت مواقفها الكريمة من كافة القضايا العربية، وبخاصة القضية الفلسطينية، فالكويت – على الرغم – من صغر مساحتها وقلة عدد سكانها، إلا أن مساهماتها وأعمالها ومشاركاتها على المستويات القومية والعالمية أوجد لها حضوراً وفاعلية يفوق غيرها من الشقيقات التي تتفوق عليها في الرقعة الجغرافية أو الحجم السكاني.

إننا إذ نرحب اليوم بأخواننا الكويتيين لا ننسى الكويت التي فتحت قلبها للعرب الفلسطينيين يوم أن اضطروا كارهين مجبرين على النزوح من بلادهم على إثر الغزو الإسرائيلي لديارهم. لقد كانت الجالية الأردنية الفلسطينية أول جالية عربية تقيم على أرض الكويت وتساهم بصدق وإخلاص وتفان في بناء نهضة الكويت الحديثة ممثلة في مختلف جوانبها ومظاهرها العمرانية والتعليمية والاقتصادية.

واننا ونحن نفتح قلوبنا اليوم للأخوة الكويتيين لن ننسى صحافة الكويت التي كانت منبراً تتبنى كافة القضايا العربية، وتدافع عنها، وقد حظيت القضية الفلسطينية بقدر كبير من صحافة الكويت، ولا نبالغ إذا قلنا بأن صحف الكويت كانت أكثر الصحف حرصاً على متابعة وإبراز أحداث الانتفاضة الفلسطينية وشرحها وتحليلها وتقييمها وأقوال الصحف العالمية عنها، وكانت هي الصحافة العربية التي لها مراسلون في الأرض المحتلة يمدونها بالأخبار الصادقة المؤكدة، وبذلك كسرت طوق احتكار الصحافة العالمية التي لا تلتزم بدقة الخبر وأمانته.

وفي هذا المقام فإننا نذكر بالتقدير افتتاحيات عضو الوفد الأستاذ محمد جاسم الصقر رئيس تحرير القبس والتي كانت كل كلمة من كلماته تنبض بالعروبة الصادقة، ونحن

لا ننسى مقالات الدكتور أحمد الربعي التي كانت مرآة صادقة عن إيمانه بأمته العربية وأصالتها. وفوق هذا وذاك فلجريدة الوطن ممثلة في مؤسسها الأستاذ محمد مساعد الصالح كل محبة وتقدير وبخاصة زاويته اليومية «الله بالخير».

ولا شك في أن العالمين العربي والإسلامي لن ينسى للكويت حملات الخير التي كانت تنظمها الهيئات الشعبية الكويتية والتي حرصت على جمع التبرعات كلما تعرض أي بلد عربي أو إسلامي لأزمة أو مشكلة. وعلى أرض الكويت قامت الهيئة الإسلامية العالمية التي كان لها الفضل في مساعدة المسلمين في كل أنحاء العالم وبخاصة في آسيا وأفريقيا.

كما لا ننسى قوافل الخير التي انطلقت من الكويت قاصدة إغاثة اللاجئين ودعم صمود الأرض المحتلة، وشد أزر المناضلين وأطفال الحجارة في فلسطين.

تحية صادقة لوفد الكويت ولرئيسه الأستاذ الأديب أحمد السقاف مؤسس مجلة العربي لسان العرب وسفيرهم الثقافي عبر بلدان العالم، وتحية للأخ سعود العصيمي لما عرف عنه من مواقف عربية صادقة، وكذلك لجميع الأخوة الكرام أعضاء الوفد، فأهلاً وسهلاً بهم في بلدهم، وندعو الله أن يمكننا جميعاً من التغلب على هذه الأزمة ليعود التفاهم والصفاء بين جميع أبناء الأمة العربية».

في الساعة الواحدة من صباح يوم الخميس - بحسب توقيت الكويت - السابع عشر من شهر كانون الثاني / يناير ١٩٩١ بدأت عملية «عاصفة الصحراء»، والتي أطلقت على الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها على النظام العراقي بقيادة الجنرال الأميركي «نورمان شوارسكوف». واشتركت في التحالف قوات عربية من : مصر وسوريا والسعودية وعُمان والبحرين والكويت والإمارات وقطر والمغرب. وقد أطلق «صدام حسين» على هذه الحرب «أم المعارك»، والتي بدأت بغارات جوية مكثفة، قصفت المراكز الحيوية والاستراتيجية في منطقتي بغداد والبصرة. ودخلت القوات الأميركية الكويت في ٢٧ / ٢ / ١٩٩١. وانتهت الحرب في اليوم التالي بقبول العراق وقف إطلاق النار. ونحن لا نريد الخوض في تفاصيل يوميات هذه الحرب كما سجلتها في مذكراتي، فهي تحتاج إلى كتاب قائم بذاته.

بعد انتهاء الحرب ببضعة أشهر، عاد المسؤولون الكويتيون، وتشكلت الحكومة برئاسة ولي العهد آنذاك الشيخ سعد العبد الله الصباح، ورجع معظم الكويتيين إلى وطنهم.

في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١ ذهبت إلى السفارة الكويتية في عمان، وقابلت صديقي الكويتي القائم بأعمال السفارة الأستاذ «فيصل المخيزيم»،

لتصديق شهادة ابنتي «أمل» التي تخرجت في جامعة الكويت، فرحب بي كثيراً، وقال لي : لماذا لا تزور الكويت؟ فقلت له : وهل أستطيع؟ فقال : أنا لا أستطيع إعطاءك تأشيرة لدخول الكويت، ولكن بإمكانك أن تكتب لأصدقائك المسؤولين في الكويت، وهم كثيرون. فقلت له : لن أكتب لأني لا أريد أن أتلقى كتاباً بالرفض، وبخاصة أنني من الدول التي أطلقتم عليها «دول الضد». فقال : اكتب كتاباً للسفارة وسأرفعه لوزارة الخارجية في الكويت. وكتبت الكتاب الذي أملى عليّ نصه، ذاكراً فيه أنني أريد السفر إلى الكويت لنيل حقوقي من مكافآت نهاية الخدمة وغيرها.

غادرت السفارة، وأنا غير مقتنع بالسفر، وكنت أشك في الحصول على تأشيرة الدخول، لأنني من الدول التي أطلقت عليها الكويت «دول الضد»، كما سبق القول، وقد منع رعاياها من دخول الكويت. ولكن المفاجأة غير المتوقعة، أنه بعد أسبوع من تقديم الكتاب للسفارة، اتصل بي موظف كبير في السفارة، وأخبرني بأن برقية وصلت من وزارة الخارجية الكويتية ترحب بزيارتي إلى الكويت، وتطلب من السفارة منحي التأشيرة. وقال هذا الموظف : لم نكن نتوقع هذا الرد وبهذه السرعة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تقدير الكويت لمواقفك، وكتاباتك الجريئة والشجاعة المؤيدة للكويت. ولأنك كنت الوحيد الذي وقف معنا، ومع الوفد الكويتي الذي زار الكويت، وقد كنا نرسل مقالاتك إلى سمو الأمير وولي العهد في الخارج، في أثناء الاحتلال.

طلب مني المسؤول الكويتي في السفارة الحضور سريعاً لطبع التأشيرة على جواز سفري الأردني، فشكرته، ورجوته أن يمهلني بضعة أيام لأتدبر أمري. والحقيقة أنني فكرت في الأمر، وفضلت عدم السفر لعدة أسباب منها سماعي بما كان يعاني منه أبناء الجالية الأردنية والفلسطينية في الكويت على يد الكويتيين الذين اتهموهم بالتعاون مع النظام العراقي إبان الاحتلال. كما وأن العلاقات الأردنية الكويتية، على المستوى الرسمي لم تكن مرضية.

لما علم بعض الأصدقاء بعدم رغبتي في السفر، قاموا بإقناعي معتقدين بأن هناك فوائد في السفر، وقد تكون لي مهمة أقوم بها ما دمت مرحباً بي في الكويت، وأخيراً قررت الاتصال بالصديق الأستاذ «محمود الشريف» الذي كان آنذاك وزيراً للإعلام لأعرف رأيه، وحتى لا أقوم بعمل قد لا ترضى عنه الحكومة. فطلب مني أن أمهله ليستطلع الأمر. وفي اليوم التالي لاتصالي به هاتفني قائلاً لي بأن ولي العهد آنذاك سمو الأمير الحسن يرحب بهذه الزيارة، ويطلب مني فتح حوار مع الكويت، وأن الأردن على استعداد إذا وافقت الكويت على إرسال وفد وزاري أكون أنا فيه لتنقية الأجواء بين

البلدين الشقيقين.

تشجعت على السفر، ولكن خشيت من المتاعب التي كان يلاقيها الأردنيون في مطار القاهرة بحجة التضامن مع الكويت، فاتصلت هاتفياً بالسفير المصري، واسمه فيما أذكر «مُهاب مقبل»، وكان يعرفني جيداً، وعلى علاقة وطيدة مع ابن عمي الدبلوماسي المعروف الدكتور محمد الفرا. أعلمت السفير برغبتي السفر إلى الكويت، وأبديت له تخوفي من متاعب ومضايقات قد أتعرض لها في مطار القاهرة، لأن السفر إلى الكويت كان عن طريقها بعد أن توقف خط عمان - الكويت بسبب الأحداث.

دعاني السفير لزيارته في السفارة حيث أجرى اتصالاً مع المسؤولين الذين نصحوه بإرسال برقية للخارجية المصرية لتتصل عبر القنوات المناسبة بمدير أمن مطار القاهرة، ليقدم التسهيلات اللازمة لي، على اعتبار أني ضيف حكومة الكويت.

لقد قام السفير المصري مشكوراً بهذا العمل الذي لم أكن أتوقعه، وودعني حتى الباب الخارجي لسور السفارة الذي كان في الدوار الرابع، مقابل فندق «الأنتركونتننتال».

ذهبت بعد ذلك إلى السفارة الكويتية بعمان لطبع تأشيرة الدخول إلى الكويت على جواز سفري، فوجدت القائم بالأعمال «فيصل المخيزيم» قد عاد من أجازته، وقال أنه لم يكن يتوقع أن يكون الرد بالموافقة على زيارتي للكويت بهذه السرعة. ونصحني أن أبقى في الكويت، وأقبل لو عرض عليّ العمل. وكنت آنذاك، ومنذ تركت الكويت، بلا عمل، فشكرته وانصرفت بعد طبع التأشيرة.

سافرت في ١٤ / ١١ / ١٩٩١ ووصلت مطار القاهرة حيث قوبلت بالترحاب، وذهبت إلى منزل ابن عمتي الأستاذ «أكرم كامل الفرا»، وأقمت عنده ليلتين، زارني في أثنائها المدير الإقليمي للخطوط الجوية الكويتية السيد/ عبد الرزاق العتيقي الذي كان من تلاميذي السابقين، وعرض عليّ خدماته، وأخبرني أنه علم بسفري، وأنه مسرور جداً لقيامي بزياري للكويت، وأن الجميع في الكويت يحترمونني ويقدرون مواقفي نحوهم.

بعد يومين من وصولي إلى القاهرة، سافرت إلى الكويت على متن إحدى الطائرات الكويتية، مستخدماً تذكرة سابقة لي غير مستخدمة، ولما اقتربت الطائرة من الأجواء الكويتية شعرت بالخشية والرهبة من سوء معاملة، قد أتعرض لها في المطار من موظفين لا يعرفون حقيقة أمري، فأنا - كما قلت - من رعايا دول الضد.

هبطت الطائرة في مطار الكويت مساءً، ولم أتوجه إلى طابور القادمين، خشية أن أسمع ما لا أحب من موظفي الجوازات، وفضلت الذهاب إلى الضابط المسؤول في غرفته

الخاصة، وناولته جواز سفري. فأخذ ينظر فيه، ويقلبه، مستهجناً أن يرى أردنياً يحمل تأشيرة لدخول الكويت لأول مرة بعد زوال الاحتلال العراقي، وظن أن في الأمر شيئاً، وطلب مني أن أستريح على المقعد. وقام بإجراء اتصالات بالهاتف بمنزل مسؤول كبير في الأمن، لأني سمعته – رغم انخفاض صوته – يقول لمن رد عليه : أعطني والدك لأتحدث معه. ثم دار الحديث بينه وبين هذا المسؤول بصوت خافت طغت عليه حركة المطار. وما إن أنهى مكالمته، حتى وقف، وتقدم مني مصافحاً ومرحباً قائلاً : أهلاً وسهلاً بك في الكويت، يا دكتور، نحن نقدرك ونحترمك. ثم نادى على ضابط وطلب منه تسهيل الإجراءات من جوازات وجمارك، وأوصاه بتوصيلي إلى المكان الذي أقصده في الكويت، فشكرته قائلاً بأن أقاربي في الكويت ينتظرونني الآن في المطار، وسأقيم في منزل شقيقتي وزوجها في الكويت.

فرح الأقارب والأصدقاء بوصولي إلى الكويت، وكانت الإشاعات قد سبقتني. ومن هذه الإشاعات أن الكويت ستقوم بتكريمي بمنحي الجنسية الكويتية، وأنني جئت لأصلح العلاقة بين الأردن والكويت وفتح السفارة الأردنية. ومنهم من زعم بأنني جئت في مهمة ترسيم الحدود بين العراق والكويت لأني جغرافي.. إلى غير ذلك من الإشاعات التي استهجنتها واستغربتها.

بمجرد أن انتشر خبر وصولي إلى الكويت، توافد على منزل شقيقتي أعداد كثيرة من أبناء الجالية الأردنية والفلسطينية، منهم من يسأل عن المهمة التي أقوم بها، ومنهم من اشتكى من المعاناة التي تلقاها الجالية في الكويت، وطالبوني بالمساعدة والاتصال بالمسؤولين في الدولة لوضع حد لمعاناتهم وحل مشاكلهم، فقلت لهم بأنني جئت زائراً، ولا أحمل أية صفة رسمية أخاطب بها المسؤولين، فشكوا في قولي، وظنوا أني لا أريد المساعدة.

اتصلت في اليوم الثاني من وصولي بشخصيات كويتية أعرفها مثل الدكتور حسن الإبراهيم، رئيس جامعة الكويت الأسبق، والأستاذ أنور النوري، الوزير السابق، والأستاذ محمد جاسم الصقر، رئيس تحرير جريدة القبس، والأستاذ محمد العصفور وزير الإسكان في الحكومة والدكتور محمد الرميحي، رئيس تحرير العربي آنذاك.

في لقائي بالدكتور حسن الإبراهيم قال لي بأنه كان في أثناء الاحتلال العراقي للكويت في الولايات المتحدة الأميركية ممثلاً شخصياً لأمير الكويت الشيخ جابر الأحمد لدى الرئيس الأميركي «جورج بوش»[1]، وأنه استاء كثيراً من موقف الفلسطينيين الأكاديميين مثل أستاذه الدكتور هشام شرابي لأنهم لم يندددوا بالغزو العراقي واحتلال الكويت، وأنه

عرف عن طريق وسائل الإعلام الموقف السلبي للشعب الأردني، مما حز في نفسه، وعرف أيضاً بأنني الوحيد في الأردن الذي كتب مقالات في صالح الكويت، وأن جميع المسؤولين في الكويت، وعلى رأسهم الأمير وولي العهد يقدرون لي هذا الموقف الشجاع والنبيل. واستطرد قائلاً بأنه يرحب بي في الكويت، ويطلب مني عدم بحث هذا الموضوع، فالعرب خذلونا، والأجانب أنقذونا. لقد كنا دوماً نرفع راية العروبة. إن العروبة التي ترضى عن عمل كهذا، نحن لسنا منها.

قلت له : أنا جئت إليك لبحث هذا الموضوع، وسأوضح لك موقف الأردن الحقيقي، ولا أعتقد أن الإعلام الذي اعتمدت عليه في التعرف على الموقف الأردني كان صادقاً، وإنما كان مضللاً، واعلم يا أخي بأن ما حدث كان مؤامرة كبيرة ليست موجهة إلى الكويت. وإنما للأمة العربية بشعوبها وأقطارها، وهي أشبه بالزلزال الذي كان مركزه الكويت، وهذه المؤامرة جرى الإعداد لها منذ السبعينيات، وحيكت خيوطها بدهاء، واشتركت في تنفيذها - عن جهل وغباء - أطراف عربية للأسف. فحينما رفعت الأوبك أسعار النفط بعد حرب عام ١٩٧٣ في مؤتمرها الذي عقدته في الكويت، إلى نحو أربعة أضعاف السعر آنذاك، دون الرجوع إلى الشركات البترولية التي كان التسعير من اختصاصها، ومعظمها شركات أميركية، غضبت الإدارة الأميركية، وفكرت في كيفية السيطرة على حقول النفط في المنطقة، وباستخدام القوة، إن لزم الأمر، ولكن السفير الأميركي الأسبق في المملكة العربية السعودية، واعتقد أنه «المستر أتكن» Atkin، الذي قيل، أنه كان متعاطفاً مع العرب Pro Arab، نصح الإدارة الأميركية بعدم استخدام القوة، وإنما لا بد من افتعال أزمة في المنطقة، تهدد وجود بعض الدول النفطية، مما يضطرها إلى الاستعانة بنا، ولا يسعنا في هذه الحالة إلا تلبية الطلب، ونتمكن في هذه الحالة من السيطرة الكاملة على نفط المنطقة. وقد نشرت بعض الصحف الأجنبية ذلك في منتصف السبعينيات، وهذا ما حدث بالفعل.

إن العروبة يا أخي ليست رداءً ألبسه ثم أخلعه وقتما أشاء، إنها قدري وقدرك، وعلينا أن نتحمل مسؤولياتنا، والدفاع عنها والتمسك بها. ليست الكويت وحدها الضحية، وإنما كلنا ضحايا لما حدث، ولكن بنسب ودرجات متفاوتة. وعلينا أن لا نعفي أنفسنا من الأخطاء، ونحملها للغير، ولكن الواجب أن نعرف أخطاءنا أولاً لنتداركها. فأنت تقول بأن الفلسطينيين خانوا الكويت وتعاونوا مع الاحتلال، وأنا لا أريد أن أناقشك في صحة ما تقول، ولكن أسألك : لماذا سلك الفلسطينيون هذا المسلك، علماً بأنهم - وكما يعلم الجميع - وقفوا مع الكويت إبان تهديد الرئيس العراقي عبد الكريم

قاسم بغزوها عام ١٩٦١؟ ألا تعتقد أن الإجراءات والمضايقات الكثيرة التي تعرض لها الفلسطينيون في الكويت في الثمانينيات، والتشريعات والقوانين التي كان هدفها تغيير التركيبة السكانية في الكويت، جعلت الفلسطينيين يشعرون بأنهم المستهدفون.

حينما لاحظت بأن الدكتور حسن الإبراهيم بدأ يقتنع بما قلت، طلبت منه أن نفكر في طريقة لتجاوز هذه المحنة، ونحاول في إعادة اللحمة، وقلت له سألتقي مع غيرك، ونعقد اجتماعاً موسعاً لبحث ما هو مناسب، فإن علينا نحن المثقفين والمتنورين والكتاب دوراً يجب علينا القيام به نحو أمتنا، وإلا كنا مقصرين بحق أنفسنا وبحق وطننا وأمتنا. إن الأمة حينما تواجه مشكلة تتطلع إلى مفكريها ليهدوها إلى سواء السبيل.

كانت اجتماعاتي بمن التقيتهم من الأخوة الكويتيين إيجابية، ووجدت لديهم الرغبة في تنقية الأجواء، وتجاوز الأزمة، وإعادة اللحمة. وتم الاتفاق على عقد اجتماع أولي يضم عدداً من الشخصيات الأردنية بعد عودتي إلى الأردن، وإخطارهم بها. وفضلوا أن يكون هذا الاجتماع في مركز ابن خلدون بالقاهرة الذي يرأسه الدكتور «سعد الدين إبراهيم». ولما شعروا بعدم الارتياح لمكان الانعقاد، لم يمانعوا في عقده بجزيرة قبرص.

طلب مني بعض الرسميين الكويتيين، وبخاصة الوزير محمد العصفور، والبرلماني محمد جاسم الصقر، البقاء والعمل في الكويت، وأن الحكومة، ترحب بي، وقال لي الأستاذ محمد العصفور، بأنه مستعد لإحضار بناتي وأسرهن أيضاً لمدى معرفته بتعلقي بهن، فشكرته، واعتذرت عن قبول العرض حتى لا يتهمني أبناء الجالية الأردنية والفلسطينية، بأنني جئت لتحقيق مصالح خاصة لي في الوقت الذي كانوا فيه يشكون - كما ذكرت - من سوء معاملتهم، وتدهور أوضاعهم، وقلت لجميع الذين طلبوا مني البقاء والعمل في الكويت، بأنني سأعود حينما تصفوا النفوس، وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى قبل الاحتلال، وعندها لن أعود وحدي، وإنما مع العائدين الذين خرجوا من البلاد ظلماً وعدواناً.

حمدت الله أنني رفضت البقاء والعمل، رغم أنني كنت في الأردن، منذ مغادرتي الكويت، بدون عمل، وبحاجة إليه، فقد زارني في منزل شقيقتي بالكويت، حيث كنت أقيم، الصديق «خيري أبو الجبين» مرتين، في الأولى مرحباً، وفي الثانية مستفسراً عن سبب قدومي إلى الكويت، فقلت له: وماذا سمعت؟ قال سمعت أنك قبلت البقاء والعمل في الكويت، مما أدى إلى استياء عدد من أبناء الجالية الذين قالوا بأن الحكومة تحاول أن ترشيني. فقلت له: لم أحضر هنا للعمل، وقد رفضت العمل لكل الذين عرضوه عليّ، وإنني سأعود إلى الأردن بعد ثلاثة أيام، فانفرجت أسارير وجهه، وشد

على يديّ قائلاً : إنني أعرفك.. إنك صاحب موقف ومبدأ.

حينما وصلت عمان، اجتمعت بعدد من الأصدقاء، وأطلعتهم على نتائج زيارتي إلى الكويت، وعرضت عليهم أن يكونوا من ضمن الشخصيات التي تحضر الاجتماع الأول الذي تم الاتفاق عليه مع الأخوة الكويتيين. وكان من أبرز الذين اجتمعت بهم الدكتور «ناصر الدين الأسد» والأستاذ : «محمود الشريف – وزير الإعلام آنذاك – والمحامي المعروف الوزير السابق «عمر النابلسي»، والمحامي «محمد ملحم عياش». وفي وقت لاحق، ذهبت مع الصديق رجل الأعمال المعروف «جورج خنوف» رحمه الله وقابلنا وزير الخارجية آنذاك الدكتور «عبد الله النسور»، الذي رحب بالفكرة.

وللأسف زادت الأجواء توتراً بين الأردن والكويت على أثر ما حدث في قمة المؤتمر الإسلامي في مدينة دكار، عاصمة السنغال، حيث شعر الملك بالانزعاج من مواقف بعض القادة الخليجيين، فعاد إلى عمان، وعلّق البحث في ملف العلاقة بين الأردن والكويت، وطُلب مني طي هذه الصفحة. وفي اتصال تم بيني وبين الدكتور «مازن العرموطي» مدير مكتب ولي العهد آنذاك «الحسن بن طلال»، طلب مني كتابة تقرير عن زيارتي إلى الكويت ليقدمه إلى سمو ولي العهد، فاعتذرت، ولكن أبديت استعدادي لمقابلة سموه. وكنت، ولا زلت أقدر الدكتور «مازن» وأحترمه، فهو الإبن الأكبر لصديقي الوفي معالي الأستاذ «محمد نزال العرموطي» وزير الداخلية الأسبق، والسفير الأردني في الكويت سابقاً، وهو رجل أعمال معروف، وكنت نائبه حينما كان رئيساً لشركة الإنماء والاستثمارات العربية التي سبق ذكرها.

لزمت بيتي، وأشغلت نفسي بالقراءة والكتابة، وإلقاء المحاضرات والاشتراك في الندوات التي كانت تعقد في المنتديات والمؤسسات الثقافية بعمان، مثل مؤسسة عبدالحميد شومان. وكنت أكتب مقالاً أسبوعياً في جريدة الدستور الأردنية، وتمكنت من استكمال تأليف كتاب عن مدينة خان يونس، مسقط رأسي، وعنوانه : «خان يونس : ماضيها وحاضرها». وهي رغبة كانت تراودني من مدة طويلة، وقد بدأت بجمع ما استطعت جمعه من المراجع منذ سبعينيات القرن الماضي، حيث واجهت الكثير من المصاعب في جمعها بسبب ندرتها، وخلو الكتب التاريخية من أي ذكر يشفي الغليل عن خان يونس، لأسباب ذكرتها في كتابي.

فوجئت في يوم من أيام شهر نسيان / إبريل عام ١٩٩٢ باتصال هاتفي من الصديق الأستاذ الدكتور «ناصر الدين الأسد» الذي كان آنذاك رئيساً لجامعة «عمان الأهلية» يسأل عني، وهل أنا ملتزم بعمل. فقلت له، بأنني ملتزم مع نفسي، ومنشغل في الكتابة والتأليف. فقال : نحن نرحب بك لتعمل أستاذاً بالجامعة. فقلت له بأنني لم



– صورة للمشتركين في ندوة الذكرى السادسة عشر لرحيل الزعيم الفلسطيني احمد الشقيري. ويبدو فيها من اليمين : المحامي المرحوم إبراهيم بكر، والمرحوم عبد المجيد شومان رئيس مجلس إدارة البنك العربي، والدكتور اسعد عبد الرحمن مدير مؤسسة شومان آنذاك، والأستاذ خيري ابو الجبين، وأنا الجالس على اقصى اليسار.

أقدم طلباً. فقال : مثلك لا يقدم طلباً، وإنما نحن نسعى إليك، فقبلت عرضه شاكراً. وبعد بضعة أيام، وبالتحديد في ١٥/٤/١٩٩٢، أرسل لي كتاباً رسمياً بتوقيعه جاء فيه بعد التحية :

«فيسرني أن أخبرك أن مجلس جامعة عمان الأهلية قد قرر – في جلسته المنعقدة يوم الثلاثاء ١٤/٤/١٩٩٢ – الموافقة على تعيينكم أستاذاً في قسم العلوم الاجتماعية بكلية الآداب والعلوم في الجامعة لمدة عام جامعي يبدأ من ١/٩/١٩٩٢م وينتهي في ٣١/٨/١٩٩٣.

فأرجو التفضل بالاتصال بنا في الوقت الذي يناسبكم لتوقيع العقد. واغتنم هذه المناسبة لأعرب لكم عن أصدق المودة وأطيب الأماني».

وفي ١٦/٥/١٩٩٢ أرسل لي الدكتور ناصر الدين الأسد، بصفته رئيس الجامعة كتاباً آخر، جاء فيه بعد التحية :

«فإنه من دواعي سروري أن أخبرك أن جامعة عمان الأهلية رأت – تقديراً لكم – أن تطبق المادة (٨) من تعليمات الرواتب والعلاوات، فتخصص لكم شهرياً ما نسبته

(٢٥٪) من الراتب الإجمالي الذي تم التعاقد معكم عليه. راجياً لكم التوفيق في أداء رسالتكم العلمية السامية».

واحتراماً وتقديراً لي خصص الأستاذ الدكتور «ناصر الدين الأسد» لي غرفة خاصة مجاوره لمكتبه، وكان يحيل إليّ بعض الأعمال الإدارية، ويكلفني باستقبال الوفود التي تأتي للجامعة والتحدث معهم نيابة عنه.

قمت بتدريس مادتي «قضايا معاصرة» و«الإنسان والبيئة». وتبحث الأولى في قضايا عالمية هامة مثل مصادر الطاقة، والنزاعات الدولية، والإنفجار السكاني، ومشاكل الحدود السياسية، الصراع على المياه في الشرق الأوسط. أما المادة الثانية فتبحث في علاقة الإنسان بالبيئة، ومدى تأثر كل منهما بالآخر، وما نجم عن تدخل الإنسان في البيئة من نتائج سلبية تهدد البشرية مثل: التلوث والتصحر والتغير المناخي.. إلخ. وقد جذبت هاتان المادتان اللتان كانتا من المتطلبات الجامعية أعداداً كثيرة من الطلاب في جميع التخصصات، الأدبية والعلمية وكنت سعيداً جداً بالتدريس.

قبيل انتهاء العام الجامعي، دخل إلى مكتبي الدكتور «ناصر الدين الأسد»، وأخبرني بأنه تحدث مع الدكتور أحمد الحوراني الذي يملك معظم أسهم الشركة المؤسسة للجامعة، وتم الاتفاق على أن أخلف الأستاذ الدكتور «حسين عطوان» الذي انتهت إعارته، وسيعود للجامعة الأردنية، في عمادة كلية الآداب والعلوم. وكان الدكتور «الأسد» يعلم بأنني عازف عن تولي مناصب قيادية في الجامعة، لأني لا أستسيغ تدخل المستثمر في شؤون الجامعة الأهلية، وبخاصة الأكاديمية منها.

أنهى الدكتور «الأسد» حديثه معي قائلاً: فكر في الأمر، راجياً أن تقبل العرض، فالكل يضع ثقته فيك، ولا مجال للتنصل من ذلك، فهي مسؤولية، ونحن نعلق عليك آمالاً كبيرة. وبعد ذلك بيومين تحدث معي الدكتور «أحمد الحوراني» وعرض عليّ العرض نفسه.

فكرت في الأمر، ولم أجد مبرراً للرفض، وتوكلت على الله، وباشرت عملي الجديد، عميداً لكلية الآداب والعلوم في بداية شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، وحاولت بكل ما أستطيع النهوض بالكلية، وكنت أتولى رئاسة الجامعة في غياب رئيسها الدكتور «الأسد»، وأرأس مجلس العمداء أيضاً في غيابه، وأشرف على كثير من لجان الجامعة ومناشطها وفعالياتها.

استقال الدكتور «ناصر الدين الأسد» في منتصف العام الجامعي، وتولى الرئاسة الدكتور «عيد الدحيات»، والذي كان أول رئيس لها، وتركها بعد تعيينه وزيراً في

الحكومة. شعرت بالاستياء لاستقالة الدكتور «الأسد» رغم بقائه في مجلس الأمناء الذي كان يرأسه معالي الدكتور «سعيد النابلسي» الاقتصادي المعروف، ومحافظ البنك المركزي والوزير السابق، ولما شعر الدكتور «الأسد» بأنني قد أترك الجامعة قال لي : إبق، فإن الدكتور «عيد الدحيات» في حاجة إليك لتساعده وتقف معه.

لقد تعرفت على الدكتور «الدحيات» وهو متخصص في الأدب الانجليزي، فوجدت فيه العالم الأديب والمخلص لعمله، والمتفاني في حب وطنه، وإخلاصه لأمته. كان رغم ما يبديه مظهره ومسلكه من خشونة، أشبه بخشونة البدوي، وقساوة الصحراء وجفافها، التي أثرت على طبعه وأسلوب تعامله، إلا أنه كان ذا قلب كبير ورحيم، وعاطفة قوية، وخلق رفيع ونبيل.

ولا أنس حينما قدمت استقالتي في نهاية العام بسبب اختلافي مع الدكتور «أحمد الحوراني»، الذي أكن له هو الآخر كل محبة ومودة واحترام وتقدير، شد على يدي قائلاً : إن الجامعة ستخسرك، وأنت تستحق كل تقدير واحترام، ولو كنت في بلد أجنبي لعرف قدرك، ووفاك حقك. ثم أرسل لي كتاباً رداً على كتاب استقالتي، قال فيه : «فإني أقبل رغبتك هذه في عدم تجديد العقد. وأود هنا أن أسجل شكري العميق لك لما بذلته من جهود مخلصة خلال الفترة التي قضيتها في هذه الجامعة، عضو هيئة تدريس وعميد، ولما تتمتع به من أخلاق سامية وصفات حميدة، وستبقى دوماً موضع تقدير زملائك وتقديري الشخصي».

ما أن علم الزملاء والعمداء بنبأ استقالتي حتى توافدوا على مكتبي يطلبون سحبها. وقد حاول الأخ «محمد الحوراني» أبو علاء مدير التسجيل آنذاك، وشقيق الدكتور «أحمد الحوراني» اقناعي بالبقاء في الجامعة، فشكرته، وصممت على موقفي وأبديت استعدادي بتقديم كل خدمة ممكنة بعد تركي العمل وبدون مقابل. وقد نفذت ذلك، فشكروا لي هذا التطوع.

رغم اختلافي مع الدكتور «أحمد الحوراني» الذي كان هو الآخر غير راغب في تجديد عقدي، كما علمت، إلا أنني لن أنس ترحيبه بي حينما علم بما عرضه عليّ رئيس الجامعة الدكتور «الأسد» سابق الذكر، وكان يشعر بالاعتزاز لكوني أعمل بجامعته. وكنت، ولا زلت معجباً بعصاميته، فقد استطاع بذكائه وقدرته وكفاءته من إنشاء مؤسساته وشركاته حتى أصبح شخصية اقتصادية مرموقة، وكان من أوائل الذين استثمروا في التعليم الجامعي في الأردن.

بعد نحو شهرين من مغادرتي لجامعة عمان الأهلية أخبرني الصديق «محمد حسين



– زيارة الجامعة الإسلامية في مدينة غزة حيث ابدو في الوسط، وعن يميني مدير الجامعة الدكتور محمد عيد شبير وعن يساري الأستاذ أحمد الساعاتي مدير العلاقات العامة بالجامعة

برهوش »، وهو رجل أعمال معروف، بأنه يود أن يجمعني بصديقة السيد « مدحت عبد اللطيف » المنسق العام بجامعة العلوم التطبيقية، والذي رحب بي للعمل في الجامعة، وهي أكبر جامعة أهلية في الأردن.

أبديت في لقائي مع السيد « مدحت عبد اللطيف » في مكتب « عبد الله أبو خديجة »، وهو أكبر مستثمر في الجامعة، الرغبة في العمل أستاذاً بالجامعة، فرحب كل من السيدين « عبد الله أبو خديجة » و« مدحت عبد اللطيف » بي. وكان رئيس الجامعة آنذاك الدكتور « بسام أبو غزالة »، قد انتهت مدة عمله، وعاد إلى الجامعة الأردنية، فعهدت رئاسة الجامعة بالوكالة إلى نائبه الدكتور « سيف الدين الرمحيّ » وهو صاحب فكرة الجامعة ومؤسسها.

قبل مباشرة العمل بجامعة العلوم التطبيقية، قمت مع زوجتي بزيارة قطاع غزة في ٢٤/٩/١٩٩٤، ولمدة أسبوع. ولم نكن قد زرنا القطاع منذ عام ١٩٧٣، ولم نستطع زيارة الأهل في تلك الفترة التي توفي فيها والدي ووالدتي، وكذلك والد زوجتي ووالدتها. فما أقسى ظروف الإحتلال، التي حالت بيننا وبين أداء واجب الوداع الأخير

لهم، رحمة الله عليهم.

ما أن علم الأهل والأصدقاء بقدومنا حتى توافدوا للسلام علينا، ووجهت لنا الدعوات لزيارة بعض المؤسسات، كان من بينها، الجامعة الإسلامية بغزة، حيث رحب بنا مديرها الأستاذ الدكتور «محمد عيد شبير»، ورتب حفلاً بسيطاً دعا إليه عدداً من مسؤولي الجامعة. ومن المعلوم أن الدكتور محمد عيد شبير قد رُشح فيما بعد رئيساً توافقياً لحكومة وحدة وطنية فلسطينية، تضم عناصر من حماس وفتح.

طلب مني الأهل البقاء والاستقرار في الوطن، وبخاصة أن السلطة الوطنية الفلسطينية، بدأت باستلام الإدارة، بموجب اتفاق أوسلو المبرم في ١٣ / ٩ / ١٩٩٣، ولكنني اعتذرت لارتباطي المسبق بالعمل في الأردن، ولتغير الأوضاع في القطاع، بعد هذا الغياب عنه، حتى أصبحت – وللأسف – أشعر بالغربة في مسقط رأسي.

بعد عودتي إلى عمان، ذهبت إلى جامعة العلوم التطبيقية، حيث رحب بي الدكتور «سيف الدين الرمحي»، واتفقت معه على تدريس مادة «الجيوبولتكس» وهي اقرب ما تكون إلى مادة «الجغرافية السياسية»، وتتناول قضايا سياسية معاصرة، تلقى على طلبة العلوم السياسية. وطلب مني أن أتولى عمادة كلية الآداب مؤقتاً، لأن عميدها عاد إلى الجامعة الأردنية، ولما شعر بعدم حماسي لتولي هذه المهمة، قال بأنه سيعفيني من ذلك بمجرد اختيار عميد مناسب. والحقيقة أنني لم أكن راغباً في تولي مناصب قيادية في أية جامعة أهلية، لعلمي بتدخلات المستثمر الرئيسي في الشؤون الأكاديمية، وهذا ما لا أطيقه. وقد تركت جامعة عمان الأهلية لهذا السبب.

بدأ العام الجامعي، ولم يعين عميد لكلية الآداب، فطلب مني الاستمرار في العمادة من أجل خدمة الجامعة، كما قيل لي، وأعفوني من التدريس كلياً، فاشترطت عدم التدخل في شؤون الكلية اكاديمياً. ولما طلبوا مني التنسيب بعدم تجديد عقود بعض اعضاء هيئة التدريس بالكلية رفضت واعتبرت ذلك تدخلاً في العمل وهددت بالاستقالة، فاستجابوا لطلبي، وقدّر لي الزملاء هذا الموقف نحوهم.

حينما باشر رئيس الجامعة الجديد الدكتور «عبد الله العبادي» العمل ذهبت مع العمداء للسلام عليه والترحيب به. كان الدكتور «العبادي» طبيباً باطنياً، وأكاديمياً معروفاً، وشخصية وقورة ومحبوبة، اتسم بالنبل وسمو الخلق. وقد نشأت بيني وبينه علاقة قوية. وكنت أنوب عنه كلما سافر إلى الخارج أو تغيب عن الجامعة.

زادت أعبائي في الجامعة بعد أن اسندت لي عمادة كلية العلوم إلى جانب عمادة كلية الآداب، كما توليت رئاسة عدد من اللجان الهامة والرئيسية في الجامعة مثل لجنة

التعيين والترقية، وهي أهم اللجان، ولجنة إعادة النظر في لوائح الجامعة وأنظمتها. وكثيراً ما كنت أستعين بزميلي الأستاذ الدكتور «بشير الخضرا» الذي كان آنذاك عميد كلية الاقتصاد الذي ارتحت له كثيراً لخلقه وعلمه وخبرته. وعينت الأستاذ الدكتور «ناصر ثابت» نائباً لي في عمادة كلية الآداب، والأستاذ الدكتور «مصطفى العبادلة» نائباً لي في كلية العلوم.

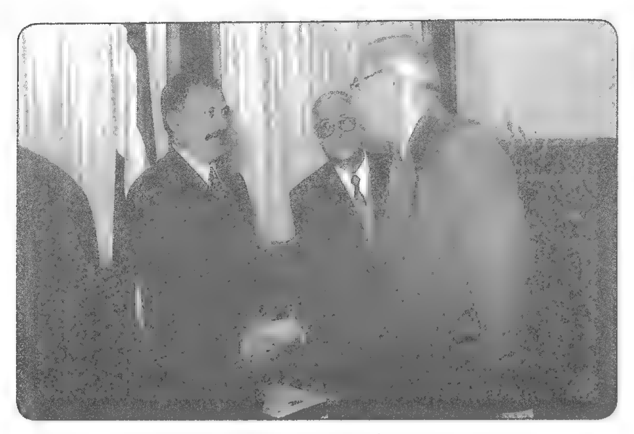
قدم الدكتور «عبد الله العبادي» استقالته في آخر العام لخلافه مع السيد «عبد الله أبو خديجة»، وكان الاتجاه موجهاً لأن أحل محله في رئاسة الجامعة لولا ما حدث بيني وبين السيد «عبد الله أبو خديجة» من حوار صريح وعلى المكشوف قلت له فيه، بأنني لا أسمح بالتدخل في عملي، وبخاصة في الشؤون الأكاديمية، فلم يشعر بالارتياح نحوي. وقام مندوبه في الجامعة السيد «عدنان مصلح» الذي أصبح فيما بعد – على اثر دعمي له، أميناً عاماً للجامعة – بالانقلاب عليّ، بعد أن كان من أشد المؤيدين لي. كان السيد «عدنان مصلح» يثني عليّ كثيراً لأبي خديجة، ويعتقد أنني أفضل من يرأس الجامعة، ولكنه انقلب عليّ لأنه شعر بأنني أسعى إلى تحديد صلاحياته، وتقليص نفوذه الطاغي في الجامعة، ووقف تدخلاته في كثير من الشؤون. وحذر السيد «عبد الله أبو خديجة» مني، ونصح بتعيين الدكتور «بشير الخضرا» رئيساً للجامعة. وهذا ما تم بالفعل.

حينما جاءني الدكتور الخضراء إلى مكتبي يعلمني بأن الاختيار وقع عليه ليكون رئيساً للجامعة هناته، ثم طلب مني أن أتعاون معه، وأن أكون نائبه، فأبديت استعدادي بذلك، وقلت له بأن المناصب لا تهمني، وإني جئت إلى هذه الجامعة لأكون أستاذاً فقط، ولكن المقادير شاءت إلى أن أدخل في دوامة العمل الإداري.

بعد بضعة أيام زارني في مكتبي السيد «عبد الله أبو خديجة»، قائلاً لي بأن رئاسة الجامعة هذا العام للدكتور الخضرا، وستكون لي في العام القادم، فشكرته. وقلت له: أنا لا أقبل ذلك، وإني لا أعتبر نفسي أفضل من الدكتور الخضرا، فهو زميلي وصديقي ورجل كفء وقدير، وأدعمه في إدارة الجامعة.

لم يستطع الدكتور «الخضرا» الاستمرار في رئاسة الجامعة طويلاً، لأن تدخلات السيد «عبد الله أبو خديجة»، أصبحت كثيرة ولا تطاق، وصار يفكر في الاستغناء عنه، ولكن الدكتور الخضرا كان أسرع منه، فحصل على عرض في «أبو ظبي»، وطبق المثل القائل «بيدي لا بيدك يا عمرو»، وتوليت أنا رئاسة الجامعة بالوكالة.

لا أريد الإطالة في هذا الموضوع، فلم أعد أطيق تدخلات السيد «عبد الله أبو خديجة»، فقدمت استقالتي نهائياً وفضلت الكتابة والتأليف. وفي فترة رئاستي للجامعة بالوكالة،



– مع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في أثناء اجتماع رؤساء الجامعات العربية باليمن.

حققت الكثير لها، منها على سبيل المثال، حل مشاكل الطلبة مع إدارة الجامعة، وحل مشاكل الأساتذة مع الإدارة، وحصول الجامعة على الاعتماد العام والخاص، بفضل علاقاتي الوطيدة مع وزارة التعليم العالي، وثقتهم بي شخصياً.

في أثناء قيامي بتولي مهام رئاسة الجامعة، حضرت الكثير من المؤتمرات التي مثلت فيها الجامعة، لعل منها، مؤتمر إتحاد الجامعات العربية، الذي عُقد في جامعة صنعاء باليمن. وفيه تم انتخاب رئيس ونائب رئيس جديدين للاتحاد، وقد رحّب بنا الرئيس اليمني «علي عبد الله صالح»، واستقبلنا في مقر الرئاسة.

لم أشعر بالفراغ بعد استقالتي من العمل، فقد استطعت استغلال وقتي في القراءة والكتابة، وكُلفت بأعمال لم أكن لأقوم بها لو بقيت أعمل بالجامعة، لأن العمل الجامعي كان يستنزف كل وقتي وجهدي، ففي الخامس من شهر آب / أغسطس عام ١٩٩٨، اتصل بي الصديق الأستاذ الدكتور «ناصر الدين الأسد»، رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية آنذاك، وأخبرني أنه اختارني لأكون عضواً في تحرير المواد الجغرافية في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية التي ينوي المجمع إصدارها، فوافقت شاكراً له هذا العرض. وقد ضمت هيئة تحرير الموسوعة نخبة من العلماء الأجلاء منهم : الناقد

المعروف الدكتور «إحسان عباس»، رحمه الله، وشيخ المؤرخين العرب الدكتور «عبد العزيز الدوري» أمد الله في عمره، ومحقق التراث الإسلامي العراقي المعروف «بشار معروف».

وفي الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨ اتصل بي الصديق الدكتور «أسعد عبد الرحمن» المدير العام ورئيس مجلس إدارة الموسوعة الفلسطينية، وعرض عليّ القيام بمراجعة شاملة للطبعة الأولى من الموسوعة، والمؤلفة من أربعة مجلدات ضخمة تشمل آلاف الصفحات. ومن المعلوم أن هذه الطبعة صدرت في عام ١٩٨٤. وقد بدأ العمل في الموسوعة باجتماع في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، عقد في صيف عام ١٩٧٧، حضره عدد من العلماء والخبراء والمختصين، وكنت واحداً منهم. ورأس الاجتماع الأستاذ «أحمد المرعشلي»، رئيس مجلس الإدارة، رحمه الله، وبحضور الدكتور «محمد صفي الدين أبو العز» مدير المعهد. وفي هذا الاجتماع استكملت رؤوس موضوعات الموسوعة. وقد كُلفت آنذاك باستكمال رؤوس الموضوعات الجغرافية.

كنت أدرك أن مراجعة الموسوعة ليس بالأمر السهل، وفي الوقت نفسه، كنت قد اطلعت على بعض الانتقادات التي وجهت لها، والمآخذ التي أخذها كثيرون عليها، ومنها أنها احتوت على أخطاء ينبغي تصويبها، وأن بها نواقص لا بد من استكمالها، وأنه مضى على صدورها، آنذاك نحو خمسة عشر عاماً، وهي مدة زمنية حافلة بالأحداث الهامة تستدعي إدخالها في الموسوعة.

رغم كل ذلك وافقت على هذه المهمة، لأني عددتها عملاً وطنياً يخدم القضية الفلسطينية، وأن هذه الموسوعة تعد ذاكرة هذه القضية. وربما كان صدورها أهم عمل أنجزته منظمة التحرير الفلسطينية. ولولا جهود ومثابرة المرحوم الأستاذ «أحمد المرعشلي» لما صدرت. وتعد هذه الموسوعة ثمرة أول عمل عربي ناجح.

تبين لي من المراجعة وجود كثير من الأخطاء، وأن معظم المواد التاريخية - إن لم يكن جميعها - المتعلقة بتاريخ فلسطين القديم اعتمدت على مصادر ومراجع توراتية أو علي كتب استقت معلوماتها من التوراة. وأن الموسوعة لم تلتزم بأصول وقواعد التوثيق العلمي، وأنها أهملت ذكر كثير من الأعلام والشخصيات الفلسطينية، وأنه لا بد من تحديثها بإضافة موضوعات استجدت بعد صدورها. وقد ضمنت هذه الملاحظات في تقرير مطول عن مراجعتي للموسوعة. ونصحت بتشكيل هيئة تحرير تتولى اصدار طبعة جديدة مصححة ومنقحة للموسوعة وتشمل جميع الاضافات اللازمة والتي ذكرت



– نزار يتوسط والديه في منزله بمدينة سان هوزيه بكاليفورنيا بالولايات المتحدة الاميركية

كثيراً منها في تقريري.

استجاب الدكتور «أسعد عبد الرحمن» لطلبي، وكلفني بتشكيل هيئة التحرير، والتي شكلتها من الزملاء الدكاترة عدنان الحديدي وصادق جودة ومامون جرار. وتوليت أنا رئاسة التحرير.

تم الاتفاق على خطة العمل في الاجتماع الأول الذي عقد في السادس عشر من شهر كانون الثاني/ ديسمبر ٢٠٠٠م، واستمر العمل نحو عامين ونيف، واستكملنا النواقص، واضفنا المستجدات من أحداث وأعلام واستعنا بكثير من ا لباحثين والمختصين واستكتبناهم. ولما أصبحت الموسوعة جاهزة للطبع، واجهتنا مشكلة التكاليف. وللأسف فإن انتفاضة الأقصى وما تلاها من أحداث وتداعيات خطيرة، صرفت الأنظار عن الموسوعة، ولم تعد تحظى من السلطة الوطنية الفلسطينية، بما كانت تستحق من اهتمام. وأخيراً وضعت المواد التي كانت معدة للطبع في «كراتين» وحفظت، ولا أدري عنها الآن شيئاً. وإني أشعر بالأسى والألم على الجهود المضنية التي بُذلت، والطاقات الكثيرة التي استنزفت في هذا العمل الذي أعتقد أنه ذهب سدى وللأسف.

في الحادي عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١ وصلني كتاب من مدير

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في «أبو ظبي» الدكتور «جمال سند السويدي»، يدعوني فيه للمشاركة في كتابة مقال أسبوعي بجريدة الاتحاد التي كنت أكتب فيها، ثم توقفت عن الكتابة لأسباب خاصة، فلبيت الدعوة والتزمت بمقال أسبوعي. وفي الوقت نفسه كنت ملتزماً أيضاً بمقال أسبوعي ينشر في جريدة الدستور الأردنية.

بالإضافة إلى تلك الأعمال التي قمت بها، استطعت، منذ استقالتي من الجامعة في عام ١٩٩٨، تأليف ثلاثة كتب، هي على التوالي : «السلام الخادع : من مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ إلى انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م». وقد علق عليه عدد من الكتاب في صحف يومية في الأردن وخارجها، ورحب به كثيرون، وانتقده آخرون. وقد صدر هذا الكتاب في عام ٢٠٠١م.

أما الكتاب الثاني، فكان عنوانه : «الإسلام والغرب : مواجهة... أم حوار». وقد كتبته بمناسبة الهجمة الشرسة على الإسلام والمسلمين، بعد تفجيرات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأميركية. وقد صدر الكتاب في عام ٢٠٠٢م ورحب به كثيرون، وقد بعث لي سمو الأمير الحسن بن طلال كتاباً اعتبرته تكريماً وتشريفاً لي هذا نصه :

الأخ الدكتور محمد علي الفرا حفظه الله

تحية المودة والتقدير، وبعد،

فيطيب لي أن أزجي إليكم التحية الصادقة والمحبة الخالصة، وأن أشكركم جزيل الشكر على إهدائكم الكريم : نسخة من كتابكم الجديد «الإسلام والغرب : مواجهة.. أم حوار؟!» وهو مؤلف قيم يأتي في وقته. وقد أعجبني فيه ـ أكثر ما أعجبني – الوضوح في التفكير والتعبير، وحسن التبويب، وذاك الاستعمال البارع للمراجع والمصادر.

فاهنئكم على هذا الانجاز، وأحييكم على عطائكم الموصول، سائلاً المولى العلي القدير أن يوفقكم ويكلأكم بعنايته.

بوركتم وعوفيتم ودمتم،

أخوك

الحسن بن طلال

وفي عام ٢٠٠٧ أصدرت كتاباً عنوانه : «العروبة.. إلى أين؟! أمة بلا قيادة» عرضت فيه الأوضاع العربية وحللتها، ووضعت كيفية الخلاص من هذا الواقع العربي الصعب. وقد علق على هذا الكتاب عدد من الكتاب مرحبين به، وكان على رأسهم الدكتور «نبيل الشريف» وزير الاعلام السابق، ورئيس التحرير المسؤول لجريدة الدستور، والذي أشاد كثيراً بالكتاب، ومما قاله : «ولو كان الأمر بيدي لجعلت هذا الكتاب مقرراً إجبارياً في مدارسنا وجامعاتنا.. .لقد استطاع الأستاذ الدكتور محمد علي الفرا، أن يقدم تشخيصاً صادقاً لأحوال الأمة، دونما تهوين أو تهويل.. وهو تماماً كالطبيب الذي يدرك أن نصف الطريق للعلاج هو تحديد المشكلة. وبعد أن يحدد أسس الداء وأصل البلاء، يقوم في الفصول الأخيرة من كتابه بالإشارة إلى دروب الخلاص من هذا الواقع العربي الصعب».

وقد أرسل لي سمو الأمير «الحسن بن طلال» كتاباً بتاريخ ٦/٤/٢٠٠٨ هذا نصه :

سعادة الأستاذ الدكتور محمد علي عمر الفرا حفظه الله

تحية المودة والتقدير، وبعد،

فيطيب لي أن أسلم عليكم، وأن أشكركم خالص الشكر على إهدائكم الكريم : نسخة من كتابكم المعنون «العروبة.. إلى أين؟! – أمة بلا قيادة». يستحق هذا العمل الاهتمام والتأمل والمراجعة فهو يستعرض التحولات التي شهدتها الأمة، مشيراً إلى سبل الخلاص من الواقع العربي المتازم الذي نعيشه.

وإذ أكرر الشكر والتقدير، فإنني أتمنى لكم دوام العطاء المثمر الخلاق كما أسأل المولى العلي القدير أن يكلأكم بعنايته دوماً ويسدد على دروب الخير خطاكم. بوركتم وعوفيتم ودمتم،

أخوكم

الحسن بن طلال

وكان منتدى الفكر العربي الذي يرأس مجلس أمنائه الأمير «الحسن بن طلال» قد عين لي لقاءً خاصاً، كان الرابع من سلسلة اللقاءات الشهرية للمنتدى لعام ٢٠٠٨م، لإعطاء نبذة عن الكتاب، وأقامة حفل توقيع لهذا الكتاب. وتم اللقاء في مساء يوم الأربعاء الموافق ١٩/٣/٢٠٠٨م وقام بتوجيه الدعوة الأمين العام «الأستاذ حسن نافعة». وقد

بذل نائبه الأستاذ الدكتور «همام غصيب» جهوداً مشكورة، كان لها الأثر في إنجاح هذه اللقاء.

لقد صدرت هذه الكتب الثلاثة عن دار مجدلاوي للنشر والتوزيع بعمان، وآمل أن لا يكون هذا الكتاب الرابع الذي كتبته، وتناولت فيه سيرتي ومسيرتي، وما سجلته من مشاهدات وأحداث عن الأقطار التي أقمت فيها وطبع في عام ٢٠٠٨م آخر الكتب، وأدعو الله أن يمد في عمري ويمنحني القوة لتاليف كتب أخرى.

إلى جانب هذه الكتب التي ذكرتها، هناك كتب أخرى جامعية كثيرة وبحوث علمية عديدة نُشرت في مجلات علمية محكمة، لا مجال لذكرها في هذا المقام.

إنني أعد العمل، وبخاصة في مجال العلم، عبادة ورسالة، ينبغي أن يقوم بها كل قادر على القيام بها، والله سبحانه وتعالى يقول: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» صدق الله العظيم.

١- كان «جورج بوش» الأب آنذاك رئيساً للولايات المتحدة الاميركية.

هذا الكتاب

في مسيرة الحياة، نتعرف على أشخاص كثيرين، منهم من نمر عليهم مرور الكرام، فهم لم يؤثروا فينا، ولم نتأثر بهم، ولم يتركوا في الحياة أثراً يخلدهم بعد رحيلهم، وآخرين نقف أمامهم إجلالاً واحتراماً، لما قدّموه من إنجازات علمية وفكرية، ساهمت في نمو المعرفة، وإثراء الثقافة. لقد كان هؤلاء القدوة لنا في حياتنا العملية نستلهم منهم الهمة، ونستمد منهم القدرة والعزيمة على تحدي الصعاب واجتياز العقبات.

يُعد أستاذي الدكتور «محمد علي الفرا» من هؤلاء الأشخاص الذين تميزوا بهذه المزايا، فهو عصامي في نشأته، دؤوب مثابر، صاحب فكر وموسوعي المعرفة، حباه الله بذاكرة قوية، يستطيع استحضارها، فيذكر الكثير من التفاصيل الدقيقة لأحداث الزمان، وخصائص المكان، منذ كان طفلاً وصبياً ويافعاً وكهلاً وشيخاً.

على الرغم من الكتب الكثيرة التي ألفها، والبحوث التي نشرها، إلاّ أن ما يميز هذا الكتاب الذي بين أيدينا، اعتماده الكلي - تقريباً - على الذاكرة. ففيه جعل من نفسه شاهداً على زمانه منذ نشأته الأولى في مسقط رأسه - مدينة خان يونس - فوصف الحياة البسيطة فيها، وسجّل الأحداث الخطيرة التي شهدتها فلسطين آنذاك، من ثورات وحروب والتي انتهت بنكبة عام ١٩٤٨م.

وبالأسلوب نفسه، كتب عن البلاد التي أقام فيها، سواء كان للدراسة أو العمل - كمصر والسعودية والكويت وبريطانيا فصوّر لنا - على شكل مشاهد حيّة - مظاهر الحياة المتعددة في تلك الأقطار في القرن الماضي، وذكر أهم الأحداث التي شهدتها، ووصف ملامح مجتمعاتها، وأنماط حياتها، وما حدث فيها من تطورات وتغيرات، مما يجعل من كتابه مرجعاً قيماً لمن يريد التعرف على أحوال تلك البلاد آنذاك.



ربما كان من المزايا الأخرى لهذا الكتاب نجاح المؤلف في المزج بين الأسلوب ال
والمنهج العلمي والموضوعي في ذكره للأحداث وتحليلها، مما يجذب القاري
يقبل على قراءته.

يمثل هذا الكتاب، لمن هم في جيلي - حقبة من التاريخ عاصرنا معظمها،
جميل، نتوق له، ونشعر بالحنين إليه، وهو يبين معالم الطريق لهذا الجيل المتخ
فقد بوصلة التعرف على تاريخه وهويته. وفي الوقت نفسه، فإن هذا الكت
الأمل، في زمن نحن بحاجة فيه إلى الأمل، إذ لا حياة بلا أمل، ولا أمل بلا حياة.

د. سامية الفرا